الكاتب الكبير
الأستاذ سامي خشبة
تحية لجهد خلاق

الساعة الأخيرة

الساعة الأخيرة

مجموعة قصصية

تأليف

علي أبو المكارم

العنوان	الساعة الأخيرة (مجموعة قصصية)
المؤلف	على أبو المكارم
الطبعة	الأولى
السنة	٢٠٠٣
تصميم الغلاف	رسام عمرو عكاشة
رقم الإيداع	١٦٦٤٦ / ٢٠٠٣
الناشر	دار الهانى للطباعة ٤٤٤٢٠٥٥

في البدء كانت الكلمة فعلا

سوناتا (رفع الستار):

فيلهم هدم البيت
أبرهة الأبيض فوق الكعبة
الحكيم أبورغال يبنى مجده
يفرش خديه
كى يقبس شرف العصر
يحمل أظلاف الأعلاج الموصومة
في الأغوار
في بيسان ... وفي الأنبار

* * *

كونشرتو (بعد رفع الستار)

والعصر

إن الإنسان لفى خسر

...

والليل

إن الناس لفى الويل

...

إلا الذين لا ينظرون

وإذا نظروا لا يبصرون

وإذا أبصروا هم لا يعقلون

إلا الذين لا يقرءون

وإذا قرءوا لا يفهمون

وإذا فهمواهم لا ينطقون

إلا الذين يركعون

ويسجدون

يسبحون

يصفقون

ويهتفون

نعالَ أسيادهم يلعقون

أولئك هم الفائزون

على صدور الناس يجثمون

وفي جنات الأرض ينعمون

...

أولئك هم الوارثون

الذين يرثون

الأمصار ... هم فيها حاكمون

...

أولئك هم الملعونون

يلعنهم الله

ويلعنهم اللاعنون

* * *

سوناتا (الختام) :

برغم الحائمات العابسات

الساقطات المسقطات

والحشود الحاميات

الصاريات السامقات

والكلاب العاويات

والسياط العاديات

الصارخات

والعظات الساخرات

السافرات

السافلات

والراقصات العاريات

الداعرات

والعيون الكاذبات

الماجنات

والحمير الناهقات

ستأتى القاصمات الغاصفات المرسلات

الماحيات

* * *

الساعة الأخيـرة

استعلامات المطار ، أيّ خدمة ؟

قالها بصوت آلى يغالب النوم وقد أجهده البقاء يقظا طوال فترة المساء دون عمل حقيقى حتى تجاوزت الساعة الثانية بعد أن انتصف الليل ٠ هل كان يحلم أم تلقت أذناه حقيقة ذلك الصوت الهادئ :

– هذه رسالة تحذير ، ستنفجر القنابل بعد ساعة ، يجب إخلاء المطار فورا لأننا لا نريد خسائر بشرية ٠

– أفندم !

صدرت الكلمة تلقائيا دون وعى ، أوشك أن يصرخ في السماعة لولا أن عاجله صوت وضع السماعة في الطرف الآخر ، لم يحس لأول وهلة بشيئ محدد كأنما أصيب بضربة مفاجئة على مؤخرة رأسه لم تتح له فرصة للشعور حتى بالألم ٠ ظلت يده متجمدة على السماعة وقد ابتعدت عن أذنه مسافة قصيرة ٠ مرت عيناه فيما حوله فاختلطت الصور وتداخلت حتى إن زميلتيه في مكتب الاستعلامات بدتا شبيهتين بلوحتين باهتتين معلقتين دون إطار في فراغ انتشرت فيه بقع لونية حائلة متداخلة ، ولم تلتقط أذناه سوى همسات ضحك مكتوم وهو يقول لنفسه :

-بالتأكيد هزار سخيف .

تمتم لنفسه كأنما يطمئنها ، وألحت عليه في نفس اللحظة يقظة مؤرقة :

-وماذا تستطيع أن تفعل ؟

نتأ السؤال في الذهن وراح ينداح فيحدث دوائر متصلة من الاضطـراب الممزوج بالفزع .

-ستبلغ طبعا طبقا للتعليمات .

-ولكنك ستظل مرهونا في أيديهم إلى أن ينجلى الموقف .

-الله أعلم متى ينجلى . وكيف .

"حتى تنجلى الأزمة سيسألونك عن خصائص الصوت الذى لم يستغرق ثوانى ، هل يمكنك أن تصفه ؟ هل تستطيع أن تعترف بأنك كنت في حالة لا تسمح لك بإدراك شيئ ؟ ، سيسلمك الواحد منهم إلى الآخر وكل منهم يتصور أنه سقط على فريسة : تذكر كل شيئ ، لا تنس شيئا ، ماذا كنت تفعل بالضبط حين جاءتك المكالمة ؟ ماذا قال لك بالضبط ؟ ألم تنس شيئا ؟ عبارة ؟ كلمة ؟ حرفا ؟ ألم تصحب الكلمات أصوات أخرى ؟ هل كان الصوت نقيا أو مغلفا بشيئ ما ؟ هل كان اتصالا حيا أو تسجيلا ؟ فكر بهدوء : ألا تعرف هذا الصوت ؟ ألا تعرف صوتا يشبهه ؟ ماذا قلت أنت له ؟ من في تصورك يستطيع أن يضع القنابل ، مؤكد أنه ليس شخصا عاديا لأنه يلمس بوضوح صرامة الإجراءات الأمنية ، ألا يحتمل أن يكون شخصا من العاملين ؟ مثل هذا الشخص هو الذى يمكنه أن يعرف نظام الأمن ويستطيع أن يستغل ثغراته إذا كانت فيه ثغرات خصوصا إذا كان موثوقا به وليس موضع شبهة . من يكون هذا الشخص في نظرك ؟ فكّر . قل رأيك . هل أنت متأكد أنه قد حدث اتصال فعلا ؟ ألا يجوز أن يكون التبليغ بناء على معلومات شخصية ، لا تنف بهذه الشدة فالإنكار العنيف دليل ضدك ، على أى حال يمكننا أن نحتسب مبادرتك بالتبليغ إذا تعاونت معنا ، سنعرف بالقطع كل شيئ فلا تحاول الكذب ، لم لا نعقد معا اتفاقا ، ستقول

كل ما عندك فتوفر علينا الوقت ونمنحك فرصة أن تكون شاهدا ، ما رأيك ، اتفقنا" ٠

ارتطمت السماعة بالجهاز بعد أن اختلت يده فلم تضبط المسافة بدقة مع أنه كان يستطيع ذلك وهو مستغرق في أحلامه ٠ هل لفت صوت الارتطام زميلته نيفين أو أن الذى لفت نظرها نظرة عابرة كانت كافية لتريها وجهه ممتقعا ، بادرته باسمة ربما لتتخلص من احتمال أن تلتقط أذنه شيئا من تعليقاتها على حديث إنجى :

-لم لا تذهب لتستريح ؟ فينا الكفاية ٠

تابعت إنجى لتغريه :

-استراحة الأمن أفضل من هذه الكراسى التى تكسر الظهر ٠

ظل صامتا وعيناه تحدقان لا تطرفان ، تمتمت نيفين :

-إنه ليس هنا ٠

التفتت إليها إنجى مستنكرة ٠

-هنا ؟ ! إنه في سابع نومة ٠

هل انتشله الحوار من لجته التى غرق فيها فاضطر أن يعقب بصوت جهد في أن يجعله عاديا ولكن مسته برغمه بحة غير معهودة ٠

-أنا صاح جدا ٠

-واضح جدا ٠

اشتركتا معا في التعقيب وهما تضحكان ، فوجد نفسه يضيف :

-أنتما لم تسمعا ما سمعت ٠

قاطعته نيفين مشيحة بيدها :

-يا خويا ، ياما سمعنا ٠

وانصرفت بوجهها إلى زميلتها تحثها على المتابعة وقد استبدت بها الرغبة في استكمال الحكاية والأسف على انقطاعها ٠

لكن إنجى همست :

-يا شيخه حرام ، كبستيه ٠

اكتفت نيفين بنظرة تعنى : "سيبك منه" وتقاربت رأساهما من جديد في حديثهما الهامس - فخبر زيارة يارا المضيفة المتغطرسة بصالة كبار الزوار لشقة المقدم يسرى الأعزب الشهير ومؤسس مؤسسة الترفيه في جهاز الأمن الخاص أهم ألف مرة من الحديث مع هذا النائم الذى لا يمل الهلوسة •

حملته الكلمات على التوقف وقد أوشك أن يفيض وأسقطته حركة اليد المتقززة في جب الوحدة فاستغرقة الصمت " لا تقل شيئا إنها مجرد دعابة ثقيلة الظل - بالتأكيد هناك قنابل - وهل في وسع أحد أن يضع هنا قنابل ، مستحيل" أخرج علبة سجائره بأصابع مرتعشة وهم بأن يشعل سيجارة ولكنه توقف •

"هل تظن أنك ستكون في مأمن لو بلغت ؟ أنت واهم ، يظلون يحيطون بك ويحاصرونك فريسة لا يملون من نهشها : أين خبرتك الطويلة في موقعك ؟ ألا تستطيع التمييز بين بلاغ كاذب بقصد إثارة الفوضى وبلاغ حقيقى ؟ هل إذا اتصل بك هلفوت تصدقه وتسارع بنشر الأكاذيب في موقع شديد الحساسية كهذا الموقع ؟ أليس لديك عقل ؟ كيف يمكن وضع قنابل هنا ؟ أتظن ذلك ممكنا ؟ هل فكرت في ذلك يوما ؟ بالتأكيد تعلم أنه مستحيل" •

تمتم لنفسه :

-إنها دعابة بالتأكيد •

وأشعل سيجارته بأصابع مرتعشة ، أخذ منها نفسا طويلا احتبسه في فمه :

"لكن يظل الأمر محتملا ، ثم هناك احتمال أن يكون الاتصال مسجلا ، كما أن هناك احتمالا آخر بأن يكون من قبيل اختبارات اليقظة "

-إنها لمشكلة •

همّ بالوقوف فأقعده الدوار :

"التبليغ خطر والصمت أخطر ، المسالة ليست سهلة ، هناك ضرر محقق ، لابد من طريقة غير التبليغ الرسمى وغير الصمت ، طريقة تجمع

بين التبليغ وعدم التبليغ وتبعدك بقدر الإمكان عن المخاطر المؤكدة في كل منهما" .

ندتّ منه التفاتة إلى الزميلتين اللتين استغرقتا تماما في حديثهما الهامس ، همّ أن يفتح فمه لكنه وجد نفسه يضم شفتيه بقوة ويجز على أسنانه حتى سمع لها صريرا ، ألقت إليه نيفين نظرة عجلى ارتدت عقبها إلى زميلتها وكأنها لم تر شيئا ، خطر له خاطر : "هل سمعت صوت صرير أسنانك " في نفس اللحظة كانت تقول لنفسها : "لقد دخل في مرحلة انعدام الوعى ، نستطيع أن نتابع على راحتنا" فقد كانت المرحلة الحساسة في الحكاية اقتربت ، إنهما الآن في حجرة النوم .

همست لإنجى .

-كان فيه تسجيل .

ردت بتلقائية .

-أنت تعرفين يسرى .

رددت لنفسها دون أن تتحرك شفتاها : "بالتأكيد لا يفوته ذلك ، فما الذى سيدفعها بعد ذلك إلى الانضمام إلى المؤسسة" .

أشرق وجهها وهى تعقب :

-نستطيع أن نرتب أمورنا على أنها ستبدأ الشغل خلال أيام .

هل أرادت إنجى أن تشاكسها حين قالت معترضة :

-أظن أن هذه المرّة ستأخذ وقتا أطول .

قاطعتها بغيظ وقد عاد إلى ذهنها ملامح تجربة قريبة :

-هذا دلع .

تابعت إنجى :

-أو إعجاب .

هل أحست أنها قد أساءت إلى زميلتها إلى الحد الذى حملها على أن تقول لتواسيها :

-ستنزل الشغل قطعا ، فإعجابه من النوع القصير الأمد .

نهضت نيفين وهى تضرب بكعب قدمها اليسرى العارية ساق الكرسى شأنها حين تكون محنقة أو لا تستطيع الإفصاح ، نظرت إليها زميلتها وفي ركن عينها ابتسامة غير منظورة مشيرة بإصبعها بخفة إلى الجالس في مواجهتهما في الجانب الآخر :

-اجلسى حتى لا تلفتى نظره •

هل وجدت نيفين متنفسا حين شوحت وهى تقول بحدة غير مبالية :

-ياختى ، بلاش قرف •

سجلت عيناه الحركة وإن لم تلتقط أذنه العبارة ، أوشك أن يبدأ حديثا ولكن الهمس المكتوم أوقفه ، انكفأ على نفسه : "أنتما مشغولتان لأنكما لا تعرفان شيئا عما سيحدث" من جديد استغرقه حواره الخاص" وهل تعرف أنت ما سيحدث ؟ أيا كان ما سيحدث فلم يعد الأمر كما كان ، لا يدرى أحد أين سنكون جميعا بعد ساعة ، بوسعك أنت أن تتصرف لأنك في قلب العاصفة ، أما هما "توقف عن التفكير وأمعن فيهما النظر ، لم تحس أى منهما بما تغير فيه ، غمغم لنفسه مشجعا : "فيكما حماقة ، لكن الحماقة ليست سببا كافيا للموت" •

-كنت أريد أن أقول لكما •

توقف ، ثم تنحنح كمن يعتذر ، إنه يقحم نفسه في حديث خاص في لحظة غير مناسبة ولكنها الضرورة ، قاطعته نيفين بحدة :

-لا تقل شيئا •

أضافت إنجى ملطفة :

-لا داعى للاعتذار ، قلنا لك من قبل تستطيع أن تذهب لتنام •

أطبقت أسنانه على شفته السفلى لكنه لم يحس بطعم الدم على لسانه •

"لا تنزعج بشأنهما ولا داعى لإثارة الذعر ، مجرد تنبيههما كفيل بأن يجعل صراخهما يملأ الدنيا ، ثم إنه من المحتمل أنه لا توجد قنابل قريبة " برغمه راحت عيناه تدوران في الحجرة متفحصة قطع الأثاث المحدودة : المكتب الخشبى القديم الذى جلست إليه زميلتاه ، المكتب الصاج المجاور

الذى احتل سطحه لفات الوجبات الجاهزة من إحدى شركات الطيران وقد وضعت فوق قوائم الوصول والإقلاع اليومية ، الشانون ذو الأدراج التى لا تغلق في موقعه في الزاوية .

-أنا خارج ، عن إذنكم .

لم تعن أى منهما بالرد عليه ، فقد انهمكتا من جديد في حديثهما الهامس .

لماذا تسلل إلى عقله اسم يسرى بإلحاح كما لو كان طوق نجاة ، هل التقطت أذنه الاسم في غمرة الأحاديث المتداخلة ، أم هداه إليه اللاشعور وهو يبحث عمن يستطيع أن يعتمد عليه في حل المشكلة "أنت على علاقة ليست سيئة معه لكن هو ؟ تصاعدت إلى الذهن انطباعات عبارات قالها أمام زميلاته في مكتب الاستعلامات في مواقف مختلفة ، "كلامك عنه ليس فيه إساءة إليه ، بل بالعكس مقدرته على اجتذاب الجميلات مدح له . بفضل مركزه له قوة جذب آسرة ، وبفضل مركزه يمكن أن يحل المشكلة فهو قادر متى علم على تجاوز الشكليات والاتصال حتى بأعلى المستويات" .

-ليس لديك غيره ، لكن ، هل يقبل ؟

تقاصرت خطواته حتى بدا لمن يراه من بعيد ثابتا لا يتقدم ، ولكنه كان يسير في الممر الطويل الذى يفضى في آخره إلى المدخل الخلفى للحجرة ذات الحمام الخاص الملحقة بالقاعة الكبرى ، وضع يده على مقبض الباب متلاحق الأنفاس . "هل أنت متأكد أن هذا هو التصرف الصحيح" رفع يده عن المقبض وأخرج منديلا مسح به عرقا غزيرا سال على عينيه ، دق الباب بطرف سبابته ولما لم يسمع ردا أعقبه بطرقة أشد قبل أن يغامر فيفتحه وهو يقول في نفس اللحظة وقبل أن تتبين عيناه شيئا :

-آسف للإزعاج يا فندم ، لكن .

أحس بنظرات التعنيف في العيون الأربع ، عينى يسرى الجالس إلى المكتب الأنيق وسماعة التليفون في كلتا يديه ، إحداهما ممسكة بها والأخرى تقبض على بوقها ، وعينى نشوى المضيفة الأرضية في الصالة الرئيسية

التى سارعت برفع يدها من خاصرتها لتلتقط حقيبتها الملقاة على المكتب وإن ظلت عجيزتها مسندة إليه ٠

غرس فيه صمتُ الاستنكار صمتَ المهانة لحظـــات قبـل أن يقــول معتذرا :

-آسف مرة أخرى ، لكن الموضوع مهم ٠

ارتفعت إصبع يسرى طالبة الصمت مشفوعة بنظرة آمرة وهو يرفـــع السماعة إلى أذنه ليقول :

-اطمئن يا فندم ، نحن جاهزون في الموعد ٠

تلقى عبارة عقب عليها وقد انفرجت أساريره :

-نحن رهن الإشارة في أى وقت ٠

ووضع السماعة مكانها ، تمتمت نشوى وهى تنهض مستأذنة :

-أمشى أنا ؟

استوقفها بإصبعه حتى كتب كلمات قليلة في ورقة صغيرة التقطها مــن حافظة الأوراق الأنيقة التى تحمل شعار الدولة : أعطاها الورقة فنظرت إليها برهة وهزت رأسها موافقة ، أشار إليها يسرى بيده وهو يلتفت إليه بإمعـــان دون أن يدعوه إلى الجلوس ٠

-نعم ؟

نغمة الاستفسار المتعجلة تحثه على الكلام بسرعة لكـــن هـــا هـــو ذا الصمت يدركه من جديد " من أين تبدأ ؟ انتابه شـــعور مفـــاجئ بـــالضيق : "ترى ٠٠ هل أخطأت ؟ الآن لا مجال للسؤال ، فات وقت التراجع" ٠

-وصلنى تحذير ٠

-تحذير ؟

-نعم ٠

-بماذا ؟

-بوجود قنابل ٠

-نعم ؟! ٠

شاركت العينان الواسعتان اللتان ارتفع حاجباهما الصوت المرتفع في مزيج من الدهشة والغضب ، تابع موظف الاستعلامات :

-دق جرس تليفون المكتب ولما رفعت السماعة جاء التحذير .

هل كان يسرى متماسكا بالفعل أو أنه تظاهر بالتماسك وهو يسأل :

-ماذا قال بالضبط ؟

-طلب إخلاء المطار لوجود قنابل فيه .

هل كان يسأل أو يستنكر حين قاطعه :

-كنت صاحيا ؟

لم يفطن الرجل إلى ما تحمله العبارة من تلميح واستمر :

-قال إنهم لا يريدون خسائر بشرية .

-ما هذا التخريف ؟ لماذا وضعوا القنابل إذن ؟

لفهما الصمت برهة وجيزة تمكن يسرى فيها من أن يسترد هدوءه ليسأل :

-متى كان الاتصال ؟

رفع موظف الاستعلامات ساعده وتأمل الساعة ، كيف لم ير عقاربها بوضوح ، غمغم :

-من دقائق .

سأل يسرى بحزم :

-بالضبط ، هذه مسألة مهمة جدا .

هل كان هذا صوته المفعم وجلا وترددا وجبنا وهو يجيب :

-أظن من حوالى ربع ساعة .

قاطع يسرى بحدة :

-تظن ؟!

وتابع بغيظ .

-واضح أنك لا تقدر خطورة الموقف .

هل كانت العبارة تحثه على الكلام أو على الصمت ، غرق في لجـــة عرق نضح به جسمه كله ، وماذا كان في مقدروه أن يفعل وقد جاءه التحذير في وقت غير مناسب ، وغزاه باضطراب حتى النخاع ، زاغــت العينــان واختلجت الشفتان دون أن يصدر عنهما صوت ، من جديد حدق فيه يســرى وقد خطر له خاطر "ستحاسب فيما بعد ، المهم الآن معرفة الحقيقة كاملة" ٠

-ألم يحدد مهلة للتحذير ؟

-قال خلال ساعة ٠

رفع هذه المرة يسرى ساعده ونظر إلى ساعته ، هم بالنـــهوض وهــو يسأل :

-هل أبلغت أحدا آخر ؟

رد باستكانة :

-أنت أول من كلمته ٠

قال يسرى بحزم ٠

-وآخر من تكلمه ، لا تفتح فمك بكلمة واحدة ٠

تساءل موظف الاستعلامات وكــأنما أصابته دهشة وإن لم تخل أعماقه من قدر من الراحة :

-ألا أحذر أحدا آخر ٠

قاطعه محتدا :

-قلت لا تفتح فمك على الإطلاق ٠

-حتى ولا زميلاتى في المكتب ٠

-ولا زميلاتك في المكتب ٠

تساءل وقد عاد إلى صوته نغمته الطبيعية ٠

-ماذا أفعل إذن ؟

-لا تفعل شيئا ٠

هل أقنعه حين أضاف ٠

-أخطر شيئ في مثل هذه الظروف هو الذعر الذى يصيب الناس ، إنه يمكن أن يؤدى إلى كارثة .

-لكننى .

من جديد عاد إلى الصوت نبرة الفزع ، لكنه ما لبث أن توقف فلم يتم العبارة ، كاد يسرى ينهره فأوقف الكلمات وهو يرى الوجه الذى ازداد امتقاعا والأذن التى ازدادت صفرة والرعشات المتكررة في حركة الفكين والاختلاجات المضطربة في العينين "كيف فاتك أن مثل هذا الشخص المرعوب لا يمكن أن يكون أهلا لموقف كهذا ، إنه بالقطع عبء يجب التخلص منه" .

قال يسرى بعجلة وهو ينهض :

-ماذا تريد ؟

وتابع في صوت يجمع بين السخرية واللوم والقرف والضيق :

-لقد ضيعتَ وقتا طويلا .

تلقت أذنه عوضا عن الكلمات مزيجا من الغمغمة والتلعثم وحشرجة تنفس غير منتظم ، وبعد جهد أدرك أنه يريد ألا يذكر اسمه في أى تبليغ رسمى .

استوقفته غرابة الطلب فصاح بتلقائية :

-لماذا .

ولكنه لم ينتظر ليسمع ردا ، نهض مسرعا وهو يقول بصرامة :

-ستظل هنا إلى أن أعالج الموقف ، لا تفعل أى شيئ ولا تلمس أى شيئ إلى أن أعود ، مفهوم .

هز موظف الاستعلامات رأسه دون أن ينبس ، التقط يسرى جهاز الاتصال اللاسلكى الشخصى من فوق المكتب وسار بخطى سريعة إلى الباب . التفت إليه من جديد ويده على المقبض ، كان ما زال واقفا منذ دخل ، يتوسط الغرفة ، بعيدا بمسافة تكاد تكون متساوية عن المكتب والمقاعد والمنضدة والدواليب ، رفع يسرى إصبعه محذرا :

-لا تتحرك من مكانك إلى أن أعود ٠

ولم ينتظر ليرى رأسه تهتز بعد أن وجد صعوبة في أن يفتح فمه فقد أغلق الباب خلفه ، ونادى أحد جنود الحراسات الخاصة الملحقين بالقاعة وأمره بأن يأخذ موقعا ثابتا أمام الباب وألا يسمح لأحد مهما كان بالدخول أو الخروج ٠

رفع الجهاز إلى فمه وهمّ بأن يضغط الزر ٠ لكنه توقف في نفس اللحظة : "من الخطأ أن تتحدث عن شيئ كهذا في جهاز اللاسلكى ، إنه شخص غير متوازن ويثير السخرية ، ربما كان هناك من يسخر منه ، هل تجعل نفسك أيضا سخرية للآخرين ، المسألة تحتاج إلى تفكير" ٠ رفع ساعده وألقى نظرة سريعة على ساعته" بالرغم من جميع الاحتمالات فالمسألة تحتاج إلى تفكير دقيق ، وما زال هناك بعض الوقت ؛ حتى لو كانت هناك قنبلة فإن فرق التفتيش عن القنابل لا تأخذ وقتا طويلا ، في آخر تجربة عثروا على القنبلة الوهمية وأبطلوا مفعولها في نصف ساعة ، المهم الآن أن تفكر بهدوء في الخطوة الأولى" ٠

"الخطوة الأولى" تشابكت الاحتمالات وتداخلت حتى أصبحت غابة كثيفة موحشة : تبليغ فرق التفتيش أو إطلاق صفارات الإخلاء أو المبادرة بتأمين المواقع المهمة أو أن المسألة كلها من باب الهزار الساخر الذى لا يعالجه إلا الصمت والانتظار "من أين تبدأ ؟" في كل احتمال مزلق يسلم إلى هاوية سحيقة ليس لها قرار ، تناوشته الاحتمالات المفزعة فأحس لها بوخز من لا يستطيع التنفس وأدركه دوار من يسقط من شاهق ، وقف لحظة مغمضا عينيه "أى قرار تتخذه وأنت في هذه الحالة كارثة ، لابد من الهدوء حتى تحسن التفكير في القرار المناسب ، لا شيئ غير الهواء الطلق يمكنه أن يساعدك في هذه اللحظة " فجأة فتح عينيه وتسارعت خطواته إلى خارج المبنى - وأوغل في الظلمة بعيدا عن الأضواء دون أن يتوقف ٠ لقد كان يبحث عن موقع يفكر فيه بهدوء فيما يجب أن يفعل ، تمتم لنفسه : "اطمئن ، لا تخش شيئا ما زال هناك وقت" ٠

تنويعات على اللحن

ربما كانت المرة الأولى التى انقطع فيها عم فؤاد المخزنجى عن مكانه المعتاد في قهوة باسيلى مدة طويلة ، فحتى حين مات شقيقه العطار يوسف منذ أكثر من عام لم ينقطع عن المقهى غير أيام ثلاثة كان فيها يتقبل العزاء في شقة أخيه في مصر الجديدة ، عاد بعدها إلى منزله في حارة بديع ونزل إلى المقهى يمارس حياته الطبيعية وكأن شيئا لم يكن ، ولم يجد حرجا في أن يتلقى العزاء ممن تخلف عن أداء الواجب في الأيام الثلاثة - ولم يكونوا كثيرين - وهو جالس يدخن الشيشة في مكانه المعهود على الرصيف المواجه لباب المستوصف الخيرى المقام بمسجد الرحمة على ناصية جزيرة بدران وحارة نظيم ، دون أن يحس أحد من رواد المقهى بتناقض من أى نوع بين كلمات العزاء الحزينة الحارة التى تقال والمتع الصغيرة التى تمارس • أما في هذه المرة فقد طال انقطاعه دون أن يعلم أحد له سببا ، وأحس أصدقاؤه ومعارفه في المقهى بقلق أخذوا معه يتداولون فيما يمكن أن يفعلوه •

-جائز أن يكون وقع له حادث لأنه غائب من مدة ٠

قالها المعلم صبحى وهو جالس في موقعه المعهود أمـــام درج الإيـــراد الخشبى بجوار النصبة الرخامية المكسورة التى حال لونها رافعــــا صوتـــه ليسمع الرجال الذين كانوا متحلقين يتـــابعون لليـــوم الثـــانى الحديـــث فـــي الموضوع ٠ استدرك الأستاذ عاطف فريد مـــدرس العلـــوم فـــي المدرســـة الصناعية المنقول حديثا إلى وظيفة إدارية فـــي الإدارة التعليميـــة محـــاولا التخفيف من قلق الرجال :

-المدة ليست طويلة ، لقد رأيته هنا في الأسبوع الماضى ٠

قاطعه بلبل صبى القهوة وهو يحمل الشيشة إلى أحد الزبائن مصححا :

-من عشرة أيام ، آخر يوم كان فيه هنا كان يوم ثلاث ٠

زجره المعلم صبحى ، فليس من اللائق أن يرد على زبـــون كالأســـتاذ قائلا بحسم :

-خليك في شغلك ٠

تابع عاطف مهونا :

-عموما عشرة أيام ليست مدة طويلة ٠

اعترض عم أمين الفكهانى الذى كان يكتفى قبل ذلك بالصمت :

-من ناحية طويلة فهى طويلة ٠

هل أحس بحرج فالتفت إلى الأستاذ مفسرا :

-المقدس فؤاد لم يتعود أن يغيب أبدا ٠

تمتم الرجال موافقين ، وظلوا فترة صامتين قبل أن يتســـاءل منصـــور البقال في حارة نصيف في حيرة :

-وماذا نستطيع أن نعمل ٠

وتابع موضحا :

-الرجل كما تعرفون ليس له أهل نسألهم عنه ٠

رشف عم نجيب تاذرس موظف الأرشيف في مصلحة الأملاك رشـــفة صغيرة من كوب الشاى قبل أن يعقب بهدوء :

-ممكن السؤال عنه عند الجيران والمستشفيات والأقسام .

أضاف المعلم صبحى مقترحا :

-لا تنسوا جيران أخيه المرحوم يوسف في مصر الجديدة .

هز الرجال رءوسهم موافقين ، وعقب بلبل الذى كان يتـــابع الحديـــث بالرغم من أوامر المعلم : .

-صح .

هل كان الأستاذ عاطف يعترض حين قال بهدوء :

-إمكانيات السؤال كثيرة ، ولكن ...

وصمت برهة ليضيف مفسرا :

-إنها شغلانة طويلة جدا .

ولما لم يعقب أحد استدرك مقترحا :

-فلنصبر يوما أو يومين قبل أن نبدأ البحث ، ربما يظهر .

تمتم عم نجيب بصوت مشبع بالحزن وقال ببطء وهو يحك مقدمة رأسه كعادته حين يكون مهموما :

-البحث من الآن لا يضر على أى حال .

صاح المعلم صبحى كأنما يحسم الخلاف :

-ابدءوا من الوقت الذى يعجبكم ، المهم أن تسألوا عنه .

ومن جديد استغرقهم الصمت وانشغل كل منهم بالتفكير حتى ظن عاطف أن كلا منهم قد عاد إلى عالمه الخاص وأنهم قد انصرفوا عن الموضوع كما فعلوا في الليلة السابقة ، ولذلك فوجئ حين وجد عم أمين الفكهانى ينظر إليـه بإمعان ثم يقول له بصوت يجمع بين التردد والرجاء :

-أظن أن الأستاذ يمكنه أن يسأل في القسم .

باغتته الفكرة ، رد عاطف بشيئ من الحدة المغلفة بسخرية ، هل كـــان وراءها ذكريات التحقيق التى ما زالت تقطر ألما :

-وأنتم تنتظرون هنا إلى أن أعود بالخبر ؟ !!

تغافل الرجال عن نغمة السخرية وهزوا رءوسهم موافقين ، وتابع عم منصور وعم أمين في نفس واحد :

–نحن علينا الجيران والمستشفيات .

واستطرد أمين كالمعتذر :

–معلهش يا أستاذ ، أصلنا لا نحسن التعامل مع هؤلاء الناس .

هز عاطف رأسه مفكرا ، وخطر في باله في نفس اللحظة زميله القديم في فريق الكرة في مدرسة التوفيقية الذى أصبح أحد ضباط قسم الساحل ، صفق مناديا بلبل ، وقبل أن يفتح فمه فوجئ بالمعلم صبحى يصيح في صبيه ببهجة :

–شاى مخصوص وشيشة عجمى للرجال الجدعان .

رقّت ابتسامة لطيفة على الوجوه وشرعوا يوزعون فيما بينهم المهام . اكتفى عاطف بالاستمتاع بالشاى دون أن يقرب الشيشة ، ولم يشارك في مناقشاتهم التى ارتفعت معها أصواتهم وهم يتكلمون عن توزيع العمل ، ولكن حين دب الخلاف بينهم وأخذ طابع التعارض وجد نفسه - رويدا رويدا - يشاركهم في وضع الحلول المناسبة ، وشيئا فشيئا تركوا له وضع الخطة وجدولها الزمنى ، وأحس في أعماقه بمتعة لم يحس بها من فترة ، وأدركته مشاعر الرضا التى كانت تولدها فيه شواغل وضع جدول الدراسة المزعج بفضل رغبات زملائه المتعارضة ، فتمتم لنفسه ببهجة : "ياه ، والله زمان" . وأضاف بصوت مرتفع :

–نبدأ من الغد إن شاء الله .

* * *

" ياه ، كيف نسيت ؟ ! "

قالها عاطف لنفسه مندهشا فور رؤيته للرجال مجتمعين في المقهى في نفس مكان الليلة السابقة ، وما أن انضم إليهم حتى بادروه بكلمات مقتضبة تلخص ما تبادلوه قبل وصوله من معلومات عن رحلات البحث الفاشلة ، كأنما كانوا يقدمون إليه تقريرا بنتائج بحثهم منتظرين بدورهم تقريره ، كان

يهز رأسه متابعا كأنما يشاركهم فشلهم وقد أحس بالحرج : ماذا لو سألوه ماذا فعل ، هل أدركوا حرجه فانصرفوا عن السؤال ، شرعوا من جديد يتحدثـون بالتفصيل عن التجربة التى مر بها كل منهم خلال رحلة بحثه ، هل كـــانوا يحثونه على أن يتكلم ، تحدث عم نجيب عن زيارته لجار قديم لعم فؤاد فــي حارة بديع كان قد شاركه رحلة العودة المضنية من مصر الجديدة إلى الترعة البولاقية بعد العزاء في المقدس يوسف ، وأفاض عم أمين في الكـــلام عمــا فعله وأنفقه في مستشفى الساحل ، أما عم منصور فقد شرح بانفعال ما حدث في مستشفى الجلاء ، فقد كانت صورة الجثث في ثلاجة المستشـــفى وإلـــى جوارها شرائح البطيخ ما زالت عالقة أمام عينيه :

-وأنت ماذا فعلت يا أستاذ ؟

جابهه المعلم صبحى بالسؤال فأصابه تلقائيا ضيق حرص على ألا يبـدو له على وجهه أثر ، تطلع الرجال إليه صامتين ينتظرون ، تمتم بهدوء وعيناه تعبران الدائرة المحيطة به إلى الفراغ البعيد فيبدو كما لو كان يتـــأمل بقــع الزيت الحائلة اللون في الحائط القديم :

-سألت اليوم عن ضابط أعرفه في القسم فلم يكن موجودا .

تبادلوا نظرات أسف ، فأضاف كمن يعتذر :

-غدا إن شاء الله سأسأل عنه مرة ثانية .

قال عم نجيب بعفوية مشجعا :

-ياريت .

فلما نظر إليه عاطف مستطلعا بادر عم أمين مؤكدا :

-دا تمام قوى ، ضابط في القسم يقدر يفيدنا .

صفق المعلم صبحى معقبا وهو يطلب للرجال المشروب والشيشة ،ثـــم أضاف :

-إن شاء الله أخبار بكره ستكون أحسن من أخبار النهارده .

عاد عاطف بعد السهرة إلى المنزل وقد عقد العزم على ألا يعرض نفسه للموقف الذى واجهه ثانية ، لذلك ما كاد يصحو في الصباح البـــاكر طبقــا

لعادته التى لا تتخلف حتى قرر أن يذهب إلى القسم ليسأل عن النقيب حسيب ، زميل التوفيقية المشاكس الذى يعمل فيه منذ مدة ، في الطريق عادت إليه ذكريات عذبة ، حين كان زعيما للفصل ، ورئيسا لفريق الكرة ، ومذيع الإذاعة الصباحية ، وتسللت إليه مع الذكريات انطباعات عن حسيب ظنها ماتت ، لقد كانت ثمرة كثير من المقالب الصغيرة التى كان يحسن حسيب تدبيرها ، وما كاد يصل إلى القسم حتى وجد نفسه عازفا عن رؤية زميله القديم ، ولكنه حين تذكر ما كان في المساء ابتلع ريقه بصعوبة قائلا : "الأمر لله" ، ورقى مترددا درجات السلم المفضى إلى المدخل عازما على أن ينتهى من الموضوع حتى لا يعود إليه مرة أخرى ، ولما وصل إلى الصالة الفسيحة ورأى الحركة الدائبة المتعددة الاتجاهات أصابه الارتباك ، وقف لحظات كانت كافية لترمقه فيها عينا أمين يقظ أمام ممر جانبى فأشار إليه بأصبعه مستدعيا ، وما كاد يقترب منه حتى صاح فيه :

-نعم ؟ ماذا تريد ؟

فوجئ الأستاذ فرد متلعثما :

-حسيب بك .

-فوق ، في المباحث .

وأشار بذراعه إلى سلم جانبى مظلم ، سار إليه عاطف دون أن ينبس ، وظل الأمين يتبعه ببصره إلى أن غاب عن عينيه . صعد السلم ببطء محاذرا أن تمس كتفه الحوائط القذرة ، التقطت أذناه وهو يصعد صفيرا يعزف اللازمة الموسيقية للحن منتشر يمجد القائد العظيم الذى يحقق الأمن والرخاء ، ويتوسل إليه باسم الملايين أن يقبل ترشيحه لولاية جديدة ، تسللت إلى ذاكرته - برغمه - الكلمات البذيئة البديلة التى كان تلاميذه في مدرسة الصنايع يؤدونها على اللحن عوضا عن كلماته ، وقفزت إليها في نفس اللحظة ذكريات التحقيق المضنى في الأجهزة الخاصة ، تعثر وزلت قدمه فاصطدمت ساقه وركبته ولكنه نهض ، تحسسها ثم تحسس ظهره وغمره

الانقباض ، أوشك أن يعود أدراجه لولا خشيته أن تلفت عودته السريعة نظر أحد ، مضى متثاقلا يصعد بقية الدرجات •

لما وصل إلى الدور الثانى رأى مصدر اللحن ، كان رجلا بدينا يمتد فوق فخذيه كرش ضخم إلى قبالة ركبتيه يجلس أمام باب مغلق ، مرتديا فانلة عسكرية طويلة الأكمام وبنطلونا من الكاكى تغير لونه ، سار إليه عاطف حتى أصبح على بعد خطوات منه ثم تنحنح ، لكن الرجل الذى كان يرقبه منذ صعد من السلم لم يتوقف عن العزف ، قال عاطف مترددا :

–حسيب بك لو سمحت •

توقف الرجل لحظات تفرسه فيها ثم قال :

–زمانه جاى •

تمتم عاطف لنفسه وقد تسلل إليه شيئ من الراحة :

–الحمد لله •

وهمّ أن يستدير عائدا لولا أن الرجل أضاف بهدوء :

–يمكنك أن تنتظر •

ومد يده وهو جالس ففتح الباب المغلق ، فاجأته الحركة فصمت برهة كأنما يفكر ، ثم قال مترددا :

–سأعود في وقت آخر •

لماذا تابع الرجل بإصرار :

–لن يتأخر •

كان عاطف على وشك أن يستدير حين سأل بتلقائية :

–هل حضر ؟

نظر الرجل إليه بإمعان وهو يقول :

–في حجرة التحقيق •

هل مست الكلمة فيه وترا ، سار خطوة واحدة ولكن الرجل استوقفه مادا يده ليسأله :

–شاى ؟

ولم ينتظر رده ، رفع عقيرته مناديا متولى ، جندى الأمن المركـــزى المكلف بالخدمة في المباحث طالبا منه كوبين من الشاى ، ســـارع الجنــدى طبقا للأوامر التى صارت عادة محفوظة فمد يده إلى عاطف قائلا :

-اثنين جنيه ٠

التفت عاطف منزعجا إلى الرجل البدين فقال باستهانة كأنما يفسر :

-أصله كشرى ٠

تمتم لنفسه في أسى : "كوب من الشاى بجنيهين٠، عليه العوض" ومــد يده كارها فأخرج النقود وهو يخطو - دون وعى - تجاه الباب المفتوح ٠

هل أغلق الرجل عليه الباب أم أنه في غمرة اضطرابــه هــو الــذى أغلقه ، أغمض عينيه حتى يألف الظلمة فلم يكن في الحجرة مصدر للضــوء سوى ما يتسرب من فتحات الشيش المغلق بإحكام والمبطــن مــن الداخــل بطبقتين سميكتين من السلك المقوى لتحولا دون فتحة ، ولما فتح عينيه ظــل برهة لا يتبين شيئا إلى أن أخذت الصورة تتضح أمامه شيئا فشــيئا ، أخــذه الروع وأحس بغصة : "لا يمكن أن يكون هذا مكتب ضابط" كانت الحجــرة خالية من الأثاث ليس فيها إلا كرسيان من الصاج تقشر طلاؤهما وغطاهمــا الصدأ الداكن ، وكانت الحوائط تشارك الأرضية العارية في التلوث بمــا لا نهاية له من السوائل التى جف بعضها وظل بعضها رطبا فتركت بصمــات مختلفة حجما ولونا ورائحة ٠ استبدت به الرغبة في الخروج ، هل اتجه فعلا إلى الباب ، ما باله لا يجد له مقبضا ، دق متكلفا الهدوء فلم يسمع جوابــا ، طرق بعنف وقد غمره الهلع ، أخذ يضرب بقبضتيه كلتيهما معا حتى اختــل توازنه ، كيف اصطدمت رأسه بالجدار ، كيف استطاع البدين وهو مشــغول بالعزف أن يميز وقع أقدام الضابط وهى تصعد السلم ، كيف أمكنــه برغــم عوامل الجاذبية الأرضية أن ينهض ليقول وهو يؤدى التحية :

-واحد عاوز سعادتك ٠

-ما اسمه ؟

قالها الضابط وهو يتجاوزه إلى المكتب دون أن يعنى بالنظر اليـــه ٠ تبعه البدين ليقول :

-لم يقل ٠

جلس الضابط واضعا وجهه بين راحتيه "أى عذاب يلقاه فـــي تحقيـــق طويل مع لص محترف يتقبل الجلد حتى يتمزق جلده وكأنه يأكل مهلبيـــة ، ألان المجنى عليه راقصة مشهورة عليه أن يدفع ثمن رضاها عن الرياســات العليا" ٠ وقف البدين منتظرا أوامره ، تساءل الضابط ٠

-أين هو ؟

-في حجرة الانتظار ٠

رفع الضابط إصبعه محذرا :

-اوع ؟

فرد البدين بثقة :

-مش ممكن يا باشا ٠

اطمأن الضابط فرجله قادر على التمييز بخبرته الطويلة ، تجاوز التحذير إلى الاستفسار :

-ماذا يريد ؟

-لم يقل شيئا ٠

-ومتى جاء ؟

-من دقائق ٠

" لا بأس بقدر من الراحة أولا "

-هات أولا كوبا من القهوة وقرصين من الأوبتاليدون وقرص كتافلام ٠

-تمام يا فندم ٠

* * *

-قم يابنى آدم ، جئتنا للنوم وتستكثر ثمن الشاى ، بلاوى صحيح ٠

استيقظ فزعا يتحسس وجهه وساقيه ، وتابع البدين وهو يهزه حتى كـــاد يوقعه من فوق الكرسى :

-حسيب بك يسأل عن اسمك •

قال بلهوجة :

-عاطف فريد حمودة ، قل له زميلك القديم في مدرسة التوفيقية •

"كيف فاتك أن تعدو تاركا الحجرة المقيتة التى أصابتك بالإغماء ؟ كيف انتظرت حتى أغلق الباب مرة أخرى ؟" • لكن الباب هذه المرة لم يطل إغلاقه ، سرعان ما حضر البدين ليقتاده إلى مكتب الضابط حسيب الذى كان يقلب الأسماء في رأسه محاولا التذكر ، ولكن الذاكرة مجهدة ، تتوارد عليها الصور والأشخاص والأحداث ضبابية غائمة متداخلة ، إلى أن تسعفها رؤية الوجه الذى حمل برغم تغيره وامتقاعه ملامح العهد القديم •

-بالأحضان يا عاطف ، بالأحضان •

استجاب لحفاوته متشبثا به كأنما هو طوق نجاة ، وارتدت إلى الوجه المصفر نضرة الحياة ، وراحا يتحدثان • أسرف عاطف في استعادة الذكريات المشتركة : المدرسة والزملاء والمدرسين والامتحانات والاحتفالات ، هل كان يحاول التخلص من حالة الرعب التى ملأته وهو في حجرة الانتظار ، أم أراد أن يمهد لما جاء من أجله باستثارة مشاعر مشتركة• شجعه حسيب عليها بتركه يفيض فيما كان ، الأنه كان يرغب في الترويح عن نفسه بحديث عن الصبا اللاهى ، أم أرادكما علمته بدهيات عمله أن يتركه يطمئن تماما قبل أن يخوض معه في الأسباب التى حملته على الحضور •

أخيرا صفق الضابط مستدعيا جندى الخدمة قائلا ببشاشة :

-شاى مخصوص للأستاذ •

ابتسم عاطف مقاطعا :

-تشرب أنت الشاى على حسابى •

وأشار إلى الجندى متابعا :

-لى عنده اثنين شاى •

رد حسيب ضاحكا :

-انس مالك عنده ، سيكون الشاى على حسابى أنا •

أحس عاطف بخيبة أمل ، هل كان يتوقع أن يأمر الضابط جنديه بـأن يعيد له نقوده •

-هيه ، لم تقل لى لماذا شرفتنا بالزيارة •

تحدث عاطف عن عم فؤاد وغيابه الذى أقلق رواد المقهى ، وتطوعهم بالسؤال عنه ، ومهمته في البحث ، وسجل حسيب البيانات اللازمة عن اسمه وسنه وعمله وعنوانه وشكله ومدة غيابه ، ووعده بالسؤال عنه فـي القسم وبقية أقسام العاصمة ، وواعده برد سريع في وقت قريب •

نهض عاطف وقد تفجر فيه إحساس عميق بالامتنان ، شد على يد زميله القديم بحرارة وهو يكرر عبارات الشكر ، وفجأة عنّ لحسيب أن يسأله وهـو يصافحه على باب المكتب :

-هل للرجل نشاط سياسى ؟

رد عاطف مستنكرا :

-عم فؤاد ، إنه لا يفهم شيئا في السياسة •

عقب حسيب ضاحكا :

-بالمقارنة بك بالطبع •

أثار التعقيب حذرا كامنا فقال عاطف بحسم :

-كان زمان ، الآن لا وقت إلا للقمة العيش •

ووضع أصابع يده على فمه متصنعا الابتسام ، ولكنه ما كـاد يمضـى ليشرع في هبوط السلم حتى حلت به بوادر الكآبة من جديد ، وتزايدت كآبتـه بعد عودته إلى المنزل إذ أصابته نزلة معوية حادة مصحوبة بحرارة عاليـة حملت أمه العجوز على أن تستدعى زوج شقيقته من الدوران ليصحبه إلـى المستوصف ، ولكنه صمم على الرفض مدعيا أنه يعرف ما به وأنه ليس في حاجة إلى طبيب ، مكتفيا بالنعناع المغلى والشاى بالليمون ، مؤكدا في كـل يوم من الأيام الثلاثة التى لم يبرح فيها المنزل بأنه أفضل حالا مـن اليـوم السابق • ولم يكن ما به يؤلمه بقدر ما كان يؤلمه إخلافه الموعد مع رفـاق

المقهى ، وهكذا لم يكد يحس ببعض التحسن في مساء اليوم الرابع حتى تحامل على نفسه وذهب إليه ، ولم يكن في حاجة إلى أن يفسر لهم سبب غيابه فلقد كان مجرد النظر إليه كافيا ، التفوا حوله يطمئنون وقد بدرت منهم بوادر تدل على اللهفة الصادقة ، وغرس فيه الاهتمام التلقائى أثره ، فنبتت في الأعماق أحاسيس دافئة سخية ، مزيج من المودة والرضا والطمأنينة والبهجة ، وما لبث أن أزهرت في النفس مشاعر الانتماء والعرفان ، غمغم لنفسه بارتياح : "أنت مدين لعم فؤاد في اكتشافهم ، إنه يستحق والله مواصلة البحث عنه" .

-أنا ذهبت إلى القسم يوم الأحد وقابلت الضابط .

صمتوا كأنما فوجئوا ، هل تصوروا أنه نسى ، أو ظنوا أن مرضه حال بينه وبين الذهاب .

تابع عاطف بمودة :

-أعطيته كل البيانات ، وكان من المفروض أن أذهب إليه أمس ، ولكن المرض منعنى ، سأذهب يوم السبت .

عقب عم أمين برضا :

-على المشيئة .

ردد عاطف بتلقائية :

-بإذن الله .

وكان حديثه إيذانا برغبته في أن يتابع ما فعلوه خلال أيام غيابه ، فأخذوا يفيضون في التفاصيل وهم يحكون كل شيئ ، ورغم الأسى الذى كان يغلف رواياتهم فإن روح الدعابة ظلت محلقة ، فلا يجد السامع مفرا من أن يبتسم وهم يروون وقائع غاية في المرارة ، أسرته المقدرة على الجمع بين الفكاهة والأسى ، وخطر له خاطر ، لو أنهم كانوا مكانه في حجرة الانتظار لما أصابهم ما أصابه ، همّ أن يحدثهم ساخرا من نفسه ولكنه عدل والكلمات بين شفتيه .

وحين صاح المعلم صبحى آمرا بالشيشة مع الشاى المخصوص قال فجأة :

-هل سألتم عند جيران أخيه المرحوم يوسف ٠

هزوا رءوسهم نفيا ، فأضاف عم نجيب :

-اتركوا لى الموضوع فأنا أعرف المفتاح المناسب ٠

فقد كان يفكر في رشوان السمسار الذى يكلفه عم فؤاد بتأجير الشقة مفروشة ٠

وحين التقوا مساء السبت لم يكن عاطف وحده هو الذى لاحظ أن السخرية بدأت تتنحى ليحل محلها أسى كثيف لا تعبر عنه كلمات ، وأخذ يفكر في السبب : "إنه الفشل المستمر الذى يخنق الأمل" أحس بغصة وهو يتأمل الوجوه التى يمضها الألم وأصحابها يتابعون في صمت حزين وقائع كثيرا ما أثارت فيهم روح الفكاهة ٠

إلى أن بدأ عم نجيب يتحدث :

-كانت رحلة شاقة ، لكنها لم تخل من فائدة ٠

كان الرجل يتحدث بصوت هادئ كأنما يكلم كلا منهم على حدة ، هل قصد وهو يرى الأحزان تتكثف أن يروح عنهم بالسخرية من نفسه فيصورها في صورة الساذج الذى تبهره المدينة التى لا يخرج إليها من محيطه المحدود إلا نادرا ، وكأنه يراها للمرة الأولى في كل مرة يضطر فيها إلى أن يجوس خلالها ، كان يخلط السخرية من نفسه دون إرادة بالسخرية من مظاهر الحياة في المدينة القاسية ، وينقل إليهم ما سجله إحساسه من صور تنطق بالعنف والتوحش والبشاعة من غير أن ينطق بكلمة واحدة حادة ، أسر عاطفا الحديث الموشى بلقطات العين الذكية والقلب الفطن ، وراح يفكر : "كيف لهذه العين الكليلة أن تدرك الأشياء على هذا النحو من الوضوح ، أنت ترى الأشياء نفسها ولكنك لا تنفذ إلى ما وراءها ، ما السر في ذلك ، هل المرئى ليس بمعزل عن الرائى والمسموع وثيق الصلة بالسامع ، هل نحن جزء من الحقيقة أو أن الحقيقة جزء منا ٠

-وقابلت رشوان السمسار ٠

ابتسم عم نجيب ساخرا وهو يتابع :

-يقولون له المعلم ، وفي رأيي أنه يستحق أن ينادى رشوان بك ، مكتب محترم وتليفزيون ملون وثلاجة وتليفون وفراش وشاى وسجاير ، لقد دخن في المدة التى قضيتها في المكتب بما يعادل نصف مصروفى الشهرى وربما أكثر ٠ سجاير أجنبية محترمة وليست كالهباب الذى نطفحه ما دام عم صبحى لم يأمر لنا بالشيشة ٠

-غالى والطلب رخيص ، المهم سألته عن فؤاد ٠

قالها صبحى وهو يأمر بالطلبات لرفقة المساء ، واستعد الجميع لسماع الإجابة :

-ما كدت أذكر اسمه حتى انفجر غاضبا : وأنا مالى يا عالم ، مستأجر عجز عن دفع الإيجار ثلاثة شهور ما ذنبى ؟ مغسّل وضامن جنة ، عم فؤاد يطالبنى كل يوم والثانى أن أخلصه من الشبكة التى أوقعته فيها ، طيب حط نفسك مطرحى ، ماذا أفعل ؟ ! ضابط قد الدنيا لا يدفع إيجار الشقة هل أدفع أنا بدلا منه ٠ عجايب ٠

-وماذا فعل المقدس فؤاد ؟

-في آخر يوم جاءنى فيه قلت له غلب حمارى ، تصرف أنت ، فقال إنه ذاهب إليه لينذره بأنه إذا لم يدفع سيشكوه ، ولما رجع بعد أن قابله قال إنه استمهله يومين اثنين ليدفع له الإيجار المتأخر ٠

-ودفع ؟

-وكيف يعرف رشوان ، إنه لم يرد بعدها ، يقول لابد أن يكون قد دفع وإلا لكان قد عاد إليه ٠

-ومتى كان ذلك يا عم نجيب ؟

ألقى عاطف السؤال وقد جالت في ذهنه احتمالات كثيرة ، ورد عم نجيب بصوت يجمع بين الحزن والحيرة :

-قال من حوالى أسبوعين ٠

انغمسوا جميعا في صمت لا تقطعه سوى أصوات كركــرة الشيشــة ، كانت جرعة المعلومات دسمة ، وراح كل منهم يستعيدها في ذهنه محــاولا استكشاف نقطة بدء جديدة لمواصلة البحث ، امتد بهم التفكير إلى احتمـال أن تكون ثمة صلة خفية بين ذلك اليوم الذى تمت فيه المواجهة واختفــاء عـم نجيب ، وتسلل إليهم شيئ من التوجس مصحوب برجفة غير منظورة ، ومـا لبث المعلم صبحى أن قطع الصمت ليقول :

-لابد من مقابلة الضابط ، فقد يكون آخر من رآه .

اهتزت الرءوس بالموافقة فتابع صبحى :

ما اسمه يا نجيب ؟

-العقيد عصام السويفى ، ضابط في الأمن الخاص .

-وما له يا أخى أمن خاص أمن عام نسأله ، فيــها إيــه ، كلمــة ورد غطاها ، فيها حاجة دى .

صمت عم نجيب وشاركوه الصمت : من منــهم يســتطيع أن يضــع الجرس في رقبة القط ، من منهم يمكنه أن يواجه ضابطا ليسأله أيــا كــان موضوع السؤال ؟ فما بالك إذ كان السؤال عن دائن يكشف عجز المديــن ، لقد تعودوا دائما على أن يكونوا في وضع المسئول ومن العسير أن يتبــادلوا المواقع ، كان عاطف بدوره منهمكا في التفكير "ليس في المسألة أكثر مــن سؤال وجواب ، كلمة والرد غطاها كما قال المعلم ، مجرد استفسار ، يمكــن أن يتم في لقاء سريع ، على باب الشقة أو على باب المنزل ، لن يســتغرق الأمر أكثر من دقيقة أو دقيقتين ، يمكن حتى ألا يذكر الاسم ، بوســعه أن يقول واحد قريب لصاحب الشقة يسأل عنه بعد أن خرج ولم يعد ، إنه سؤال لا يثير سخط أحد ، لن تكون هناك حجرة انتظار ولا حجرة تحقيق" . حيــن أنزل عينيه من تأمل ملاط السقف المتكسر التقت بعيونهم التى كانت تحــدق فيه مستطلعة ، قال بهدوء من حسم أمره :

-لا مانع عندى من الذهاب إليه لأسأله .

عقب عم نجيب برقة كأنما يرجو :

-هل تسمح لى أن أكون معك .

قال عاطف برضا :

-تسعدنى صحبتك يا عم نجيب .

* * *

ذهب جندى المراسلة القادم إلى المنزل حديثا من معسكر التدريب الراقى لإبلاغ الضابط بالزائرين اللذين مضيا إلى الصالون ليجلسا ، هل سمعا تعنيف الجندى وتوبيخ الضابط له لمخالفته التعليمات بعدم إدخال أحد إلا بموافقته الشخصية أولا ، وهل لا حظا أن الجندى عاد ليقف قريبا منهما مبتسما كأنما لا يدرك ما وقع فيه من خطأ . اربد وجه عم نجيب فور دخوله الصالون ، أكان يتوقع أن تظل صورة المرحوم يوسف تحتل مكانها أعلى الكنبة ولا تحل محلها صورة الضابط بزى التشريفة العسكرى وهو يسلم على قائده الأعلى ، هل لاحظ عاطف ما أصاب عم نجيب دون أن يدرك له سببا فأراد أن يشغله ويشغل نفسه عن التفكير حين مال على أذنه وهمس :

-صالون جميل .

مال عم نجيب عليه بدوره وهمس :

-أنا الذى أشرفت على عمله أيام المرحوم يوسف .

هز عاطف رأسه بإعجاب وتابع بصوت خفيض :

-صالون مريح ومتين جدا .

رد عم نجيب باعتزاز :

-عمولة على يدى ، الخشب في ورشة الحاج مصطفى .

أضاف عاطف :

-الذهب أيضا جميل جدا ، كأنه جديد .

انفرجت أسارير نجيب وهو يقول :

-الذهب كان في ورشة المقدس ميلاد .

-أهلا .

انتفضا واقفين بمجرد سماعهما الصوت والتفتا في آن واحـــد يــردان التحية ، كان القادم بطولة الفارع وكتفيه العريضين ووسامته اللافتة وشـــعره الفاحم وبشرته الصافية اللامعة كمرآة أجاد صانعها صقلها جديرا بأن يكــون فتى أول من نجوم السينما الكلاسيكية ، سار بخيلاء نجم كرة فاض به الزهو وقد أقبل عليه بعض رعايا مملكته من الرعاع ، لم يمد إليهما يدا وجلس فــي مواجهتهما على الكنبة واضعا فخذا إلى فخذ ، وقميصه المشـــجر القصــير الأكمام يظهر عضلات ساعديه وعضديه فتبدو بانتفاخـــها نموذجــا للقــوة العضلية التى يتضافر على بنائها طبيعة سخية وتدريب عنيف .

ظل صامتا يحدق فيهما مستطلعا حتى أحس عاطف بأن عليه أن يقـــدم تفسيرا :

-جئنا لسعادتك في مسألة إنسانية .

وأصابه الارتباك فتلعثم ، قاطعه الرجل :

-ألا تعرفانى أولا بنفسيكما ؟

صمت عاطف كأنما فوجئ بالسؤال مع أنه عالجه من قبل مرات بغــير عدد ، قال معتذرا :

-آسف ، أسف جدا .

وأشار إلى عم نجيب قائلا :

-عم نجيب قلدس ، أخو المقدس فؤاد .

-فؤاد من ؟

-صاحب الشقة ، وأنا .

قاطعه ولم ينتظر حتى يكمل عبارته وقال بنغمة تجمع بيــن التعجــب والاستنكار .

-نعم ؟ !

سكت عاطف فلم يتوقع اعتراضا ، وتابع الرجل :

-أى شقة ؟

قال عم نجيب بسرعة :

-هذه الشقة ٠
من جديد قاطع الرجل مصححا :
-تقصد الذى كان صاحب الشقة ٠ لقد باعها منذ شهور ٠
أدركهما معا صمت الحيرة ، وتبادلا للحظة خاطفة نظرات الدهشة ، وأضاف الرجل :
-ثم إن معلوماتى أن فؤاد ليس له أشقاء ولا حتى أقارب ٠
ظنا في لحظة واحدة أن خطأ وقع بسبب سوء الفهم ، وأن التقديم هو المسئول عن ذلك ، بادر عاطف موضحا :
-في الحقيقة عم نجيب ليس شقيقا بالمعنى الرسمى لعم فؤاد ، وإنما هو بمنزلة الشقيق له ٠
هز نجيب رأسه مؤيدا وأضاف :
-عشنا معا طول عمرنا ، أعرف عنه كل شيئ ويعرف عنى كل شيئ ٠
ضاق الرجل باللغو الذى يسمع فقال بنفاد صبر موبخا :
-وما شأنى بما تقول ٠
ثم كأنما عنت له فكرة فأضاف بسخرية :
-من لحظة واحدة كنت أخاه ، والآن لست أخاه ، أليس ذلك شيئا ظريفا ؟!
والتفت إلى عاطف وتابع بنفس النغمة الساخرة :
-وأنت أيضا من تكون ؟ من يدرى ٠٠ ربما تكون ابنه ٠
هم عاطف أن يفسر اللبس الذى حدث لكن الرجل تابع كلامه بحسم :
-قبل أى كلمة أخرجا بطاقتيكما ٠
قالا في لحظة واحدة وقد بلغ بهما الاضطراب حدا سال معه العرق غزيرا على وجهيهما :
-أصل ٠
-لا أصل ولا فصل ، البطاقات ٠

ومد يده وقد أصبحت نظراته ككلماته صارمة • أخرج كل منهما بطاقته صامتا وقدمها إليه ، وأخذ الرجل يقرأ البيانات بأناة ، وفجأة سأل بتجهم :

-هل هذه البيانات صحيحة ؟

وقبل أن يفتح أحدهما فمه صاح محذرا وهو يحرك سبابته :

-أظنكما تعرفان عقوبة التزوير في أوراق رسمية •

-تزوير ، أعوذ بالله •

قالها عم نجيب مستنكرا في حين ظل عاطف مأخوذا بما يسمع لا ينبس ، نهض الرجل وهو يقول :

-سأتأكد من كل شيئ على أية حال •

ومضى إلى الداخل •

أصابهما ما حدث بارتباك حمل معه مشاعر متباينة ، مزيج من القلق والاضطراب والإحباط والغيظ ، والرغبة في إنهاء الموقف بأقصى سوعة ، وحين عاد الرجل بعد دقائق وجدهما لا يقدران حتى على مجرد النظر إليه ، بادرهما قبل أن يجلس :

-والآن ، أريد أن أعرف ماذا تريدان •

غمغم عم نجيب بصوت لا يكاد يسمع :

-حضرنا لنسأل سعادتك عن المقدس فؤاد •

قاطعه الرجل مستنكرا :

-تسألنى أنا ؟!

تابع نجيب مفسرا :

-لقد خرج من حوالى أسبوعين لمقابلة سعادتك ، ومن يومها لم يعد •

عاد الرجل إلى التساؤل بنغمة تمزج الاستنكار بالدهشة •

-لمقابلتى أنا ؟!

-نعم •

-لماذا ؟

رد عم نجيب وهو يتخير كلماته حتى لا يسيئ إلى الرجل :

-أظن أن هناك بعض الأمور المالية المعلقة بينكما ٠

قاطعه الرجل :

-كلام فارغ ، فلم يكن بيني وبينه أى معاملات مالية منذ أن باع الشقة من ثلاثة أشهر ٠

ما الذى خطر في بال عم نجيب حتى يسأله :

-ومن الذى اشتراها ٠

وما الذى أسخط الرجل حتى يقول بغضب مشتعل :

-وما شأنك أنت ؟ اشتراها من اشتراها ، ما دخلك ؟

والتفت إلى عاطف مباشرة ليسأله بحدة :

-وأنت ما علاقتك بهذا الموضوع ٠

رد بصوت خفيض وقد استبد به الارتباك :

-حضرت مع عم نجيب ٠

-طرطور يعنى ٠

حملتهم العبارة الجارحة على صمت القطيعة : صمت الرجل استعلاء ، وصمت عاطف رهبة ، وصمة نجيب ذهولا ، وبعد لحظات وقف الرجل إيذانا بانتهاء اللقاء ، ولكنهما كانا قد بلغا حالة من الاضطراب لم يفطنا معه إلى دلالة حركته فظلا جالسين برهة قبل أن ينتفضا واقفين يتمتمان بكلمات غير مفهومة ، كانت كلمات اعتذار خجلى ، استجاب الرجل وقد أسعده رد الفعل الذليل وما كشف عنه من انتهاء أزمة توقع في البداية أن تضعه في موقف حرج ، وأن يحتاج في الخروج منها إلى مساندة ، وقال وهو يمد يده إليهما بالبطاقات :

-يمكنكما أن تسألا عنه في الأقسام والمستشفيات بدلا من إزعاج الناس في بيوتهم ٠

تناول عاطف البطاقتين معا دون أن ينبس ، وتابع الرجل وهو يشير إلى الجندى ليقتادهما إلى الباب :

-احمدا الله على أننى رجل طيب ، لو كنت شخصا آخر لما عدتما إلى بيوتكما .

ظلا صامتين إلى أن خرجا من الشقة ، وحين سمعا صوت الباب يغلق خلفهما قالا بصوت واحد :

-أعوذ بالله .

انصرفا إلى ضجيج الطريق ينغمسان بإرادتهما فيه في محاولة لنسيان ما كان ، الضجيج برغم حدته لم يستطع أن يخمد صوتا بزغ واهنا في الأعماق لكنه ما لبث أن اشتد حتى غطى على كل ما يسمعان ويريان : "أين يكمن الخطأ" فوجئ كل منهما بالسؤال يحتل تفكيره مع أن كلا منهما حوص على الانصراف عنه ، وكلما تشاغلا عنه ازداد إلحاحا . رمق عاطف عم نجيب بنظرة جانبية وهما يسيران كتفا لكتف : "الخطأ خطؤك ، ما شأنك أنت بشقة مفروشة أو غير مفروشة حتى تجعلنا نذهب إلى ضابط في منزله . إذا كان الإنسان لا يطيق التعامل معهم في الطريق أو في مكاتب الحكومة نذهب إليهم بأرجلنا في بيوتهم ، أليس هذا جنونا ، احمد الله على أن الأمور انتهت عند هذا الحد" . في غمرة تفكيره زلت قدمه في حفرة لم يتجنبها وكاد يسقط لولا أن سارع أحد المارة من ناحية وعم نجيب من ناحية أخرى فسانداه حتى استعاد توازنه . تمتم عاطف خجلا بكلمات الشكر من غير أن ينظر إليهما ، لكن عم نجيب ظل ممسكا بعضده وهو يردد كالمعتذر :

-معلهش يا بنى ، معلهش .

كان - وهو يردد الكلمات - يعاود التفكير في السؤال : "أين يكمن الخطأ ؟" وخطر بباله السمسار : "لماذا يقول السمسار معلومات غير صحيحة ؟ يتكلم عن المطالبة بالإيجار والضابط يقرر انتهاء العلاقة من شهور ، كيف لم يخبرنى فؤاد ببيع الشقة ، وكيف يبيعها وفي نفس الوقت يطلب إيجارها ، هل يمكن أن يكون المشترى قد كلفه بتحصيل الإيجار ، ترى .. من يكون هذا المشترى ؟ لماذا رفض الضابط ذكر اسمه ؟ ما الذى ضايقه حتى انفعل كل هذا الانفعال ؟ رشوان تحدث عن مقابلة فؤاد للضابط

من أسبوعين واتفاقهما على سداد الإيجار بعد يومين ، أى سداد وأى إيجـــار وأى مقابلة ، لو أنه قدم معلومات دقيقة لأغنانا عن كل هذا ، لو ٠٠" ٠

مال عم نجيب على عاطف وهما يقتربان من محطة المترو وسأله :

-عندك مانع نمشى محطة واحدة ٠

تساءل معترضا :

-مشوار ثان ٠

رد عم نجيب مفسرا :

-سنقابل رشوان السمسار ، إنه السبب فيما حدث ٠

همّ عاطف أن يرفض لولا أن عم نجيب تابع وكأنه يغريه :

-هى دقيقة لا أكثر ٠

ظل عاطف صامتا فأغرى صمته عم نجيب على أن يستمر ٠

-طبعا مقابلته أحسن بكثير ، مفيش نسبة ٠

حملتهما الإشارة على أن يبتسما لأول مرة في هذا المســـاء ، وصـــدق حدس عم نجيب فما كاد السمسار يراه حتى بادره بتحية حارة وكأنه صديـــق قديم ، شد نجيب على يده بحرارة ، رد التحية وهو يقول :

-كنا مارين من هنا فقلنا نسلم عليك ٠

فرد السمار مرحبا :

-شرفت يا عمنا ، شرفت يا أستاذ ٠

وأمر الفراش بإعداد الشاى المخصوص وهو يضيف :

-ألم تجد عم فؤاد ؟

رد نجيب بهدوء :

-ألم تقابله أنت بعد أن قابلتك ٠

أجاب السمسار مؤكدا :

-قلت لك آخر مرة قابلته لما جاء ليكلمنى عن الموعد الذى اتفق فيه مع عصام بك على السداد ٠

أضاف عم نجيب :

-إذن لا تعرف أنه باع الشقة •

صاح السمسار مستنكرا :

-باعها ؟

واستدرك مفسرا :

-لى عنده حق عرب •

وسكت لحظة ليضيف :

-أنت رجل طيب واحكم في الموضوع ، كان عندى زبون جاهز ومستعد للدفع فورا ، وكان عم فؤاد يرفض البيع ويقول إنه لن يبيعها أبدا وسيتركها بعد وفاته لنشاط الجمعية الخيرية لمارى جرجس ، لابد أنه كان يضحك عليّ •

وصمتوا جميعا •

صمت عاطف دهشة ، وصمت نجيب تأملا ، وصمت السمسار أسفا قبل أن يتابع :

-بكم باعها ؟

لم يجب عم نجيب فقال بأسى من خسر صفقة حقيقية :

-كنت أستطيع أن أبيعها له بمائتى ألف ، مائتى باكو كلها على الطربيزة ، ليس منها مليم مؤجل •

تمتم عم نجيب :

-كل شيئ نصيب •

وعقب السمار بنغمة تجمع بين الاستسلام والحزن :

-كنا نريد أن نخدم ، ولكن الأمر لله •

فردد الرجلان معا وهما ينهضان :

-الأمر أمره •

* * *

لم يجد أى منهما رغبة في أن يذهب إلى المقهى في المساء مع أنهما حين شرعا في الرحلة كانا قد عقدا العزم على أن يعودا منها مباشرة إلى

الرفاق لتبلغيهم ما توصلا إليه ، لقد كانت رحلة الذهاب مصحوبة بـــأمل أن يجدا الخيط الذى يوصلهما إلى عم فؤاد ولكنهما حين أخذا طريق العودة بلــغ بهما اليأس حدا ألحت عليهما فيه رغبة في تناسى الموضوع كله ، قالا فـــي نفس واحد وهما يغادران الأتوبيس مقابل شارع مسرة وهما يمـــدان يديـــهما ليتصافحا :

-الوقت تأخر الليلة ، نلتقى غدا ٠

هل ظننا أن تأجيل اللقاء مع رفاق المقهى كفيل بأن ينسيهما ما وقع لهما، وأن من الممكن عندئذ الإشارة إلى النتائج دون الخوض في التفاصيل المؤلمة التى ملأتهما حسرة وأسى ٠

لكن غيابهما عن المقهى في تلك الليلة لم ينته بهما إلى نسيان شـــيئ ، ووجد كل منهما نفسه كلما جد في العزوف عن التفكير في وقـــائع الرحلـــة صارت أكثر الحاحا ، تتكرر وتتكرر مرة بعد مرة ، ومع كل مرة يزداد ألــم المهانة وتتعمق جذور الحيرة ، في البداية كان أكثر مـــا يغيـــظ الإحســـاس بالهوان وذل العجز عن رده ، ولكن مع التكرار المؤلم لوقـــع الوقـــائع فـــي الأعماق بدأ التفكير يتسرب إلى أشياء كان الانفعال الحاد يغطيها ، شيئا فشيئا أخذت دائرته تتسع حتى انزوى في ركن قصى من الأعماق الشعور بـــالغيظ والألم والعجز ، حتى إن كلا منهما حين ذهب إلى المقهى في المساء التـــالى تجاوز عن أسلوب المعاملة التى وقعت لهما وركز الاهتمام حول التناقضـــات البينة بين ما قاله الضابط وما قاله السمسار ، وهكذا أصبحت هذه التناقضات مثار اهتمام الصحبة ، وشرع كل منهم يفكر فيـــها محـــاولا البحـــث عـــن أسبابها ، متلمسا وسائل حلها ، ومن خلال الحوار المتداخل المتقاطع تولـــدت فكرة واستوت حتى أصبحت محور الاهتمام بعد أن وجد كل منهم فيها جانبـــا من تفكيره ٠

صاح المعلم صبحى :

-المفتاح معرفة المالك الجديد ٠

أكد عم نجيب :

-هذا ما فكرت فيه .

هل كان عاطف ما زال يقنع نفسه بالفكرة حين قال كالمعترض :

-وما قيمة معرفته إذا كان البيع تم من مدة طويلة كما قال الضابط .

رد المعلم صبحى :

-وما أدراه .

قال عاطف باستغراب :

-إنه الساكن .

قاطعه صبحى :

-ساكن لا يدفع الإيجار يقول أى كلام .

بدت العبارة مقنعة ، سكت عاطف متأملا الاحتمالات : "جائز فعلا أن يكون بيع الشقة مشروعا علم به الضابط فرفض دفع الإيجار ، وجائز أن يكون قد تم والشهور الثلاثة آخر ما تبقى لعم فؤاد في ذمته ورغب الضابط أن يأكلها ، المسألة مرهونة فعلا بمعرفة المالك الجديد ، لكن السمسار لا يعرفه ، بل لا يعرف أصلا أن الشقة قد بيعت ، والضابط رفض أن يذكر شيئا عنه ، ما الحل ؟" .

تمتم عاطف في أسى :

-لو أن الضابط ذكر اسم المشترى لساعدنا كثيرا .

قال عم نجيب بهدوئه المعهود :

-الله يجازيه .

عقب المعلم صبحى بتلقائية وكأنه يتعجب منهما :

-ومتى كان هؤلاء الناس يساعدوننا .

قاطعهما عم أمين .

-المهم كيف نعرفه ؟

شرع كل منهم يفكر بصوت عال ، ولم يكن ما يصدر عنهم أفكارا بقدر ما كان أمنيات ، وظل عاطف صامتا يرقبهم يتبادلون اقتراحات سرعان ما ينقضونها ، وألح عليه ما يشغلهم فوجد نفسه ينزلق إلى التفكير من جديد :

"لقد أخطأت أنت وعم نجيب حين ذهبتما إلى الضابط مباشرة في منزله فحكمته عقدة الحاكم الذى فوجئ بالرعية تشعره بأنها تعرف ما لا يريد لها أن تعرفه فحرمها من معرفة ما يحق لها أن تعرفه ، لقد كان الحل الأمثل أن يرسل إليه وسيط لا تحكمه إزاءه عقد ولا حساسية ، لكن ٠٠ أين هذا الوسيط ؟" ٠

-لم يبق إلا أن نلجأ إلى الضابط ٠

قالها المعلم صبحى مضطرا بعد أن كشفت له الاحتمالات المتعارضة عدم صلاحية أى بديل آخر ، فالتفتوا إليه متسائلين :

-أى ضابط ؟

لم يلتفت إليهم بل انصرف بحديثه إلى عاطف وقال بهدوء غير معهود :

-صاحبك ٠

نقل كرسيه إلى جواره وهو يتابع :

-ضابط مباحث لا يصعب عليه معرفة اسم شخص وعنوانه ٠

صمت وصمتوا مستطلعين رأى عاطف ، لكن صبحى استطرد يشرح :

- يمكن أن يأخذ عنوان الشقة واسم الساكن وعليه الباقى ، ومن يدرى ربما لو سأل زميله لقال له ما لم يقله لكم ، هم في النهاية من طينة واحدة ٠

كان الاقتراح حتى قبل الشرح مقنعا ، ولكنهم ترددوا في تشجيعه ، حتى أن عم نجيب عقب متحفظا وهو ينظر إلى عاطف ٠

-الموضوع محرج ٠

هز عاطف رأسه ، هل كان يؤيد العبارة أو يؤيد الاقتراح ، لكن صبحى تساءل وهو يردد بصره بينهم :

-عندكم حل ثان ٠

ولم ينتظر إجابة ، توجه ببصره إلى عاطف وأضاف :

-تحب أن أذهب معك ؟

هز رأسه نفيا فابتسم الرجال ، فقد انزاح عن صدورهم عبء ثقيل ، وصفق المعلم طالبا الطلبات المعتادة التى نسى في غمرة المناقشات أن يأمر بها .

* * *

ظل عاطف حتى اليوم التالى مترددا : يذهب أولا يذهب ، وحين كان يقرر الذهاب كان يفكر في الكيفية التى يمكن أن يطلب بها المساعدة من زميله القديم ، وحين كان يقرر عدم الذهاب كان يفكر في وسيلة يبرر بها موقفه أمام رفاق المقهى ، وحين استيقظ متأخرا على غير عادته في صبيحة اليوم التالى بعد نوم متقطع تخللته أحلام مزعجة أشبه بكوابيس كان ميالا إلى عدم الذهاب ، وانشغل بأشياء لم تكن في الحسبان ، قام بزيارة صباحية لأخته على غير العادة ، ومر على المدرسة التى كان فيها دون مبرر ظاهر سوى السؤال عن بعض زملائه الذين لم يسألوا عنه خلال محنته ، وذهب إلى مكتب وكيل الوزارة ليسأل عن موعد تسلمه العمل في الإدارة التعليمية التى نقل إليها ، ولما أبلغ بأن موافقة أمن الدولة لم تصل بعد هز رأسه في ضيق مقرون بالاستغراب ، وحين قال له الموظف كأنما يخفف عنه :

-لا تهتم ما دام المرتب يصرف في موعده ، حد يطول يرتاح من وجع القلب .

قال باقتضاب :

-وأين هى الراحة ؟

دون أن يزيد حرفا .

هل كان مشغولا وهو عائد إلى منزله حتى إنه نسى أن ينزل في المحطة المناسبة ، وجد نفسه ينزل عوضا عن ذلك أمام القسم وفجأة خطر له خاطر : "أنت مدين لزميلك القديم بزيارة للشكر حتى لا يظن أنك لم تعرفه إلا لتحقيق مصلحة واترك أى مسألة أخرى للظروف" . فمضى إليه بخطى واثقة كأنما ألفت اقدامه الطريق وإن ظل في النفس بقايا قلق حاول أن يبدده باستعادة اللقاءات الحارة التى تمت بينهما .

تمتم لنفسه فور دخوله مكتبه :

"لقد أخطأت ، الوقت غير مناسب" .

لم ينهض زميله للقائه بترحاب كما كان متوقعا بل أشار إلى مقعد قصى في الحجرة مشيرا إليه في الوقت نفسه ، جلس عليه وقد غمره إحساس بالحرج ، هل كان زميله مشغولا فعلا بالمكالمة التى بدا من حوارها أن الطرف الثانى فيها أنثى وأنها تترك فيه أثرا لطيفا ، كان يرد عليها بتلك البراعة القادرة على اللعب بالألفاظ في الوقت الذى يحدق فيه في زميله متفهما وكأنه لم يره منذ عهد بعيد ، تمتم عاطف لنفسه حين التقت عيناه بعينيه : "ماذا هنالك ؟" لكن زميله ما كاد ينهى المكالمة حتى عاد كما عهده ، أقبل محييا بحرارة ، وأمسك بكفه وهو يقوده ليجلس إلى جواره وليسأله عن أخباره مشجعا إياه على الإفاضة فيها بتفصيل بدا لعاطف نفسه أقرب إلى الإملال ، وفجأة تساؤل حسيب :

-هل جد جديد في موضوع الرجل الذى كنت تبحث عنه ؟

-وجد عاطف نفسه يحكى المعلومات الجديدة دون أن يشير إلى رحلة مصر الجديدة ، وتابع كأنما يعتذر :

-لم يكن في نيتى أن أفتح الموضوع ، لقد حضرت للزيارة والشكر ليس إلا .

ابتسم الضابط وهو يسجل البيانات ليقول متفكها :

-وما المانع ، زيارة وتجارة .

اغتصب عاطف ابتسامة وتابع الضابط ضاحكا :

-لابد أن لك عنده مبلغا كبيرا .

فوجئ عاطف فرد بدهشة صادقة :

-أنا ؟

استمر الضابط وقد تحولت الضحكة القصيرة إلى قهقهة عالية :

-اطمئن ، لن آخذ النسبة كاملة .

تلعثم عاطف وهو يقول ورنين الضحكات يملأ المكان :

-صدقني ٠

وتابع الضابط غير ملق بالا إلى إجابته :

-قلت اطمئن ، ستكون لك معاملة خاصة ، فأنت زميل قديم ٠

ومد يده إليه مسلما وهو يقول بسعادة :

-مازلت كما كنت لم تتغير ، لا تستطيع أن تفرق بين الجد والهزر ٠

حملته الكلمات في لحظة واحدة إلى عالم من الرضا وقد تفجرت فيه مشاعر الامتنان ، شد عاطف على يده بكلتا يديه وهو يتمتم بعبارات الشكر واستمر زميله القديم ٠

-سأتصل بك في وقت قريب ٠

وبقى في انتظار الاتصال ٠

ومر يومان ، ثلاثة ، أربعة ، أسبوع ولم يتصل ٠

وانتصف الأسبوع الثانى ولم يتصل ، أحسن عاطف أن المدة قد طالت أكثر مما كان يتوقع وأن الموقف يتطلب زيارة أخرى خصوصا ونظرات الاستفسار من رفاق المقهى بدأت تتحول إلى أسئلة مباشرة ، وإن كانوا حريصين على أن تبدو أسئلة عابرة ، وللمرة الأولى لم يحس وهو يتجه إلى القسم بتردد ، فقد غمره يقين لا يخالطه ذرة شك في أن للزمالة قيمتها ، وأخذ يصعد السلم إلى مكتب حسيب ومداعبات اللقاء الأخير تتوارد على ذهنه حية لتبث فيه الأمل ، ولكنه لم يجد زميله فقد كان في فترة راحة صباحية ممتدة حتى المساء فاكتفى بكتابه اسمه في ورقة صغيرة أعطاها للبدين الجالس أمام حجرة الانتظار وهو يقول :

-أرجو ألا تنسى أن تعطيها لحسيب بك ٠

ولما نظر الرجل إلى الورقة باشمئزاز أدرك عاطف أنه كان يتوقع أن تكون مصحوبة بورقة أخرى ، أضاف كمن يعتذر :

-لك عندى شاى ٠

رد الرجل بتلقائية :

-نحن دائما في الخدمة ٠

وعاد يعزف لحن الضراعة المنتشر وهو يضم قبضته على الورقة الصغيرة ، وما كاد عاطف يأخذ طريقة إلى السلم حتى ألقى بها على الأرض • اتجه عاطف مباشرة إلى المقهى مبكرا عن الموعد المعتاد ، هل أحس بأن لديه ما يقوله بالرغم من أنه لم يقابل زميله القديم • ما كاد يراه المعلم صبحى حتى حدس بما وراءه فبادره ضاحكا :

–طبعا سبع •

ولما أبلغه أنه قادم من القسم وأن الضابط في الراحة رد بهدوء :

–وماله ، كل آت قريب •

وظلا يتبادلان الأحاديث إلى أن حضر باقى الرفاق ، فشرعوا يتحدثون عن نوادر عم فؤاد التى حلت في الأيام الأخيرة محل أخباره بعد أن جف معينها ، وبعد قليل اقترح عم نجيب الانتقال إلى الرصيف المجاور للمسجد خارج المقهى ليفسحوا للرواد الذين يريدون أن يتابعوا في التليفزيون الملون الحفل الساهر الكبير المقام بمناسبة بدء الولاية الجديدة تحت شعار "عهد الأمن والرخاء" مكانا ، وسرعان ما استجابوا له ، وكان أسرعهم عاطف الذى بادر بنقل كرسيه بنفسه دون انتظار بلبل لينقله له ، لقد كانت ألحان المناسبات السياسية تصيبه بضيق يشارف الحساسية ، وغالبا ما كان يبرر ذلك بأنها أعمال غير فنية ، بل هى مجرد تنويعات إيقاعية انتهازية ، مخفيا عمن حوله أنها كانت تصيبه في أعماقه بذعر حقيقى ، إذ تذكره بالفترة القصيرة التى اعتقل فيها وهو طالب في القلعة وبالفترة الطويلة التى اعتقل فيها وهو مدرس في طره ، حين كان يضطر المعتقلون طبقا لتقاليد العمل المتبعة أن يرددوا مثل هذه الألحان بأعلى أصواتهم طوال الليل حتى يغطوا على صرخات زملائهم الذين يعدون جسديا للتحقيق ، وشارك عاطفا في السرعة عم أمين فنقل بنفسه مقعده أيضا لأنه لم يشأ أن يكون قريبا من المخبرين الذين أخذوا ينتشرون في المقهى ليرصدوا ردود الأفعال تجاه الاحتفال •

وطال بهم السهر ، وشرع رواد المقهى يغادرونه ، وأخذ بلبل يعيد ترتيب المقاعد التى تخلو أولا بأول حثا لمن تبقى من الزبائن على الانصراف ، وأخيرا أقبل المعلم صبحى على الرفاق الذين كانوا يتبادلون واقفين عباراتهم الأخيرة قبل الافتراق ومال على عاطف وهمس :

-ما رأيك في أن نذهب الآن لمقابلة صاحبك ؟

فرد بنغمة تجمع بين التردد والاستنكار ٠

-الآن ٠

قال صبحى مشجعا :

-إنهم في مثل هذه الليلة لا ينامون ٠

ظل عاطف صامتا فتابع ٠

-لن نخسر شيئا ، سنمر في طريقنا ونسأل عنه ، إن كان موجودا قابلته ، وإن لم يكن موجودا تقابله في وقت آخر ٠

وسارا وقد تشابكت أيديهما ٠

وصح توقع المعلم صبحى ، كان القسم يموج بالحركة ، وأنواره كلها مضاءة ، والداخلون من أبوابه المختلفة كثيرون ، حتى من الأبواب الخلفية التى تفضى إلى حجرات التحقيق في البدروم ، ابتسم صبحى وهو يصعد الدرجات إلى البهو الداخلى ملتفتا إلى عاطف ببهجة كأنما يقول له : "ألم أقل لك" ٠ واتجها إلى السلم الجانبى ليصعدا ، ولكن صبحى همس في أذن عاطف :

-ألا نسأل أولا ؟

التفت إليه عاطف ليقول له دون أن يتوقف :

-أعرف الطريق ٠

ورمقتهما في نفس اللحظة عينا أمين يقظ يأخذ موقعه الثابت قريبا من السلم فأشار إليهما فتوقفا ، سألهما وهو يحدق فيهما :

-ماذا تريدان ؟

-حسيب بك ٠

قالها عاطف وهو يتحرك في اتجاه السلم لكن الأمين أشار بإصبعه إلـــى أسفل وهو يقول :

-في التحقيق .

فتوقف عاطف ، وظلا صامتين برهة قبل أن يقـــول صبحـــى كأنمـــا يشجعه .

-على بركة الله .

واتجها إلى حيث أشار الأمين .

شرعا يهبطان الدرك المظلم يتحسسان الحوائط ، وخيل لعاطف أنه سمع أصوات عويل مصحوب بعبارات الاسترحام والضراعة ، أصابه توتر هـــمّ لولا خجله من رفيق رحلته أن يعود على عقبيه ، هل سمع المعلم صبحى ما سمعه حين ربت على كتفه في الظلمة قائلا كمن يشجعه :

-لا تهتم .

لكن الصوت الضارع كان يزداد وضوحا وهما يتابعان الهبوط ، حتـــى خيل إلى عاطف أنهما هبطا أدوارا عدة قبل أن يصلا إلـــى مدخـــل الممـــر السفلى الذى انتشرت على جانبيه حجرات التحقيق ، لقيا على بابه جنديـــن يجلسان باسترخاء وهما يمسكان بأكواب الشاى وقبل أن يفتح أحدهمـــا فمـــه سمعا الصوت بوضوح :

-بصوت عال يا كلب انت وهو ، ألم تسمع الأغنية .

-وعشان كده احنا .

-أعنى ، أعلى يا أولاد القحبة .

-نحب نمسّى على الجدعان العسل .

قالها المعلم صبحى حتى يتخلص من صوت الحوار الدامى وهو يخـــوج ورقتين ماليتين ليقدمهما إلى الجنديين ، تفحص كل منهما الورقـــة قبـــل أن يضعها في جيبه ، ورد أحدهما :

-أى خدمة .

-حسيب باشا .

بادر المعلم صبحى بالرد بثقة من يعرف المفتـــاح الصحيـــح ، وتـــابع بتظرف :

-وحياة عينيك تبلغه أن الأستاذ يريده ٠

تساءل الجندى غير مبال :

-أى أستاذ ؟

أشار المعلم إلى عاطف وتابع :

-الأستاذ عاطف حموده ، أخوه وحبيبه وصاحبه ٠

نهض الجندى متكاسلا ليسير في الممر الخافت الضوء حتى تلاشى فـي الظلمة ٠

"عجبا ، كيف يبلغ التناقض بين ظاهر إنسان وباطنه إلى هذه الدرجـة ، كيف يغلى باطن عاطف بذكريات الأيام السوداء مختلطة متداخلـــة معربـــدة ويتجمد ظاهره حتى كأنه تمثال مسبوك لا تند عنه طرفـــة ولا يـــتردد فيـــه نفس" ٠

-الله يكون في عونكم ، شغل ليل نهار ٠

قالها المعلم صبحى برقة مفتعلة ، لم يكن ينزلف بقدر ما كان يحـــاول التخلص من ضجيج الصمت الموشح بالصرخات الضارعة الموقعة التى تملأ النفس كآبة خانقة ، اكتفى الجندى بهزة رأس خفيفة وهو يكمل شرب كـــوب الشاى ٠

وتابع صبحى كمن يستفسر :

-لابد أنهم لصوص ٠

رد الجندى بازدراء ٠

-اللصوص جدعان لا تسمع لهم صوتا ، دول بتوع السياسة ٠

هل كان المعلم صبحى يتظرف فعلا وهو يعقب بسخرية :

-سياسة ، أعوذ بالله ، اللهم احفظنا ٠

رشف الجندى رشفة مسموعة من كوب الشاى وهو صامت • شـــارك المعلم صبحى عاطفا في التحديق في الظلمة إلى أن بدا من بعيد شبح قـادم ، أرهفا أذنيهما محاولين استبعاد أصوات النشيج الدامى :

-جاى حالا •

وظلا ينتظران •

"تتداخل الأصوات وتتركب ، يتحول اللحن الراقـص فرحـا بالولايـة الجديدة إلى ذبيحة عارية مصلوبة فوق العروس الحديدية الموصولة بأسـلاك الكهرباء ، تنغرس الأسنان في الشفاه حتى تدمى ، وتجحـظ الأعيـن وقـد أصبحت قطعة معتمة من الدم ، تتداح فوق الأرض بحيرات صغيرة من بقايا لزجة" •

-عاطف حمودة •

-يا أستاذ ، يا أستاذ •

كان المعلم صبحى يهزه ليرد على الجندى الذى أقبل يسـتدعيه وفـي أعماقه شعور يجمع بين الدهشة والحسد ، "كيف ينام في مثل هذا الموقـف واقفا ؟! "

-أنا !

قالها عاطف وهو يسير وراءه مترنحا ، فمازالت الأصوات تتداخل فـي عينيه ، أغنيات قديمة جديدة ، تنويعات إيقاعية واللحن واحد ، تتجسـد فـي عينيه بصمات جزع خلفتها آثار كلاب شرسة ، يمتص دما ينزفـه لسـانه ، يكاد يسقط فتمتد يد الجندى لتمسك بعضده ويقتاده إلى حيث حسيب بك •

-خير يا عطوفة ، وحشناك أو الهوى رماك ؟

أخرجه الاستقبال اللطيف على باب حجرة التحقيق نصف المغلق مـن هلع الذكريات الحية فانتشله الصوت البهيج من لجة اليم المائج ، تفجر فيـه شعور بالامتنان فابتسم بعذوبة وأوشك أن يردد عبارات شكر لولا أن عاجلـه الإحساس بأن الكلمات مهما كانت صادقة ستعجز عن الوفاء بحق الصديـق ، وأن التلقائية وحدها أبلغ من كل الكلمات •

احتضنه بحرارة وهو يتمتم :

-يا عم نسيتنا قلنا نشوفك ٠

-أهلا بك في أى وقت ٠

وصمت لحظة قبل أن يضيف :

-وإن كان المكان كما ترى غير مناسب ٠

أدرك عاطف برغم حرارة الانفعال أنها إشارة ذكية ومهذبة إلى أن يسرع فقال هامسا :

-بالإضافة إلى التحية أحببت أن أسأل عن موضوع شقة مصر الجديدة ٠

تساءل حسيب بدهشة :

-ألم ينته الموضوع ؟

-كيف ؟

-عرفت أنك عرفت المالك ٠

قال عاطف مستغربا :

-أنا ٠

-وزرته ٠

استغرقته الدهشة ولسانه يردد :

-أنا ؟

تساءل حسيب :

-ألم تزر العقيد السويفى ٠

بادر عاطف كأنما يصحح :

-يا أخى لخبطتنى ، العقيد هو المستأجر ٠

تابع حسيب :

-وهو المالك ، لقد اشترى الشقة ٠

عادت الدهشة تعقد لسان عاطف فلم يجد غير عبارة :

-معقول ؟

فرد حسيب مداعبا :

-ولم لا ؟ ألأنه لا يعطى دروسا خصوصية لا يستطيع شراء شقة ٠

ما الذى خطر في بال عاطف حتى يقول باضطراب ٠

-لا أبدا ، أنت تعرف أنى لا أقصد ٠

ولفهما الصمت برهة مد على أثرها حسيب يده ليسلم على عاطف الذى كان يردد عبارات يقترن فيها الشكر والأسف ، استبقى حسيب يده في يده وهو يضيف :

-بالطبع تعرف الرائد يسرى الماحى ٠

-من ؟

-رئيس الجهاز الخاص في القسم ، إنه موجود الآن في مكتبه وليتك تمر عليه مادمت هنا ٠

تساءل عاطف متوجسا :

-ضرورى ٠

رد الضابط بهدوء ٠

-يعنى ٠

تابع عاطف وقد ارتفعت نبرة القلق ٠

-ماذا يريد ؟

قال الضابط ربما ليطمئنه :

-يا أخى للتعارف ، ماذا تخشى ما دمت سليما تماما ٠

هل كان عاطف جادا أم ساخرا حين قال وهو يسحب يده من يده لينصرف :

-الله يطمئنك ، طمأنتنى ٠

فأشار الضابط إلى الجندى فمضى وراءه على بعد خطوة واحدة وعيناه ترقبانه لا تطرفان ٠

* * *

لم تكن المرة الأولى التى ينقطع فيها المعلم صبحى عن مكانه المعتـــاد في المقهى خلف درج الإيراد الخشبى ، ولكنها كانت المـــرة الأولـــى التـــى يستمر انقطاعه فيها أسبوعا كاملا دون أن يترك خبرا فـــي منزلـــه أو مـــع صبيه ، في المرات السابقة لم يكن غيابة يزيد عن يوم أو يومين وكان يبلـــغ المحيطين به بوجهته ومدة غيابه المتوقعة ، لكنه في هذه المرة استمر مـــدة طويلة ولم يبلغ أحدا ، ولذلك أصاب الرجال القلق حتى إنهم تناســوا غيـــاب الأستاذ عاطف الذى تصادف أن كان في نفس الوقت ، ونسوا أو كادوا أخبار عم فؤاد ، وتحلقوا يتداولون الرأى في احتمالات غيـــاب المعلـــم وأخـــذت الاحتمالات السوداء تسيطر مرة أخرى على الرجال ٠

هل أراد بلبل أن يخفف عنهم حين قال مستظرفا :

-ربما كان يقضى شهر عسل ٠

نهره عم نجيب مستنكرا :

-أهذا وقت هذا الكلام ؟!

اقتنص منصور البقال الفرصة ليخرج من دائرة الاحتمالات المفزعـــة التى دارت برأسه فقال متظاهرا بالبهجة :

-عريس ، يا بختة ٠

وأمر بمشروب على حسابه لبقية الرجال ٠

* *



كلّه بأمره

أصابع عم جابر الخبيرة تتابع ببراعتها المعهودة دقاتها المتميزة فـــوق الطبلة الدافئة فتتخلل إيقاعاتها الساحرة الجسد اللدن شبه العـــارى للراقصـــة التى لا يسمح المكياج الثقيل بتحديد عمرها الزمنى ، يتحـــول الجســـد إلـــى موجات متلاحقة تتداخل بسلاسة لتحكى قصة الخلق الأبدية ، تفيض العيـــون الجائعة شبقاً وتهتز الأجساد الفتية نشوة وتمتلئ الرءوس المثقلـــة بـــالمزاج بالأحلام • وبرغم مقدرته في تنويع إيقاعاته التى تتوحد مع الراقصة لتصبح عالما من الإثارة الساحرة فإنه يرسل عينيه اللاقطتين تتسللان المـــرة بعـــد الأخرى متجاوزة الحشد القريب إلى الأركان البعيدة في الســـرادق الضخـــم الذى شغل حيزا هائلا أمام جامع عمرو ليتأكد من أن الأمور تمضى بطريقـة عادية لا مفاجأة فيها ، لقد علمته التجربة الطويلة أنه في مثل هذا الفرح الذى يحتشد فيه المعلمون الكبار في المدبح والمدابغ لا تصدر المتـــاعب إلا مـــن الصبيان الصغار الذى يتجاوزون حدودهم في إعلان انفعالاتهم ، إثباتا للذات أو كيدا للخصوم ، أو تنفيذا لإشارة خفية من يد مرصعة ، أو تلبيـــة لغمـــزة عين متفجرة بغضب غير متوقع أثارته ملحوظة عابرة قد تكون فلتة لسان •

- سترك يا ستار ٠

قالها لنفسه وهو يشاهد زكى كبير صبيان المعلم مبروك يتجه بخطى بطيئة غير متوازنة نحو الراقصة وفي يده ورقة مالية كبيرة ، تابعه بعينيه فتثاقلت حركة يده على الطبلة فتباطأت الراقصة تلقائيا وخفت صوت الآلات الموسيقية المصاحبة ، التفت الحاضرون في الصفوف الأولى تجاه المتقدم وتابعوه بأبصارهم وهو يسير إلى أن لاصق الراقصة ، مد يده إلى صدرها ليضع الورقة المالية ٠ وبرغم السعادة التى أظهرتها أحس عم جابر أنها جفلت لحظة خاطفة فأيقن أن اليد قد امتدت إلى أعمق مما يحدث عادة ، تدارك الموقف واستأنف إيقاعاته السريعة ولكن يد زكى أوقفته بإشارة بدت له حادة وأخرج ورقة مالية كبيرة أخرى رفعها عاليا بين إصبعيه وبدأ فاصلا من التحية المعهودة للعروسين وأهلهما ، وللمعلمين الكبار ، أخيرا للصبيان الصغار ، والراقصة تردد بصوتها وهى توقع بخاصرتها وعجيزتها العبارات المألوفة ، التى كانت تثير بين الحاضرين برغم ألفتها مزيجا من البهجة والدهشة والتحدى ، فقد كان موقف زكى لكثير من الحاضرين شديد الغرابة ، فهو مشهور بأنه كمعلمه من الطراز الذى يأخذ دائما ولا يعطى ، والفارق بينهما أن معلمه يمكن أن يجود أحيانا بوعود لا تتحقق أبدا لأنه دائما يعلقها على ظروف متغيرة يراها باستمرار غير مواتية ، أما زكى فإنه لا يعطى حتى الكلمات فكيف هانت عليه الليلة النقود ؟ ! ٠

همس يحيى أصغر الصبيان في مدبغة المعلم مبروك في أذن زميله حمدى :

-ما الذى جرى لزكى ؟

رد حمدى بتلقائية :

-لا أعرف ٠

وأردف بعد لحظة :

-حاجة غريبة ٠

هل أراد سالم زميلهما في المدبغة أن يفسر لهما أو أن ينهرهما حين قال :

-أنتما لا تفهمان هذه الأمور ٠

علت على الفور وجه حمدى ابتسامة ساخرة ولم يعقب ، لقد أدرك ما كان يلمح له سالم ، لكنه كان على يقين بأن تلميحه غير صحيح ، فهو يعرف ما لا يعرفه أحد عن زكى ، تخايل له - للحظات - ذلك المشهد القديم في ركن المدبغة القصى ، في ليلة شبيهة بهذه الليلة في حرها النارى ، وهو نائم خلف أكياس الأصباغ لتوقظه من أحلامه حركات قريبة مصحوبة بأصوات موقّعة تجمع بين الرغبة والإثارة والتمنع :

" عايز إيه – يابت أنا مش عايز حاجة من اللى في بالك – شوفى ياختى الراجل إمال عايز إيه – عايز أشغّلك ياختى – طب مانا بشتغل شغل يعجبك هو أنا ناقصة شغل – يابت شغل تانى" ، هسهسات الغنج تحتدم فينغط أذنيه وعينيه ٠ آه لو كنت مكانك يابغل ، أهذا وقت الكلام ٠ "نخلص الأول وبعدين نتكلم – نخلص من ايه – أنا ما ليش في الحكاية دى – جاءتك مصيبة زى الطور ومالكش ٠ إمال جايبنى ليه – علشان الشغل ، شغل تكسبى منه دهب – دا أنت بغل صحيح ! ٠ شغل إيه اللى انت جاى تقول عليه" ٠

مال حمدى على أذن يحيى وهمس :

-سالم لا يعرف شيئا ، صدقنى أنا ٠

وسرعان ما نسيا الموقف كله وهما يتابعان بانفعال كيف كانت مبادرة زكى مثيرة للجميع ، فانهمرت الأوراق المالية من كل الفئات كالمطر ، وأخذ أفراد الفرقة - وليس الطبال وحده - ينحنون بين آونة وأخرى ليجمعوا النقود التى لا مكان لها فوق الصدر المرمرى ، لكن جمع النقود لم يشغل عم جابر عن اختلاس النظر إلى الأركان الخلفية ، فقد ظل يتابع بين حين وآخر النظر الفاحص بأناة ٠

" هل هو الصول مبروك" أعاد الطبال النظر إلى حيث يجلس الرجل ، كانت المسافة البعيدة والحركة الدءوب تعوقانه عن استيضاح الصورة ، لكنه كان يحاول التأكد فنظر إليه مرات وما لبث أن تأكد أنه هو ، فقد أشار إليه الرجل بالتحية مصحوبة بحركته المعهودة التى اكتسبها من بنات مكتب الآداب الذى يعمل فيه ، إذ ضم أصابع يسراه ووضعها على شفتيه مرسلا بطول ذراعه قبلة في الهواء • أحس عم جابر بأسى حقيقى لحظة أن تأكد منه ، فهذه المرة لن تكفيه الجنيهات العشرون بل سيصر على الاقتسام "له الرائجة ، إذا كان الفرح على قد حاله أصر على العشرين ، وإذا كان ناجحا أصر على الاقتسام ، الأمر لصاحب الأمر "لكن استسلامه لم يكبت إحساسه بالقهر ، بل لعله زاده حدة حتى أحس بالمرارة في فمه ، وبرغمه خطر له خاطر : "يمكن التصدى له" ولكنه ما لبث ان أزاح الخاطر بعيدا وأخذ يهز رأسه بعنف وهو يتابع دقاته الإيقاعية كأنما يريد أن يتخلص مما يدور في رأسه ، لقد كان يعرف وقائع كثيرة عن قدرة الصول على التأثير في الباشا رئيس مكتب الآداب ، ولم يكن في استطاعة عم جابر أن يخاطر حتى في الحلم ، تمتم لنفسه مواسيا وهو يختتم الوصلة الأولى "كله بأمره ، وقعنا في يد من لا يرحم" ، ولم يسمح له انفعال لحظات الختام وقد امتزج بمشاعر العجز والغيظ والحنق والأسى واليأس والمهانة والاستسلام أن يرى زكى وهو يقترب من الصول محييا ، ولم يسمح الضجيج المتصاعد حتى للجالسين حول الصول أن يسمعوا عبارته التى رد بها على التحية :

– جدع يا واد ، لكن خد بالك كويس قوى من اللى جاى •

* * *

السعادة تغمر الوجوه المرهقة وأصحابها يخرجون (الغلة) التى التقطوها في الوصلة الأولى لتسليمها إلى عم جابر ليجمعها كالعادة مع ما سيرزقون به في الوصلة الثانية تمهيدا لتقسيمها ، ارتفعت الأصوات بضجيج بهيج وهم يرون الحصاد الوفير ، اختلطت الضحكات بالأمنيات وصدحت الرغبات وحلقت الأحلام المجنحة أملا في ليلة من ليالى العمر يجبر خيرها

كساد ليال طوال بغير عدد ، ولم يلحظوا في غمرة انفعالهم أن عم جابر يأخذ الحصيلة صامتا دون تعقيب ومن غير مشاكسة ، فلم يمد يـــده إلـــى جيـــب مرسى بحثا عما يكون قد نسبه فيه ، ولم يزجر عطية لأنه يضع الحصيلـــة تحت القميص فيبللها العرق ، ولم يهدد رزق بأنه لن يسمح له بجمع النقــوط قائلا عبارته المأثورة :

- أنت لا تغتسل حتى في الأعياد فكيف نضع رائحتك فـــي جيوبنـــا ، حرام عليك ٠

كان الرجل مشغولا تماما بفرد الأوراق المطويـــة وتصنيفـــها بعنايـــة ليضعها أمامهم في الرق تمهيدا لنقلها إلى مكانها المؤقت في جيب الصديـوى الداخلى الذى يرتديه خصيصا لذلك في الأفراح ، هل لاحظت صمته غـــير المعهود نواعم فأرادت أن تداعبه حين قالت :

- بركاتك يا عم الشيخ ٠

لكنه ظل صامتا ، فأضافت برضا وهى تقبل أطراف أصابعـــها ظـــهرا لبطن :

- الحمد لله ٠

تمتمت الشفاه مرددة العبارة التى أضاءت في وجدان كل منهم نور أمل يوشك أن يتحقق ٠ وظلت الأعين ترقب بانبـــهار ممتـــع الأوراق المختلفـــة الفئات تتراكم في مجموعات تتزايد مع كل يد تمتد لتلقى ما جمعته ٠

كان عم جابر قد أتم تصنيف المجموعات ولم ينقلها بعد إلى مقرها حين فوجئوا بالصول يدخل عليهم القسم الخلفى من السرادق ٠ ألقى تحية مقتضبة وهو ينظر بطرف عينه إلى الحصاد الوفير المتجمع في الـــرق ، شـــملتهم - للحظة - رجفة قبل أن يقول عم جابر :

-أهلا حضرة الصول ٠

رد متصنعا فكاهة :

-قلت أحضر معكم العشاء ٠

أجاب جابر باستسلام :

-أهلا وسهلا •

وتابع بنبرة ذات معنى :

-لكن العشاء آخر السهرة •

-ما يضرش ، آخذ تعميرة مؤقتا •

قالها الصول ضاحكا •

هل أراد عم جابر التخلص منه لما استجاب له ، أخـــرج مـــن جيـب الصديرى قطعة الحشيش الكبيرة التى قدمها شقيق العريس تحية للفرقة فـــي أول السهرة وأخذ يفك ورقة السوليفان من حولها ليمنحه منها جزءا ، سـارع الصول فأمسك بمعصم عم جابر بيد ، وبيده الأخرى التقط القطعة كلها مرددا ببهجة :

-رزقى •

صاح جابر مؤكدا احتجاجه :

-والله ما ذقناها •

رفع الصول القطعة إلى أنفه ثم إلى فمه ليتذوقها بطرف لسانه ، ويـأخذ منها جزءا صغيرا بين أسنانه وهو يقول :

-لا تحلف بالله يا ضلالى •

أشاحت نواعم بوجهها وهى تنهض مشيرة إلى توحـــة جارتـــها التـــى تصحبها لتساعدها في الأفراح ، ثم التفتت إلى عم جابر لتقول وهى تحيـــط كتفيها بإحكام بالشال الأسود :

-سأغير البدلة •

قال عم جابر وهو ينقل الحصيلة من الرق إلى جيب الصديـوى دون أن يلتفت إليها :

-معهم يا مرسى •

انتقل الصول مبروك إلى المقعد الذى كانت تجلس عليه الراقصة ، وأخذ يحدق في يد جابر وهو تتابع حركتها بين الرق والجيـــب الداخلـــى دون أن

ينبس ، وما كاد ينتهى حتى قال بصوت حرص علـــى أن يســمعه عطيـــة ورزق :

-أنت حرامى •

رد جابر بغيظ من لا يستطيع التنفيس :

-عيب يا حضرة الصول •

-المرة السابقة سرقتنى •

-المرة السابقة دفعنا من نصيبنا •

قالها جابر بامتعاض ، كان يعلم أن الرجل يمهد لقراره بالاقتسام ، لكن الرجل كان يمهد لشيئ آخر :

-خلاص ، هذه المرة أحضر القسمة •

أجاب جابر بهدوء من وطن نفسه على الاستسلام :

-وماله ، تعال معنا بعد السهرة •

تساءل صفوت بالرغم من أنه يعلم ما سيقال :

-أين ؟

-في البساتين ، عند الأسطى •

-اتفقنا ، لا تتحرك من هنا قبل أن أصاحبكم •

قالها وهو يحرك إصبعه مؤكدا قبل أن يخرج ، انفجـــر رزق غاضبـــا وهو يجز على أسنانه :

-ابن الكلب •

رد عطية بقرف :

-دا جبلّة يا جدع •

تابع رزق :

-ياكل عرقنا ويشتمنا •

عقب عم جابر :

-المصيبة أنه يعتبر نفسه صاحب حق •

التفتا إليه في وقت واحد ليقولا بحسم :

-لا يا أسطى ، لا ٠

لكن عم جابر صمت ولم يرد ، كان يعرف أنها فورة غضب لا تلبث أن تتبدد ، كما حدث في مرات سابقة ، عندما فرض عليهم الجنيهات العشر ، وعندما رفعها إلى عشرين ، ثم عندما أعطى نفسه حق الاختيار بين المبلغ المقطوع والمشاركة ، ولكن الرجلين لم يصمتا ، تنحيا جانبا وأخذا يتهامسان، وكانت تند عنهما بين الفينة والفينة كلمات شديدة الضراوة عن النتن الجشع ، فاضطر عم جابر أن يقول مهدئا :

-استهدوا بالله ٠

ولكنهما لم يستجيبا وظلا ممعنين في حديثهما ، وما كادت بقية الفرقة تعود حتى التقطا مرسى وتنحوا ثلاثتهم لينهمكوا في حديث بدت على وجوههم أهميته ، هل أرادت نواعم أن تخفف عنهم أو تعدهم للوصلة الثانية حين قالت :

-روّقوا يا أولاد ، عايزينها وصلة صباحى للمعازيم الحلوين ٠

تابع عم جابر مؤكدا :

-إن شاء الله ربنا سيكرمنا ٠

وصمت لحظة قبل أن يضيف وصوته كنظرته يشي بحنان دافئ :

-عاوزين الست تشعشع ٠

تمتم رزق وهو يتناول قانونه :

-سد نفسنا الله يسد نفسه ٠

عقب مرسى وهو يمسك بالرق يمسحه بكم قميصه :

-ودا إيه يسد نفسه ، دا نفسه مفتوحه على البحرى ٠

عقبت توحة باستسلام :

-ربنا كريم ، قادر يخرب بيته ٠

رمقها رزق بغيظ لم يعرف له سببا ، استدركت الراقصة مؤمنة :

-من بقك لباب السما ٠

حمل عطية عوده بعناية وتبع زملاءه في طريقهم إلى مواقعهم في النصبة استعدادا للوصلة الثانية ، وما لبث أن مد يده ليمسك بعضد مرسى هامسا :

-خليك جنبى ، سنكمل كلامنا .

هز مرسى رأسه موافقا ، ولو لم يبادره بالطلب لبادره هو ، فقد زلزلته الفكرة برغم كل ما يحوطها من خطر .

* * *

مال عطية على مرسى وهما يتابعان بآلتيهما حركات الراقصة بعزف جمل موسيقية صاخبة وهمس :

-معنا ؟

رد مرسى بتردد :

-إنه شيطان .

-يا أخى لا تخف ، سنجهز كل شئ .

صمت مرسى فتابع عطية همسه :

-حرام أن يستغلنا طول هذه المدة ،نحن أولى بعرقنا .

تمتم مرسى :

-من ناحية أولى أولى .

ولكنه استدرك .

-إذا انكشفنا سيخرب بيوتنا .

ابتسم عطية حتى ظهرت أضراسه السوداء ومال عليه مشجعا :

-دقّ يا عم الله يهديك .

وتابع في نفسه : "هى ناقصة خراب" .

عزف عن الكلام إلى أن بدأ عم جابر يدق الإيقاعات التمهيدية لمرحلة الصهللة الختامية ، فمال عطية عليه ثانية وهمس :

-سنصطاد العصفور وهو خارج من العش .

لم ينظر إليه مرسى وهو يقول باستنكار :

-كيف ؟ إنه يعرفنا !

رد عطية وعيناه تنظران إلى بعيد حيث يجلس الصول محاطا بمجموعة من الصبيان :

-سنكون بعيدين عن الشبهة ٠

تساءل مرسى ثانية :

-كيف ؟

-سيأخذون فلوسنا وفلوسه ثم نتصرف ٠

-من ؟

-الذين سينتظرون عند حوش الوزير ٠

وتوقفا عن الحديث يفكران في الاحتمالات ، كان عطية مستعدا للمخاطرة ، لكن مرسى لم يكن مستعدا لمخاطرة غير محسوبة ، لكن اتفاق رزق وعطية وإلحاحهما ، ثم كلمات عطية الواثقة ، فضلا عن رغبة مرسى في الانتقام أشعلت كلها رغبته في المشاركة ، فتحولت الفكرة غير المعقولة شيئا فشيئا إلى احتمال معقول ، مال على عطية هامسا :

-العملية خطيرة ، أنت متأكد ؟

أدرك عطية أن السؤال مؤشر على الموافقة ، فرد بثقة وقد علا وجهه ابتسامة متألقة :

-خليها على الله ٠

* * *

-أبدعت يا ست ، ربنا يخليك ٠

قالها جابر بسعادة حقيقية وهو يفسح للراقصة مكان الصدارة حول المائدة الحافلة ، ردت ببهجة :

-البركة فيك ٠

وتابعت بامتنان حقيقى :

-البركة فيكم كلكم ٠

ثم قبلت أطراف أصابعها اليمنى ظهرا لبطن وهى تردد :

-الحمد لله .

ردد معها جابر :

-الحمد لله .

عقب مرسى :

-ليلة عظيمة .

ثم أردف متسما وهو ينظر إلى عطية ورزق :

-لولا .

قاطعه الصول الذى أقبل عجلا ليحشر نفسه وسط الفرقة أمام المائدة :

-ليلة عظيمة فعلا .

ما كاد يجلس إلى جوارهم حتى أصابهم الصمت ، ولكن الرجل لم يلق إلى صمتهم بالا فقد كانت المائدة شاغلا له حتى إنه لم يفطن إلى الغمزات من حوله ، هل أراد عم جابر أن يسخر منه أو أن يقطع الصمت الكئيب حتى يتمكنوا من أن يشاركوه في تناول الطعام حين قال مازحا :

-مؤكدا أنك لن تحضر معنا .

التفت إليه الصول وهو يضع بأصابعه الخمس قطعة كبيرة من الكبدة بالصلصة في فمه كأنما يستفسر :

تابع عم جابر مفسرا :

-لأنك ستذهب من هنا إلى قصر العينى .

علت الوجوه المكدودة ابتسامات شاركتها ضحكات مشعة ولكن الصول لم يعبأ بما قال وهو يلتقط ملء يمينه أصابع الكفتة ولما يبتلع الكبدة بعد وقال بسعادة حقيقية :

-عشم إبليس ، نحن بحمد الله نأكل الحديد .

تمتمت نواعم في سرها وقد أدركها الخوف من أن يحدث له شيئ بعد الكمية الهائلة التى ابتلعها :

"يالهوى ، كأنه يأكل في آخر زاده ، ربنا يستر" .

في حين رددت توحة في سرها ضارعة :

"يارب تكون آخر لقمة" .

مال عطية على مرسى وهمس :

-مش بس حرامى ، دا دنى وطفس .

غمغم مرسى مؤمّنا فتابع عطية :

-يستحق قطع رقبته .

عقب مرسى بذعر هامسا :

-كله إلا هذا ،

وأردف مفسرا :

-احنا ما لناش في الدم .

-اطمئن .

رفع عم جابر يده عن الطعام وتنحى جانبا ليشغل سيجارته ثم توقف فجأة ، كيف لم يفطن إلى هذا الخاطر منذ دخلوا للعشاء ، التفت إلى رزق وسأله بقلق :

-عباس لم يحضر ؟

رد بعفوية :

-لو حضر لكان معنا هنا .

عقب مرسى بضيق :

-ربما كان مسطولا ونسى الموعد .

أضاف عطية :

-أو تعطلت السيارة كالعادة .

تساءل الصول وهو يفتح بأسنانه زجاجة مياه غازية وكأنه لا يعرف مع أنه كان معه في أول الوصلة الثانية :

-من عباس ؟

أجاب جابر :

-سواق التاكسى .

أجهز الصول على الزجاجة في جرعة واحدة أتبعها بتجشؤ مجلجل قبل أن يقول بهدوء :

-وهل يتسع التاكسى لكم ؟

قال جابر مفسرا :

-عادة ما نأخذه نحن الثلاثة ومعنا العدة •

وأشار إلى المرأتين وإلى نفسه ، وأضاف :

-أما هم فيحضرون براحتهم •

وأشار إلى الرجال ، وثب إلى ذهن الصول خاطر : "العدة مشكلة" فقال بهدوء :

-خلاص ، كل شيئ يمشى كالعادة ، يحضرون هم براحتهم والعدة معهم ، وأما نحن الأربعة فنبحث عن تاكسى تذهب فيه معا •

قاطعه عم جابر معترضا :

-إلا الطبلة •

تمتمت الراقصة لنفسها :

-قرف •

وتصنعت ابتسامة وهى تقول :

-وماله ياخويا ، حد يطول يمشى في حمى الحكومة •

ومال رزق على عطية وهمس :

-الحمد لله ، جت منه :

ونهض وهو يشير إلى زميليه :

-يللا يا رجالة •

قاطعه الصول •

-إلى أين •

لم يجب واحد من الثلاثة بغير نظرة استنكار ، لكن الصول لم يعبأ بنظراتهم وتوجه بحديثه إلى عم جابر :

-المفروض أن تأخذ الغلّة حتى تكون كلها معك •

بدت العبارة جارحة ، لقد كانت اتهاما صريحا ، ولعلـــها كـــانت فـــي ظروف أخرى قادرة على أن تثير ثائرتهم ، لكنهم في هذه المـــرة تقبلوهـــا بصمت ، وأخرج كل منهم ما في جيبه دون كلمة تعقيب واحدة ، ولم يفـــارق عم جابر الامتعاض وهو يأخذ الأوراق النقدية ليضعها في جيبه كيفما اتفق ، في حين تبادلت المرأتان النظر وهما تمصمصان الشفاه ٠

تابع الصول ما حدث بهدوء مستفز قبل أن يضيف :

-الحق حق ، لا أحد يزعل منه ٠

هل سمع الرجال العبارة وهم خارجون ؟ ألقى رزق بصقة ضخمة على الأرض هامسا لهم كأنما يغريهم :

-هانت ، كلها ساعة بالكتير ٠

لكن هذه الساعة لم تأت أبدا ٠

مضت ساعة ، وثانية ، والرجال الثلاثة ينتظرون قريبـــا مـــن مـــنزل الراقصة من غير أن يظهر لمن ينتظرونهم أثر ، في البداية قبل أن يحضروا إلى المنزل كانوا يسابقون الزمن ، ضارعين أن تتـــأخر المجموعـــة حتـــى يتمكنوا من ترتيب كل أمورهم ، وحين حضروا بعد أن أنجزوا خطتهم بكـــل تفاصيلها ولم يجدوها وصلت بدأ القلق يتسلل إلى كل منـــهم دون أن يجـــرؤ واحد منهم على التفكير فيه ، ولما تمكن منهم لم يجد أحدهم مقـــدرة علـــى الإفصاح عنه ، لقد كانت أسباب التأخير في نفس كل منهم احتمالات مظلمـــة شديدة الكآبة ٠

هز مرسى رأسه كأنما ينفض منها احتمالا كريها وهو يقـــول لـــرزق لائما :

-لم يكن هناك داع للاستعجال ، كان من اللازم أن ننتظر حتى يركبـــوا أمامنا ٠

أوشك أن ينهره رزق ولكنه تماسك ليقول باقتضاب :

-لم يكن ممكنا ، أنت تعرف ٠

عقب مرسى بندم :

-ليلة سوداء ٠

فقاطعه عطية بغضب :

-بالعكس ، كانت ليلة عسل ، لكن الزفت هو الذى سودها ٠

انفتح باب الكلام وانفكت عقدة الألسنة فشرعت تفيض في الاحتمـــالات التى رفضوا في البداية مجرد التفكير فيها ، أسلمتهم المصارحة إلى الحيرة ، ماذا يمكن أن يفعلوا ؟ إلى أن هتف مرسى فجأة وهو يرى في غبشة الضـوء أشباحا :

-بس ، وصلوا ٠

التفتوا جميعا يحدقون ، وبعد هنيهة أدركوا أنهم ثلاثة فحســب ، ولمـا تبينوهم مست أعماقهم وخزة ، رددوا دون وعى :

-على الله خير ٠

لكنهم كانوا يحسون في ذات اللحظة أنه ليس في المسألة خــير ، فقـد كانت نواعم منهارة تماما تجر ساقيها جرا وهى تتكئ على توحة ، يسيل دمع صامت على وجهها الممتقع وقد خبت نظرتها لا تكاد ترى ما تحت قدميـها ، ورفيقتها تئن بصوت كظيم أنينا موجعا تقطعه أصوات غير مفهومة كأنمـــا أصابها مسّ ، فإذا أفاقت تساءلت بحسرة من يسحقه عجز المهانة ٠

-ليه يارب ؟!! ليه ٠

وتلتفت إلى نواعم لتقول بصوت تتجسد فيه اللوعة والأسى :

-معلهش يا ختى ، معلهش ، أمر الله ٠

ولا تكاد تقولها حتى تستغرقها الولولة الخافتة من جديد ، أما عم جـابر فقد بدا بذهوله كأنما بدل شخصا آخر ، أدركته الشيخوخة وطعن في الســن سنين كثيرة بغير عدد ، انحنت قامته واصفر وجهه وزاغت عينـــاه ويــداه الخاليتان ترتعشان بغير انتظام وخطواته باضطرابها توشك أن تسقطه ٠

-ماذا جرى ؟

تساءل الرجال الثلاثة في وقت واحد بلهفة ممزوجة بالجزع ، لكن مـــن ذا الذى كان في استطاعته أن يجيب ٠ هل سمعهم عم جابر ؟ مضى متعــثر

الخطا صامتا خلف المرأتين فتبعوه لا ينبسون إلى أن دخلت المرأتان المنزل فتوقف يحدق في مدخله المظلم حتى تناهى إليه صوت باب يفتح ويغلـــق ٠ التفت ليواجههم فاختلجت ركبتاه حتى أوشك أن يسقط ، سارع الرجال إليـــه يحيطونه بأذرعتهم ، أشار برأسه إلى الأمام فمضوا به خطـــوات انعطفـــوا بعدها تجاه حائط مقبرة قديم وتوقفوا ، أسند ظهره إلى الحـــائط ولكنـــه لـــم يستطع الاستمرار في الوقوف فافترش الأرض غير مدرك ما يملؤهـــا مـــن أوشال ، تحلقوا حوله حائرين ،ارتعد من جديد فانتقلت الرعدة إلى أعماقـــهم وقد غرس الخوف نصله بين الضلوع ، أشاح بوجهه جانبا حتـــى لا يـــروا دموعا سالت بعد أن طال احتباسها ٠

قال رزق ملطفا :

-كله يهون ، لا تحمل هما ٠

لم يجب ، رفرفت في صدورهم طيور اليأس فأيقنوا أنهم أصيبوا فـــي شيئ عظيم ، لكنهم ظلوا يعتصمون بأمل يذوى في كل لحظة في ألا يكون ما يكرهون٠

هل كان يخاطبهم أو يخاطب نفسه حين غمغم بصوت كظيم :

-راح كل شئ ٠

وسقط في الصمت من جديد ، مسّتهم العبارة القاطعة بذهول ردد مرسى العبارة غير مصدق :

-كل شئ ؟! ٠

قال عطية بصوت ملتاع :

-عليه العوض ٠

أدركهم الصمت من جديد حتى قطعه رزق متسائلا :

-إزاى ؟!

نظر إليه عم جابر بعينين حائرتين خلف غيمة سوداء توشك أن تمطر :

"أنت نفسك لا تدرى كيف وقع ما وقع ، هل صحيح ما مر بك الليلـة أو هو حلم ، لا ليس حلما بل هو كابوس ، هل صحيح أن التاكسى الذى حمـدوا

الله على أن يسره لهم بسهولة ما كاد يجتاز كوبرى أثـــر النبـــى ويجـاور الفاخورة القديمة حتى تعطل ، هل صحيح أنهم برغم عنائهم كانوا يســيرون يبتعدون عن الظلمة الموحشة إلى أن يعثروا على سيارة تقلهم ما بقـــى مـن الطريق ، هل صحيح أن هذا الصوت الأجش الذى يغنى : الليلة عيد ، هـو صوت الصول ، هل صحيح أن الرجلين المقنعين يمسكان بالمرأتين ويضعان في جنبيهما نصال الخناجر ، كيف يمشى الصول دون سلاح ، كيف يعطيـهم حافظته وهو يهمس له : الحياة حلوة فلا تضيعها بسبب تافه ، هل صحيح أنه هو الذى يفرغ كل ما فى جيوبه حتى جيوب الصديرى الداخلى ، هل صحيح أنهم " .

-وهل هناك شئ أكثر من هذا .

صمت ولم يرد وجسده كله يرتجف .

جلسوا وقد عجزت سيقانهم عن حملهم وبلغ بهم الغضب مبلغـــا شـل قدرتهم على التفكير أو التعبير ، ولكنهم ما كادوا يفيقون من هول الصدمــة حتى شرعت كل الاحتمالات تتوارد على خواطرهم : الصول ليس بعيدا عما حدث ، لكن كيف وهو أحد المسروقين ، هذه لعبة لعبها حتـــى لا ينكشــف أمره ، ولم لا تكون توحة السهتانة التى تعرف كل شئ ، ولماذا لا يكون لعم جابر يد وإلا فلماذا أعطاهم ما فى جيب الصديرى الذى لا يعرفه أحد ، فجأة انفجر عم جابر بالبكاء ، هل رأى غضبهم مشتعلا على المال فأراد أن يهون منه ، أم كان السر ثقيل الوطأة عليه فأراد أن يشركهم فيه حتى يحمـل كـل منهم من ذل القهر وعار العجز نصيبا .

-لم يكتفوا بذلك

تصاعدت أسئلة متلهفة :

-فيه إيه تانى ؟

همس بذلة :

-اعتدوا على نواعم .

لم يصدقوا آذانهم ٠ التفت رزق إلى الحائط واضعا كفيه على وجهه وقد أغمض عينيه ٠

وعض مرسى شفتيه حتى سالت منهما الدماء ٠

أما عطية فقد مال على عم جابر يسأله بصوت مخنوق ٠

-ازاى ، كنتم فيه ؟

لم يسمع جوابا ، لقد كان عم جابر في حالة مـــن الذهــول يــردد دون انقطاع :

-كله بأمره ، كله بأمره ، كله بأمره ٠

* * *

ساعة الأصيل

(١)

-قتيلك قالت ٠٠ أيهم فهم كثر !!

-آه ، آه ٠

ساعد الباب الموارب على أن ينتقل إلى المهندس خالد وهو جالس على حافة سريره في حجرته الصغيرة المطلة على مسقط النور المعتم تعليق والده الممدد باسترخاء فوق الكنبة الأسيوطى التى تتصدر الأنتريه ينظف بأناة ودقة الإطار الخشبى للصورة القديمة التى تجمعه مع الزعيم الذى رحل من زمن طويل ، حمل التعليق المصحوب بالإيقاعات الشجية للصوت الساحر المفعم شجنا إحساسا بأن الوالد في حالة من حالات بهجته الأسيانة النادرة ٠ فالانسجام لا يحمله على جناح الطرب إلى الترنم إلا إذا كان في لحظة نشوة غير عادية ممزوجة بالأسى ، وخالد يستطيع أن يقف على حالة أبيه النفسية بملاحظة طريقته في الاستماع إلى صوته المعشوق ، إنه يستمع عادة صامتا لا ينبس ملقيا برأسه إلى الخلف ووجهه إلى أعلى مغمض العينين كأنما يخشى أن يقع بصره على شيئ يحرمه لحظة اندماج يكاد يصل به مرحلة الوجد ويشارف معه حالة التوحد ، ولا يتحول السماع إلى طرب والإندماج الصامت إلى مصاحبة مترنمة إلا إذا كانت هناك ظروف خاصة تفجر فيه

إحساسا عميقا بالحزن أو بالرضا ، ولكنها لحظات جد نادرة ، حتى إن خالدا لا يتذكر منها إلا عندما نجحت أخته هدى منذ سنوات في الحصول على الثانوية العامة بمجموع يؤهلها للالتحاق بكلية الطب ٠

-أراك عصىّ الدمع شيمتك الصبر ٠

ارتفع الإيقاع العذب فآذن بأن النافذة المقابلة على المنور قد فتحت ، مال بجذعه مستطلعا فرآها برغم الضوء الخافت مشعة وأصابعها تسوى شعرها كأنما تستعد للخروج ، ألقى نظرة عجلى على ساعته تمتم لنفسه لائما: "كيف نسيت ؟! ، اختطف نظرة على هيئته في المرآة المكسورة فقرر أن يبحث عن قميص آخر ، لكن القمصان القليلة التى يمتلكها كانت إما مكومة في قاع الدولاب في حاجة إلى الغسل وإما ملقاة فوق الرف العلوى في حاجة إلى مكواة ، زفر غيظا ، نادى هدى لتسعفه ٠

ولما لم يسمع لها ردا صاح يناديها بضجر :

-هدى ، هدى ٠

أتاه صوت أمه قبل أن تصل إليه يشى بنبرة لوم :

-نعم ياسى خالد

أقبلت وقد شمرت عن ساعديها وفي عينيها نظرة أشبه باستنكار ، أدرك أنه قد قطعها عن مملكتها الخاصة ، التى تدبر فيها متعهم الصغيرة ٠

رد بإيجاز وصوته كأنما يشى باعتذار :

-كنت أنادى هدى ٠

-هدى ليست موجودة ٠

تساءل مستغربا :

-أين ذهبت ؟

تجاهلت تساؤله ورددت سؤالها :

-ماذا تريد منها ؟

وتابعت دون أن تمنحه فرصة للإجابة :

-يمكنك أن تشرب الشاى مع أبيك ، سأعمله حالا ٠

من جديد كرر تساؤله :

-لكن أين ذهبت ؟

وبدلا من أن تجيبه ، قالت بغير مبالاة وهى تغادر الحجرة ؟

-لا تعطلنى ، لدى أعمال كثيرة ، الشاى سيكون جاهزا في خمس دقائق .

طفت رغبته في تلقى إجابة على السبب الذى من أجله ناداها وهمّ أن يستوقف أمه لكنه توقف ، فلن تبوح بما يظفه سرا من أسرارها الصغيرة إلا أمام أبيه .

-مساء الخير .

تحركت شفتا الوالد ردا على تحيته دون أن يصدر عنهما صوت وأشار إصبعه في نفس الوقت أن يلزم الصمت ، فصوته المعشوق بسبيله إلى الانتهاء وهى لحظة لا تقبل عنده غير الإندماج الكامل الذى يستمر إلى أن يذوى صدى اللحن في وجدانه ليبدأ في معايشة الواقع ، قطع الصمت ليقول :

-الشاى .

جاء صوتها من المطبخ :

-جاهز .

وأقبلت وما زالت تشمر عن ساعديها تحمل الصينية النحاسية الصغيرة التى ورثتها عن أمها وفوقها كوبان زجاجيان ممتلئان حتى الحافة ، لم تكد تضعهما حتى بادرها خالد وهو ينظر إلى أبيه :

-لم تقولى أين هدى .

أشار الوالد لها بإصبعه فمضت ، رفع عينيه إلى أبيه في نظرة تجمع بين الدهشة والتساؤل ، تجاهل نظرته وأمسك بكوب الشاى بين إصبعيه فوجده ما زال حارا فأعاده إلى مكانه وهو يقول :

-أراك ترتدى ملابسك ، هل ستخرج أو ستنتظر معى الضيوف .

-ضيوف ؟

كانت نبرة الاستفهام من الوضوح بحيث اضطر الوالد أن يتابع :

–ستتعشى أسرة عمك صالح معنا اليوم .

عقب باستهانة :

–وهل عمى صالح ضيف ؟

استمر الوالد :

–اليوم له وضع خاص ، فسنتكلم عن موضوع هدى .

رد كأنما يهون من الأمر :

–الكلام في الموضوع مستمر من زمان طويل .

قال الوالد مفسرا وهو يبتسم :

–عقبى لك ، سنحدد اليوم الموعد المناسب لقراءة الفاتحة .

هل كان الخبر مفاجأة ، طفت الدهشة على البهجة وهو يقول :

–أخيـــرا .

غمغم الوالد بهدوء :

–كل شيئ بأوان .

هل أحس الوالد بأن عليه أن يقدم تفسيرا لتغيير موقفه ، فبعد أن كـــان يرفض مجرد التفكير في الموضوع برغم إلحاح الأهل والأصدقـــاء عليـــه متذرعا بأنها يجب أن تكمل دراستها أولا ها هو ذا يوافق على ارتباط رسمى على ألا يتم الزواج إلا بعد التخرج ، وهل يستطيع بالفعل أن يقـــدم تفســـيراً وليس لديه ما يقوله سوى إحساس غامض بأن الدنيا قد تغيرت ، وأن كثـــيرا من الأمور أصبح الناس يتقبلونها بصورة عادية مع أنها كانت تبدو له شديدة الغرابة ، الأمر الذى يغرس فيه شعورا مبهما بالقلق الذى يشـــارف أحيانـــا حافة الخوف ، إحساسه العميق بالإحباط يخنقه ، يخنقه أن يفقد قدرته علـــى التوازن ، يخيفه مجهول لا تتحدد له ملامح ولكنه يحس به علـــى أطـــراف أصابعه ، يحبطه عجزه عن الاستمرار في التصدى ، وهل في وسع أحـد أن يتصدى لمن يملك أن يقدم لمن بيدهم الأمـــر شـــققا ثمـــن الواحـــدة منـــها ربع مليون ، أو لمن يملك أن يودع أى شخص دون أن ينبس بكلمة واحـــدة مستشفى المجانين ، يخيفه أنه لم يعد لديه إلا عالم صغـــير يخشـــى عليـــه

وتتزايد خشيته كلما رأى وسمع ، يحنقه وهو على مشارف الستين أن تقاريره الهندسية الآن بوجود مخالفات تنفيذية برغم خبراته كلها ترفض ويكتب تعليقا عليها كلمة واحدة ، تحفظ ، وحين يعترض يقول له وكيل الوزارة المختص بالإسكان في الحى وهو يتكلف إبتسامته الساخرة : حين يكون القانون غير صالح فعلى المسئولين أن يحسنوا التصرف ، وحين يهدد باستقالة مسببة لا يجد حرجا من أن ينظر إليه باستعلاء ليتهمه بالتخلف عن مواكبة العصر ، ولأنه لا يتخذ قرارا إلا وأصابعه على نبض القيادات المسئولة . فإذا تجاوزه وشكاه إلى وكيل الوزارة ردوا الشكوى إلى المشكو منه ليجرى تحقيقا معه ، ليتخذ بما يملك من سلطة إجراءاته ضده ، وليكتب المحقق عبارات يمنعك بمقتضاها من المتابعة ويحصرك في مراجعة الرسومات وحدها ولا يخجل من أن يبلغك أنه بذلك يحميك من نفسك التى قد تغريك بمواجهة قوى لا تعرفها . "في العهد القديم كانت آفاق اهتمامك تمتد لتشمل الدنيا كلها دراسة وفهما وتحليلا ، وحين تغيرت الأحوال اضطررت إلى أن تجعل عملك وحده دنياك بأسرها ، والآن حوصرت تماما ، حتى العمل امتدت إليه الأيدى الملوثة التى لا تملك لها دفعا . لم يعد لك إلا بيتك ، وها أنت ذا تحاول أن تدعمه ، لكن هل كان قرارك صحيحا" .

ظل خالد يرقبه صامتا ، أحس بأنه ليس سعيدا كما كان يتوقع ، أيعود هذا لأنه غير رأيه ؟ لكنه غير رأيه بإرادته ، ودّ لو في مقدوره أن يسأله لكنه لا يستطيع ، فقد عودهم على أن يناقش معهم الأمور قبل اتخاذ القرار ، لكن إذا اتخذ قراره فليس في استطاعة أحد أن يناقشه ولو حتى لمعرفة الأسباب . ألقى نظرة على ساعته وقفزت أمام عينيه في نفس اللحظة صورتها . إنها بعد دقائق ستكون في الانتظار ، أحس بأن الأفكار تتداخل وتختلط ، "هل من اللائق أن يترك المنزل في هذه المناسبة الخاصة التى لا تتكرر ؟ وهل من اللائق أن يدعها تنتظر ؟ العشاء في هذه الظروف رمز لاهتمام لا غفران لمن يتجاهله ، وبقاء عروس جميلة على محطة أتوبيس وحدها في هذه الساعة يعرضها للهوان" .

قطع الوالد الصمت بعد أن انتهى من كـــوب الشـــاى ليقـــول بلهجـــة تقريرية :

-طبعا ستتعشى معنا ٠

رد بهدوء من يتحسس طريقا :

-أكيد ، هل يعقل أن تفوتنى هذه المناسبة ٠

ولكنه نظر مرة أخرى إلى ساعته وأضاف :

-على كل ما زال الوقت مبكرا ٠ ولدىّ الآن مشوار صغير لن يستغرق إلا دقائق ، نصف ساعة على الأكثر ٠

-كلا لن تخرج قبل العشاء ٠

صدح صوت هدى بكلماتها وهى تفتح الباب عائدة من الخارج ، كـــان الصوت الرقيق مفعما ببهجة عصفور مغرد يشرع في التحليق ، وحين أقبلت عليهما بدت أمامها عروسا حقيقية شديدة التألق والفتنة ، ولم يكـــن المكيـــاج وحده برغم دقته الشديدة ولا تسريحة الشعر برغـــم تناغمـــها مـــع وجهـــها المستدير بقدر ما كانت السعادة التى تطفر من عينيها ٠

غمغم خالد مبتهجا وهويهم بالقيام :

-مبروك ٠

وضمها ليقبل جبهتها لكنها ردته محاذرة :

-لا تفسد المكياج ٠

قالتها أمه التى أقبلت فور سماع صوتها لتتأكد من نتائج رحلتـــها ٠ رد مشاكسا :

-عندك حق ، لو فسد المكياج لضاع العريس ٠

عقبت أمه بسعادة :

-دا بعدك ، بنتى زى القمر ٠

تابع مشاكسته لأمه :

-لماذا إذن أرسلتها إلى الكوافير ٠

فردت أمه بهدوء وهى تسحب هدى من يدها إلى الداخل لتتفقدها بدقة :

-ومن قال لك إنها كانت عند الكوافير •

أوشك أن يتابع ولكن والده قال وهو يبتسم

-يا أخى ، ربما كانت عند كوافيرة •

-كوافيرة •

تصنع الدهشة وهو يقولها •

واستنتج مباشرة أنها كانت عند أمانى ، فهو يعرف عن علاقتهما ما لا يعرفه أبوه ، لقد كان مهندس العلاقة التى قامت بينهما ، استأذن من أبيه على عجل وعاد إلى حجرته مناديا أخته ، ولما حضرت قال برقة :

-أنا سعيد من أجلك فعلا •

فردت بحياء دون أن ترفع عينيها إلى وجهه :

-عارفة ، عقبى لك عن قريب •

أراد أن يخفف من حرجها فأخرج كومة القمصان من فوق الرف وهو يقول :

-أكوى لى قميصا ، فلا يليق أن أقابل أسرة العريس بهذا القميص •

غلبتها طبيعتها المشاكسة فردت :

-من ناحية العريس ممكن ، لكنه لا يليق أن تقابل به حبيبة القلب •

وصمتت برهة كانت كافية لأن تحس فيها بأنه مغلوب على أمره ، عاودها الإشفاق عليه :

-اطمئن ، سأكوى لك واحدا •

وقبل أن يعقب تابعت هامسة وقد حكمتها العادة •

-لكنك لن تقابل به حبيبة القلب •

رأت وجهه يتغير فأدركها الإشفاق ثانية :

-لقد اعتذرت عنك ، لم يكن معقولا أن تخرج لمقابلتها الليلة بالذات •

تساءل وقد غمرته الراحة وانتقلت إليه عدوى المشاكسة •

-من أين لك هذا الذكاء •

ردت متصنعة نبرة استعلاء :

-يا ابنى نحن ندرس المخ البشرى ، ولسنا مثل بعضهم الذين لا يعرفون إلا الطوب والزلط .

رد متصنعا نبرة استسلام :

-معلهش يا زمن ، الدوام لله ، بكرة تضيع على الشرطة كما ضاعت على الجيش .

-ده بعدك ، نحن في العمليات الخاصة ودي مش ممكن الاستغناء عنها مهما كانت الظروف .

غادرا الغرفة مغرقين في الضحك وفي يدها قميص اتجهت به إلى غرفة أمها لتكويه ، واتجه هو إلى الأنتريه ليجلس في المقعد المقابل للوالد تحت الصورة القديمة التى تم تنظيفها .

ردد الوالد بصره بين ابنه والصورة التى تعلوه ، عجبا ، كيف لم يفطن إلى الشبه الكبير بينه في شبابه وبين ابنه حتى لكأنه هو ، الوجه القمحى المستطيل ، والجبهة العريضة العالية ، والشعر الكثيف الأسود ، والعينان الواسعتان المتألقتان ، حتى النظرة نفسها التى تعكس إجلال المحب وقلق العاشق ، والأنف المستقيم الذى يلتقى بالفم في إطار متناغم يتوسطه الشارب الدقيق كأنما يؤكد ما تتسم به الشفتان الرقيقتان من صرامة .

قال طارق -ربما ليقطع الصمت الذى ران بينهما :

-اسمح لى بعد العشاء أن أخرج في مشوار .

تمتم لنفسه ببهجة حقيقية : "حتى صوته أيضا ، إنه صوتك ، ليس في قدرة أحد أن يفرق بينهما" .

تساءل :

-ستتأخر .

رد بعفوية :

-لا أدرى .

هل أحس بأن عليه أن يقدم تفسيرا فأضاف :

-أنت تعرف أننى أنوى أن أرشح نفسى في اللجنة النقابية ، وسألتقى الليلة مع بعض الزملاء ٠

عقب الوالد بحذر :

-هل ما زلت تفكر في الموضوع ٠

-وما المانع ؟

قالها بنبرة توتر ، فقد أدرك بأنه على أبواب مناقشة جديدة لم يكن يريدها :

رد الوالد بنفس الحذر :

-ظننت أنك قد عدلت عن الفكرة بعد مناقشتنا السابقة ٠

التزم الصمت كعادته مع أبيه حين لا يحب أن يجادله ٠ ولكن الوالد استمر بحذر من يريد ألا يبدو كمن يفرض رأيه :

-أظن أنك تذكر أننى قلت لك أن اللجنة النقابية في أى موقع لم يعد لها قيمة ، بل النقابة العامة نفسها ليس لها قيمة ، أكثر من ذلك اتحاد العمال نفسه ليس له أى قيمة ، هذه كلها الآن تنظيمات هيكلية ، ورقية ، تخلو من الفاعلية تماما ، المسألة في جوهرها مرهونة بالسياسة المقررة ، وهى بدورها مرتبطة بالسياسة العامة ٠

ظل صامتا فيقن الوالد أنه لا يرغب في الدخول في المناقشة ، لكنه بدلا من أن يتوقف قرر أن يحمله عليها ، استمر :

-أستطيع أن أقول لك وقائع كثيرة كلها تؤيد أن أى إصلاح لا يمكن أن يأتى من تحت ، لابد أن يأتى من فوق ٠ لابد أن تكون إرادة الإصلاح وحمايته سياسة عامة للنظام وليس مجرد اجتهادات فردية في بعض المواقع يمكن بسهولة حصارها وضربها ٠

شيئا فشيئا تخلى الصوت عن حذره واتسم بالحرارة والحسم ، أيقن خالد أن المناقشة لا مفر منها :

-اسمح لى ، أنا وافقتك في أمور كثيرة ، لست في حاجة إلى أن أذكر هذا لك ، لكنى لست معك في هذه النقطة ، لأن الإصلاح الفوقى مجرد

إجراء شكلى ، لا سند له من اقتناع الجماهير التى من الممكن في أحيان كثيرة أن تحاربه ، أو على الأقل أن تتخذ منه موقفا سلبيا ، لابد أن تبدأ الخطوة الأولى من تحت ، من الجماهير نفسها وليس بالقفز فوقها .

اعترض الوالد .

-وحين يحدث تصادم مع السياسة العليا .

رد بهدوء وهو يتحسس الكلمات :

-اسمح لى أن أقول إنك تفترض وجود التصادم ، وهو افتراض لا مبرر له ، التصادم يكون أمرا حتميا حين يحدث نزاع على السلطة العليا ، لكن لو التزم كل واحد بحدود موقعه دون أن يتجاوزه لما حدث هذا النزاع .

من جديد قال الوالد معترضا :

-يا ابنى هذا كلام نظرى بحت ، التصادم أمر حتمى .

أخذ خالد يشرح تصوره محاولا أن يخلو صوته من الانفعال :

-مثلا لدينا في المصنع فساد في الإدارة تساعد عليه اللجنة النقابية ، هل تظن أننا إذا تعرضنا لهذا الفساد سنكون في موقف الصدام مع النظام :

-بالقطع .

تابع غير آبه بكلمة والده :

-المشكلة في تقديرى في الإدارة واللجنة النقابية التى لا تواجهها بالرغم من أن الحقائق كلها معروفة ، فالإدارة تصنف الإنتاج دفتريا على أنه إنتاج معيب ، من الدرجة الثالثة ، وفضلا عن ذلك تبيعه على أنه مخزون راكد بأقل من نصف ثمن الخام ، والمصنع في النهاية يخسر .

قاطعه الوالد :

-أليس من الجائز أن يكون وراء ما تعمله الإدارة توجيهات عليا .

تساءل مستغربا :

-كيف ؟

-ربما كان الهدف بيع المصنع في نطاق هوجة الخصخصة .

ثانية تساءل وما زال في صوته نبرة استغراب :

-ومن يشترى مصنعا خاسرا ؟

-الذين يعرفون الحقيقة ، وهى أن المصنع يكسب ، لكن يجب أن يظهر بمظهر الخاسر حتى يسهل تمرير بيعه من ناحية وتقليل ثمنه من ناحية أخرى ، ثم لا تنس أيضا أنهم بهذا المظهر يعطون المشترى الحق في تقليص حجم العمالة .

وصمت الوالد لحظة ليضيف بسخرية :

-الخسارة كلها مكسب كما ترى .

صمت مفكرا "هل حجتك مبنية على افتراضات أو على معلومات ، لقد سمعت في الفترة الأخيرة عن التخطيط لبيع بعض المصانع المجاورة ، كارثة لو امتد التخطيط ليشمل مصنعك أيضا" .

أغرى الصمت الوالد فأضاف :

-قل لى ، هل صرفتم الحوافز المتأخرة ؟

رد باقتضاب وما زال يفكر :

-لا .

قال الوالد بثقة :

-بالتأكيد لن تصرفوها .

عقب بغيظ :

-الله يبشرك بالخير .

فحوافز ستة أشهر تغنى الكثير : تقديم هدية مناسبة إلى هدى بمناسبة خطبتها ، وبدلة جديدة يرتديها في الحفل المرتقب بعد أن تهرأت البدلة التى لديه ولم تعد صالحة لأى مناسبة ، بالإضافة إلى مبلغ يعطيه لأخته للمساعدة في دروس الباطنة والجراحة العامة .

كانا منهمكين في المناقشة إلى الدرجة التى لم يفطنا فيها إلى الوالدة وهى تغادر المطبخ لتقوم برحلات مكوكية بين حجرة نومها وحجرة ابنتها ، فلما أتمت عملها واطمأنت على زينة ابنتها وزينتها خرجت إليهما محتجة :

-كفاية كلام ، آن الأوان لتغـــيروا ملابســكم ، لابــد أنـــهم الآن فـــي الطريق ٠

وجدها خالد فرصة ليتخلص من متابعة المناقشة فقال وهو ينهض :

-عندك حق ٠

لكن الوالد بادره وهو يتجه إلى حجرته :

لا تنس أن المناقشة مفتوحة ، فنحن لم نصل بعد إلى قرار ٠

* *

(٢)

-ليس له مكان .

قالها الأستاذ صالح وهو يضع طبق أم على على المنضدة الصغـــيرة ، فرد مضيفه محتجا :

-يا رجل أنتم لم تأكلوا ، الأكل كله كما هو .

عقب الأستاذ صالح بمودّة :

-لم يكن هناك داع لكل هذه التكاليف ، لسنا غرباء ، نحن أهل .

ارتفع بصره تلقائيا ليجد الصورة التى تم تنظفها ، فتابع مبتسما :

-يا أخى بيننا عشرة عمر .

صمت برهة ليضيف مشيرا إلى الصورة :

-هل تذكر اليوم الذى أخذت فيه ؟

أجاب المهندس يحيى بحرارة :

-وهل يمكن أن أنسى ؟

تابع الأستاذ صالح :

-كان ثالث يوم التقينا فيه في معسكر حلوان ٠

واستمر المهندس يحيى :

-كنا في حلقة المناقشة الخاصية بحتمية الحل الاشتراكى ٠

استدرك الأستاذ صالح مصححا :

-بل كانت حلقة القوى المضادة ٠

قاطعه المهندس يحيى :

-لا ، حلقة القوى المضادة هى التى فوجئنا فيها بحضور الرئيس ٠

"حتمية الحل الاشتراكى" ، "القوى المضادة" هل كان وقع الكلمات غريبا حتى عليهما فسقطا في بحر الصمت ، ما لبث أن ظن كل منهما أنه ليس له مكان في الجلسة التى بدأت تكتمل عناصر بهجتها في الأنتريه المفتوح على الصالون الذى يجلسان فيه ، فاقترح الأستاذ صالح أن ينتقلا إلى الشرفة التى كانت لهما فيها من قبل جلسات طويلة ، تمتم المهندس يحيى وهو يحمل كرسيين من الخيزران متجها إليها :

-أرجو أن يكون فيها نسمة هواء ٠

وتابع وهو يضعهما إلى جوار السور كمن يعتذر :

-كانت رائعة قبل أن يبنوا البرج المجاور ، ولكن الأمر لصاحب الأمر ٠

قال الأستاذ صالح هو يتأمل العمارة المجاورة :

-بالفعل ، ارتفعت كثيرا ، لكن هل هذا الارتفاع مناسب لشارع بهذا العرض ؟

رد المهندس يحيى بأسى :

-أكثر من نصف عدد الأدوار مخالف ، ثمانية أدوار كاملة ٠

عقب الأستاذ صالح وفي صوته نغمة اقتناع :

-لابد أن لصاحبها اتصالات ٠

قال المهندس يحيى وفي صوته نبرة حزن ممزوجة بضيق :

-من أقوى نوع ، من النوع المدفوع الثمن ٠

تساءل الأستاذ صالح :
-دفع مبلغا كبيرا ؟
-لم تعد للنقود قيمة ، قدم ربع عدد الشقق المخالفة للمسئولين .
وصمت لحظات ليتابع :
-هذه هى الفيزيتة المقررة في هذه الأيام .
هل كان الأستاذ صالح يشاركه حزنه أو ينفس عن حزنه الخاص حين عقب :
-عم الفساد كل مكان .
وهل كان المهندس يحيى ينعى حظه أو يحاول التخفيف عنه بعدما بدا من تأثره لما قال :
-الفساد عندنا من النوع المتوحش الذى يجثم على الصدور ويسد المنافذ .
تساءل الأستاذ صالح بسخرية :
-عندكم فقط .
-أنت مثلا وكيل ثانوى ، ماذا يمكن أن يكون لديك من فساد غير الدروس الخصوصية ؟
ظل على سخريته وهو يقول :
-حقا ؟
لو أن العبارات قيلت في وقت آخر ربما كان أقدر على أن يتمالك نفسه فلا يتكلم ، لكن اليوم ، بعد ساعات فقط من معرفة نتيجة التحقيق ، لم يكن في استطاعته أن يسكت ، وجد نفسه مضطرا أن يثرثر :
-سأقول لك شيئا ما زلت حتى هذه اللحظة لا أصدقه وكأننى في كابوس .
لم ينتظر حتى يسمع إجابة وراح يتكلم :
-حضر إلى المدرسة يوم السبت الماضى ولى أمر تلميذة ، رجل غلبان ، كان شديد الاضطراب لأن ابنته لم تعد إلى البيت منذ ذهبت إلى

المدرسة يوم الخميس ، فاهتممت بالأمر وأخذت أحقق في الموضوع حتى علمت أن البنت حضرت فعلا إلى المدرسة يوم الخميس ولكنها خرجت مع زميلتين لها ، استدعيت زميلتيها فنفتا أن تكونا خرجتا معها من المدرسة ، أبلغت المديرة بالموضوع ، وهى سيدة حاسمة وذكية ولديها خبرة طويلة في التعامل مع البنات ، أرسلت طالبة البنتين بعد ما تأكدت من مصادرها الخاصة أنهما خرجتا معها فعلا من المدرسة وركب الثلاثة سيارة كانت في انتظارهن ، وما كادت تراهما حتى هبت فيهما صارخة : ما هذا ؟ وهى تشير إلى وجهيهما وملابسهما ، كان مكياجهما كاملا وكأنهما غانيتان ذاهبتان إلى سهرة ، وملابسهما بالغة الضيق حتى لكأنها تحت الجلد ، كيف سمح لكما بدخول المدرسة بهذه الصورة ؟ والتفتت إليّ طالبة منى التحقيق في الموضوع ، أحسست بأن البنتين ليستا مهتمتين أو هكذا بدالى ، ولما سألتهما المديرة عن البنت استمرتا في نفى خروجها معهما ، كانت البنتان تردان بثقة ، ولكنهما كانتا تحدقان في المديرة بقحة وتنظرن إلى الموجودين باستخفاف حتى قلت لنفسى ، ثمة خطأ ما لا أعرفه ، فجأة سألتهما المديرة : أين حقائبكما ؟ قالتا في نفس واحد : في الفصل ، فأرسلت في طلبها ، وحين وصلت الحقائب طلبت من الأخصائية الاجتماعية التى كانت حاضرة تفتيشها ، بدأت تخرج من الحقيبة الأولى أشياء عادية ، ثم توالت الأشياء غير العادية ، علبة مكياج صغيرة ، زجاجة بارفان ، قلم شفاه ، ماسكرا ، ثم ، هل تتصور ؟ ! شريط منع الحمل ، والحقيبة الثانية نفس الشيئ إلى أن أخرجت منها علبة تتضمن قطعا صغيرة من البلاستيك ملفوفة بعناية ، نظرت المديرة والإخصائية إليها بإمعان ، بالطبع لم تدركا كنهها أما أنا فكنت مذهولا ، ولكنى كنت مضطرا إلى أن أهمس في أذن المديرة : إنها علبة مانع ذكرى . صمتت المديرة بغتة ، احمر وجهها وجحظت عيناها وارتجفت شفتاها وارتمت على مقعدها ثم هبت واقفة وهى تصيح : يا كلاب ، أين ذهبتما بالبنت ؟ لم تنبس البنتان بحرف ، ولكن تغيرت نظراتهما وبدأت تعكس مشاعر خوف ، وحين انفجرت المديرة مهددة : سأرسل إلى

أولياء أموركما بما وجدته في الحقائب ، وسأحولكما إلى الطبيـــب للكشــف عليكن انهارتا واعترفتا ٠

-بماذا ؟

-بأنهما في مؤسسة للترفيه السياحى تشرف عليها شسخصية كبـــيرة ، وعليهما دائما ضم عناصر جديدة ، والبنت الغائبة آخر العناصر التـــى تـم ضمها من المدرسة ، وراحتا تطمئنان المديرة على أنها بخـــير ، وســتعود خلال يوم أو يومين ٠

"هل هذا يصدق ؟ لو أن المتكلم شخص آخر ، لكنه صـــالح ، صديــق العمر الذى تعرف أنه لا يكذب أبدًا" ٠

-بالطبع أخذتم الإجراءات اللازمة ٠

-كتبنا مذكرة مفصلة وأرفقنا بها العلبة والحبوب وذهبت المديرة لإبلاغ مدير الإدارة التعليمية ليتولى إبلاغ النيابة ، كان مدير الإدارة يسمع مذهولا ، وقرر إبلاغ الشرطة ، ولكن نصحه مدير مكتبه بالاتصال بوكيـــل الـــوزارة أوّلا لما في المسألة من حساسية ، لكنه صمم على الإبلاغ ٠

-المهم ، ما النتيجة ؟

-عرفناها ظهر اليوم ٠ تم نقل المديرة إلى الشئون الإدارية بـــالوزارة وأحيل مدير الإدارة إلى المعاش ٠

كاد المهندس يحيى يصرخ وهو يقول :

-لست أفهم ٠

رد الأستاذ صالح وصوته يجمع بين الأسى والغيظ والاستسلام :

-لا أحد يفهم شيئا ٠ كل ما سمعناه مجرد إشاعات ٠

سقطا من جديد في بحر الصمت ، وظلا غارقين فيه حتى أقبـــل خـــالد يحمل فنجانى الشاى ، فتمتم الأستاذ صالح حين رآه :

-يظهر أنك نسيت ، أنا أحب الشاى في كوب ٠

قال خالد وهو يستدير عائدا كمن يعتذر :

-اعذرنى يا عمى ، إنها أوامر الحكومة على كل حال ، سأغيره ٠

استوقفه الأستاذ صالح وهو يقول متكلفا ابتسامة :

-ومن يستطيع أن يعصى أوامر الحكومة ، سأشربه والأمر لله ٠

كأنما أحس بأنه قد حمّل مضيفه من الأسى ما لم يكن يرغب فيه فـــأراد أن يخفف عنه فقال :

-الحمد لله على كل حال ٠

نظر إليه المهندس يحيى متسائلا فأضاف :

-مهما يحدث فلدينا نعمة لا تقدر نحمد الله عليها ٠

وصمت برهة عله يسمع تعقيبا ، فلما لم يسمع تابع برضا :

-أولادنا ، نحمد الله على أنه طمأننا عليهم ، هل كنا نتصور بعد كل مـا حدث في الدنيا أن نرى هذا اليوم الذى نطمئن فيه على مستقبلهم ويربطنـــا فيه رباط المصاهرة ٠

وصهللت في الجو الزغاريد ٠

بدت للجالس في ركن الشرفة أشبه بالنواح ٠

*   *

عندما يأتي المساء

نزل خالد من الميني باص أمام مبنى كلية الصيدلة ليأخذ طريقة إلـــى شاطئ النيل ، رفع تلقائيا عينيه إلى مبنى المستشفى الجديد وجال في ذهنـــه خاطر : قد يكون مصمموا المبنى من الهواة ، لكن من المؤكد أن الذى اختار اللون الخارجى مريض نفسيا ، كيف لم يجدوا في كلية الطب شخصا ســليما يجعلونه مسئولا عن هذا العمل ؟ اجتاز فرع النيل الصغير قاصدا الحديقـــة المجاورة للمسرح العائم وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، "يبــدو أن المرض النفسى منتشر كثيرا في هذه الأيام ، فرئيس مجلس الإدارة مريــض بإعلانات المبايعة والتأييد والإنفاق على كلابه ، ومدير الإنتاج مريض بالسفر إلى الخارج وتقديم الهدايا العينية لكبار المسئولين وأعضاء المجلس الموقر ، ومدير المصنع مريض بتزييف الأرقام ومطاردة العاملات ، والحاج رئيــس اللجنة النقابية مريض بالشم وتقديم التقارير ، لابد أن ذلك يعود إلى أن السادة الأطباء لم يعد لديهم وقت لمعالجة المرضى بعد أن تفرغوا للإعـــلان فـــي برامج التليفزيون" •

توقف فوق الدرجات الهابطة إلى الحديقة المنخفضة الخافتة الإضاءة عله يتبين زملاءه ، لكنه لم يجد مناصا من أن ينزل ويتفقد الجالسين حول المناضد المتناثرة إلى أن أدركه صوت مناديا :

-خالد ، خالد .

اتجه إليهم ليقول معتذرا بحرارة حتى قبل أن يسلّم :

-آسف ، آسف جدا ، تأخرت عليكم ، ظروف طارئة .

-مد يده وهو يجلس ليسلم على الثلاثة : حسام ، وعصام ، وكريم .

غمغم كريم وعصام بأن المسألة لا تستحق اعتذارا لكن (حسام) أضاف بنبرة هادئة جادة وهو ينظر إليهما نظرة خاصة :

-نحن لم نحسر شيئا ونحن جالسون في هذه الحديقة الجميلة على النيل ، لكنك أنت الذى خسرت .

رد باقتناع :

-أكيد :

تابع حسام بنفس النبرة :

-لقد فاتك نصف عمرك .

التفت إليه متسائلا فأضاف :

-لأنك لم ترها الليلة .

-من ؟

-ليلى ، ليلى خورشيد .

-موظفة الشئون العامة .

-هى بعينها .

وصمت لحظة ليضيف :

-لو أنك رأيتها الليلة لرأيت .

وتوقف ليعزف نغمة إعجاب طويلة وهو يرسم بيديه في الفراغ الانحناءات والاستدارات المتميزة للجسد الأنثوى غير العادى .

قاطعه :

-بطل تهريج ٠

لكن ذلك لم يمنعه من أن يحس في أعماقه ببعض الحسرة ، ففى ليلة واحدة يحرم من لقاءين ممتعين ، يحرم من لقاء أمانى التى تعزف في وجدانه لحنا بالغ الرقة ، شديد النعومة ، خافت الهمس ، يحس معه كما لو أنه يطير في الآفاق العليا لا يربطه بالأرض رابط ٠ ويحرم من لقاء ليلى التى تعزف في أعماقه لحنا شديد الصخب ، عميق الضوضاء ، سريع الإيقاع ، عاتى التدفق ، يفجر فيه اللهب ويقذف به في أتون من نار يستعر أوارها ٠

ضحك عصام ضحكة مجلجلة وهو يقول :

-أنت صدقت ؟

والتفت إلى حسام ليضيف :

-خلونا في المهم ٠

صمت لحظات بادلوه فيها الصمت قبل أن يقول :

-نحن متفقون على أن الإدارة فاسدة ، وأن مما يزيد فسادها عدم وجود مقاومة ، سواء من مجلس الإدارة أو من اللجنة النقابية أو من العمال بصفة عامة ، والمفروض أننا بحكم تفكيرنا ومواقعنا أقرب إلى العمال منا إلى الإدارة ، ولكن العمال قد يتصورون العكس بحكم مؤهلاتنا ، لذلك نحتاج لكى نكسب ثقتهم إلى أن نبرهن لهم على أننا معهم ونعانى مشكلاتهم ، وعلينا أن نبلور مطالبهم التى يجب أن تكون في نفس الوقت مطالبنا في أهداف محددة وشعارات واضحة تضعنا بشكل مباشر في مواجهة الإدارة ومن معها ، وبالتالى يمكن أن يلتفوا حولنا ٠

قال خالد بثقة :

-أهم مطلب الآن الحوافز ، فأنتم تعرفون أننا لم نصرفها من ستة أشهر ، وقد وعدونا بصرفها أكثر من مرة لكنها لم تصرف ، والسنة المالية على وشك الانتهاء ، ومعنى هذا أن الحوافز عرضة للضياع ٠

علق كريم :

-لكنهم صرفوها فعلا ٠

تساءل خالد مندهشا :

-متى ؟

استدرك كريم :

-صرفوا مكافآت تشجيعية لبعض الأفراد ، مثل أعضاء مجلس الإدارة والمديرين واللجنة النقابية •

قاطعه مصححا :

-المكافآت التشجيعية غير الحوافز •

استمر كريم موضحا :

-أعرف ، لكنهم صرفوا المكافآت التشجيعية بدلا من الحوافز ، لأن ميزانية الحوافز نفدت ، عرفت هذا من أحد موظفى قسم الحسابات •

صاح حسام مستنكرا :

-نفدت ، كيف ؟

تابع كريم :

-لأن ميزانية الحوافز تم صرفها بالكامل على الإعلانات التى تم نشرها ، إعلانات التأييد والمبايعة قبل الاستفتاء ، وإعلانات التهنئة بعد الاستفتاء ، لدرجة أن الحفلات التى أقيمت للوزير الجديد كانت سلفة على المكشوف من ميزانية السنة المالية الجديدة ، يعنى البند مديون والشركة مفلسة •

قاطعه حسام :

-هذا مستحيل ، الحوافز بالملايين فكيف تصرف على إعلانات •

رد عصام بهدوء :

-هذه ليست مشكلة ، من الممكن مثلا أن يضاف إلى النفقات مصاريف السفر إلى أوربا وأمريكا واليابان التى قام بها بعض أعضاء مجلس الإدارة ، ومصاريف تجديد مكاتب الإدارة العليا ، والهدايا التى ترسل إلى كبار المسئولين ، والمكافآت الخاصة ، و•• و•• إلى آخر هذه البنود • المشكلة

الحقيقية أنهم بهذا الكلام عن نفاد البند في الإعلانات السياسية يريدون أن يرغمونا على الصمت حتى لا نكون في مواجهة مع السلطة ٠

من جديد قاطع عصام :

-هذا كلام فارغ ، الحوافز حقنا وليس من حقهم أن يتصرفوا فيها على هواهم حتى لو كانت في الإعلانات ٠

هل كان خالد يؤيده أو يعترض عليه حين قال :

-نحن نطالب بالحوافز ولا شأن لنا بالسياسة ٠

رد حسام بهدوء وبحسم :

-من فضلكم لا تكونوا كالنعام ، المطالبة بالحوافز الآن يمكن تفسيرها على أنها موقف سياسى ، فهل أنتم مستعدون لمثل هذا الموقف ٠

صمتوا جميعا وكأنهم لم يفكروا في السؤال من قبل مع أن كلامنهم سبق أن فكر فيه مرات ٠ كانوا يتمنون ألا يكون الموقف بهذا القدر من الوضوح والحدة ، لماذا يكون الحق الطبعى محوطا بسياج من نهم الآخرين فيحملهم على الاختيار بين أمرين أحداهما مر : الصمت استسلاماً أو لمخاطرة بمواجهة غير محسوبة ٠

تساءل خالد وصوته يجمع بين الضيق والغضب :

-هل يوجد بديل آخر للحوافز يمكن أن يجمع العمال ؟

رد عصام بهدوء :

-البدائل كثيرة ، لكن المهم هو اختيار بديل يفى بالغرض ، وهو تحريك العمال لمواجهة الإدارة مع عدم منح الإدارة فرصة لإدانتنا سياسيا ٠

تساءل من جديد وفي صوته نبرة شك :

-هذا ما أريده ، لكن هل هو ممكن ؟

قال عصام كأنما يطمئنه :

-هذا ما نريده جميعا ، فلنحاول أن نستعرض البدائل الممكنة ٠

والتفت إلى حسام ليقول :

-أنت في قسم الإنتاج ، وتستطيع أن تحدد أهم مطالب العمـــال عنـــدك بخلاف الحوافز طبعا ٠

قال بهدوء كأنما يفكر ٠

-المطلب المباشر الآن صرف الوجبة التى أوقفوها من شهور بدعـــوى ضمها للحوافز توفيرا للنفقات ٠

وصمت لحظات ٠ ثم أضاف شارحا :

-كانت الوجبة تكلف المصنع ثلاثة جنيهات ، وكانت مجالا للســـرقة ، فرأى مدير المصنع بالاتفاق مع مجلس الإدارة واللجنة النقابية إلغاء الوجبـــة على أن يمنح العامل خمسين جنيها شهريا زيادة فـــي الحوافـــز ، وطـــارت الوجبة كما طارت الحوافز ٠

رد كريم بثقة :

-ميزانية الوجبة دخلت فــــي بنـــد المكافـــآت التشـــجيعية لاســـتكمال المخصصات المالية للإدارة العليا ٠

قاطعه عصام :

-نعرف أن أصحابك في قسم الميزانية كثيرون ٠ المهم ماهى مطـــالبكم في قسم التخطيط والمتابعة ٠

قال وصوته يجمع بين الجد والسخرية :

-ليس لنا الآن مطالب ، نحن في هذه الفترة نعيش مشـــــكلة غريبـــة ، فالمكن الجديد غير قادر على الإنتاج لمخالفته للمواصفات الفنية ٠

توقف لحظات قبل أن يتابع :

-هناك قطعة في الماكينة خاصة بإمكانية برمجـــة الإنتـــاج ، شـــطبها المسئولون في الشركة عند سفرهم التسلم الطلبية في مقابل ما طلبـــوه مـــن عمولة ، وهذه القطعة مسئولة في نفس الوقت عن تثبيت الفولـــت وتشـــغيل المكن بدونها يعرضه للخطر ٠

هل كان عصام يسخر حين عقب :

-وطبعا لا يوجد بند في الميزانية لاستيراد هذه القطع ٠

ولم ينتظر إجابته والتفت إلى خالد :

-وأنت في قسم الصيانة ، ماهى بالضبط مطالبكم ؟

رد ساخرا :

-نحن أيضا ليس لنا مطالب ، الأمور في القسم على ما يرام ، مشكلة صغيرة فقط ، فالمكن القديم سيتوقف عن الإنتاج تلقائيا على مراحل أقصاها ستة أشهر لأنه لا يوجد له قطع غيار .

تابع عصام ساخرا .

-بالفعل مشكلة صغيرة جدا بالقياس إلى مشكلتنا في قسم القوى ، فنحن نطالب بصرف الأجور الإضافية عن العمل الذى قمنا به لتحويل مبنى رئيس مجلس الإدارة من تكييف بالوحدات المنفصلة إلى تكييف مركزى .

كانت السخرية أقسى من أن تحتمل فاستغرقهم الصمت وقد فاضت بهم الكآبة ، أدرك عصام أن الكآبة يمكن أن تسلمهم إلى اليأس فشرع يتحدث من جديد بصوته الهادئ محاولا جهده أن يخلو من الانفعال :

-أمامنا الآن خريطة واضحة للمطالب ، هل تظنون أن شيئا منها يمكن أن يحرك العمال غير الحوافز .

أضاف حسام مؤكدا :

-والوجبة .

قاطعه كريم متصنعا الجد :

-لك حق ، نحن جائعون .

لكن حين أضاف خالد :

-أما أنا فشبعان .

انفجروا جميعا في الضحك .

سرعان ما ذهب اليأس وحل محله رغبة حقيقية في القيام بعمل ما ، عمل يوحد بينهم وبين العمال في المصنع ويمكنهم من أن يغيروا أوضاعه المنذرة بالخطر ، هل نسوا احتمالات إساءة تفسير موقفهم أو أنهم بعد أن لم يجدوا بديلا آثروا المجازفة .

-اتفقنا ٠

-اتفقنا ٠

قالها الرجال وهم ينهضون ، مد عصام يده ليسلم على زملائـــه لكنـــه استبقى يد خالد في يده وسارا معا حتى عبرا الحديقة والطريق أمامها ، ومـــا لبث أن نظر إلى ساعته وتمتم :

-ما زال الوقت مبكرا ٠

غمغم خالد موافقا فتابع عصام :

-ما رأيك في كوب من عصير القصب من عم محمود في المـــواردى ، عصيره مشهور جدا ، ومن يدرى ربما نقابل بعض من نعرف هناك ٠

هز خالد رأسه مؤيدا ، وتابعا سيرهما وقد أخذ عصـــام يعـــزف بفمـــه ببراعة الجملة الإيقاعية الافتتاحية لأغنية "رجعونى عينيك لأيامى اللى راحو" وصاحبه يسمع منسجما كأنما يستمع إلى أوركسترا كامل من العازفين ٠

-ها نحن أولاء قد وصلنا ٠

قالها عصام وهو يدخل شارع المواردى مشيرا إلى المحـــل المضـــاء بالنيون المجاور للمقهى الواقع على الناصية ، وتابع وهو يبتسم :

-هذا أحسن محل تشرب فيه عصير قصب ، ليس في القاهرة فقط ، بل في إفريقيا كلها ٠

ارتفع صوت يقول بحرارة ٠

-الطلبات على حسابى ، أنتم ضيوفنا الليلة ٠

كيف لمحهما الأسطى سعد مع أنه كان مشغولا بالحديث مع عـــدد مـــن زملائه الجالسين على رصيف المقهى وبين أيديهم أكواب الشاى بالنعنـــاع ، تبع خالد بصورة آلية (عصام) وهو يعدل عن محل العصـــير ويتجـــه إلـــى الجالسين الذين نهضوا لاستقبالهما بحفاوة ٠ بدا من خلال كلمات الترحيب أن الجالسين يعرفون عصاما وأنه يعرفهم لكن (خالد) لم يكن يعرف سوى عـــم سعد ، رئيس العمال في الوردية الصباحية وواحد من أقدم عمال المصنـــع ، فأقدميته فيه تعود إلى قرابة ثلاثين سنة مضت منذ دخله صبيا بالإعدادية من

باب مدرسة التدريب التى أغلقت بعد ذلك في عصر الانفتـــاح ، وإن ظــل خريجوها يمثلون نوعية متميزة من عمال المصنع • أدرك عم سعد بذكائــه اللماح أن (خالد) لا يعرف بقية الحاضرين فقام بالتعريف :

-أخونا جمال ، رئيس وردية في المطروقات ، وأخونا حسن كان فـــي خط إنتاج اللورى في السيارات طبعا قبل أن يلغوا الخط ، وأخونا سالم فـــي الكوك •

وصمت برهة ليضيف مشعرا بأهمية الشخص الذى يقدمه :

-أما هذا فالدكتور فؤاد عمنا وأخونا وحبيبنـــا ، رجــل أصلــب مــن الصلب ، لكن الأهم أنه شاعر ، شاعر حقيقى ، وليس مثل الهجاصين بتــوع الأيام دى الذين يقولون أى كلام •

تمتم خالد كأنما يجامل •

-أنا أحب الشعر •

فقال الأسطى سعد بثقة :

-سيعجبك شعره •

عقب فؤاد بتواضع حقيقى :

-يا عم أنا رجل غلبان وأقول الشعر للغلابة أمثالى •

قاطعه عم سعد :

-سمّعنا ، والله يا شيخ لتسمعنا •

سكت الرجل فواصل سعد :

-طيب قصيدة الأسد •

هز فؤاد رأسه مؤكدا رفضه ، فاستدرك الأسطى سعد كمن يعتذر عــن إلحاحه :

-عندك حق ، الظرف غير مناسب •

والتفت إلى عصام مفسرا :

-أصل كلامه ليس للتسالى في قعدة ، كلامه حاجة تانية •

ونظر من جديد إلى فؤاد ليضيف كمن يعتذر :

-وإن كانت قعدتنا مش للتسلية ٠

وصفق مستدعيا صبى المقهى الذى أقبل مسرعا فطلب منه تلقائيا الشاى لكن (عصام) قاطعه :

-لقد حضرنا لنشرب عصير قصب ٠

-غال والطلب رخيص ٠

قالها الأسطى سعد بتلقائية طالبا من الصبى إحضار العصير ثم مال على عصام وهمس :

-بعد أن تشربوا العصير ننتقل إلى عطفة سلامة عند عمك أمين ٠

رد بهزة رأس خفيفة وعيناه تدوران فيمن حوله وصوته لا يكاد يسمع :

-أحسن ٠

تابع الرجل همسه :

-سيذهب جمال أولا ، وبعد ذلك نتبعه اثنين اثنين ، وستبقى معى حتى أطمئن إلى أن أحدا لا يتبعنا من إخواننا البعدا ٠

اكتفى عصام بهزه رأس لا تكاد ترى ، استمر عم سعد :

-ما رأيك في أن يصحب خالد الدكتور ، فرصة ليتعرف عليه ٠

تمتم موافقا ٠ فمن المؤكد أن الرحلة التى ستستغرق نحو نصف ساعة على الأقدام كفيلة بتوثيق هذه العلاقة ٠

ولم يكد يكتمل تجمع الرجال في الحجرة الواقعة على سطح المبنى الآيل للسقوط حتى بادر عم أمين بتقديم الشاى قائلا بمرح :

-حبر ، تكتبون به إن شاء الله ٠

قال الدكتور ضاحكا :

-عز الطلب ، تكتب به شهادة وفاتهم بإذن الله ٠

تبادلوا ضحكات صافية وهما يتذكران طرائف المعتقل ، حتى قطع الأسطى سعد سلسلة الذكريات ووجه حديثه إلى عصام :

-اتفقتم ٠

-اتفقنا ٠

-بكرة ٠

-إن شاء الله ٠

تساءل بهدوء ؟

-والمشكلة :

-الحرافز والوجبة ، وإن كان الموضوع لا يخلو من مخاطر ٠

-تساءل مستطلعا :

-ليه ؟

-تابع موضحا :

-لأن بند الحوافز صرف منه على الإعلانات السياسية قبل الاستفتاء وبعده ، وبالقطع سوف يفسرون موقفنا بالمطالبة بالحوافز تفسيرا غير صحيح ٠

ظل الأسطى سعد صامتا ينتظر فتابع عصام :

-يعنى من الممكن أن يقولوا إننا كنا ضد الإعلانات ، وبالتالى يضعوننا في مواجهة مع الجماعة ٠

عقب الأسطى سعد وفي صوته نبرة تجمع بين الاستغراب والاستهانة :

-يا سلام ، وإيه يعنى ، طظ ٠

لم يندهش عصام وتمتم مؤيدا ، استأذن الدكتور الأسطى سعد وقال موجها كلامه لخالد :

-ياباشمهندس ، سنكون في مواجهة مع الجماعة في أى مطلب ، لأن أى مطلب للعمال يجب أن يكون من خلال القنوات الشرعية كما يقولون ، والقنوات الشرعية مسدودة ، لأنها مشغولة بطلباتها التى تعرفها ، فأى مطالب من القاعدة العمالية ستفسر على أنها موقف معاد وخارج حدود الشرعية ٠ وإلا لماذا يحرصون على تزوير الانتخابات ؟

هز عصام رأسه مؤيدا وهو يقول كأنما يطمئنه :

-تعرف أن هذا رأيى أيضا ، وعلى كل حال توصلنا إلى أنه لا يوجد بديل ، ليس أمامنا إلا الحوافز بالرغم من كل المخاطر ٠

قال الأسطى سعد وكأنه لم يسمعه :

-لماذا يخيفنا الصدام ، ما الذى يمكن أن نخسره غير القرف الذى نحن فيه ، لما يكون الواحد بعد ثلاثين سنة شغل لا يقدر أن يعالج زوجته ، أو لا يستطيع أن يعشى أولاده ، والآخر يلوموننا لأننا نضع في الشاى ملعقة سكر لا ، وخد بالك ، من هو اللى بيلومنا ٠

فهم الصمت وهم يرون (خالد) وقد انهمك في الحديث مع الدكتور فؤاد ، ما الذى خطر في بال الأسطى سعد حتى يرفع صوته بمطلع القصيدة التى لما تكتمل :

يا للى سرقتوا الملايين	فين حقوق الملايين
تدوا كلابكم الآلاف	ومش لا قيين العيش الحاف
يا للى عايش في القصور	بص لشعبك في القبور
عامل أسدع الغلابة	ونت مخلب للديابة

التفتا إليه معا يستطلعان في دهشة ، والتفت معهما بقية الرجال ، فشرع عم سعد يلقى باقى الأبيات ٠ وما أن انتهى من إلقائه حتى مال على خالد وقال :

-تحب تسمع قصيدة العقرب ٠

بدا الاسم مفزعا فاضطر أن يفسر :

-آخر قصيدة الدكتور قالها وهو معتقل ٠

تساءل خالد بدهشة :

-هل كان معتقلا فيه ؟

علت وجه عم سعد ابتسامة وهو يقول :

-لا يوجد معتقل لم يشرفه عم فؤاد من اسكندرية حتى الوادى الجديد وأسوان حياته داخل المعتقلات أكثر من حياته خارجها ٠

من جديد تساءل خالد متعجبا :

-ويقول الشعر في المعتقل ٠

رد عم سعد بصوت يشى بالفخر :

-يا حبيبى عنده ديوان كامل •

وصمت لحظة ليضيف وهو يضحك :

-اسم الديوان ليالى الأنس •

-ليالى الأنس !!

كأنما قالها خالد مستنكرا ، فتابع عم سعد موضحا :

-لأنه يقول في مطلعه :

لما تونسنا الكـلاب نشكر الكلب الكبير

* * *

رفع خالد الغطاء عن وجهه وحدّق • الظلمـة سـابغة ، لا بصيص ضوء• من المؤكد أن الوقت ما زال مبكرا ، "لماذا لا تنام ، لماذا يصحبـك الأرق منذ وضعت نفسك في الفراش ، رأسك تمور بتيارات متضاربة ، حتى في اللحظات التى أخذتك فيها سنة من النوم كان ما حدث يتسلل إليك شـيئا فشيئا حتى يملأ تفكيرك كله دون إرادة • هل ما رأيته حدث فعـلا أو هـو حلم ، إنه أقرب إلى الخيال المطلق ، ذلك الرجل ، الدكتور ، عم فؤاد كمـا يحلو له أن ينادى ، هل هو حقيقة ، هل يوجد إنسان فعلا على هذا النحـو ، رجل يرفض الجامعة والمجتمع المتألق ويدمر حياته كلها لمجرد أن يجلـس وسط هذه المجموعة من البؤساء ويردد أحلامهم في شـعر لا يحـس بـه غيرهم"، كلما حاول أن يبعده عن ذهنه وجده هنالك ، في أعمق أعماقـه ، بصوته الهادئ ، ونظرته الواثقة ، وبسمته الحزينة ، وضحكته السـاخرة • "هذا الرجل عصىّ على الفهم ، لماذا يضع نفسه في هذه المآزق ، لماذا يقـدم حياته وحريته قربانا ، لماذا يضحى بمكانه ومكانته ويتحول من مدرس فـي الجامعة إلى مطارد معذب تنهشه الكلاب ، كيف لم يفقد حماسته بعد كل الذى عانى منه ، لماذا لا يتوقف ، أليس الخوف جزءا من بنية الإنسان - يا ابنـى كنت مرعوبا أول مرة ، لكن الوقت ما عادتش تفرق ، خدنا عليهم وخـدوا علينا ، مع أول عضة كلب أغمى على ، لكن لما فقت ولقيته يلحـس النـدم النازف في فخذى قلت ممكن أتعايش معاه ، لكن مؤكد لا أستطيع التعايش مع

الكلاب الثانية - هل هناك مرحلة تتساوى فيها الحرية والسجن ، التمرد والقهر ، إنه برغم كل شيئ يغنى أشعاره ـ بقدر ما يلاقى من عذاب يغنى ، وعجيب أن أغنياته لا تحمل يأسا ولا تصور إرهاقا ، بل تتمسك بالمقاومة وتعلن التصدى ، وتهتف بالثورة - أى ثورة يا عم فؤاد والناس مربوطون في الساقية ، حتى الذين يفكرون في عمل شيئ لا يتجاوزون المدار - أنت بالفعل أقرب إلى الجنون ، كلامك يؤكد ذلك - "الشجاعة أكبر من الحكمة ، وأعظم من التعقل ، ولو خضع الناس جميعا للمنطق العملى لهان أمرهم واضمحل شأنهم ، لأن أكثر الجبناء يبررون مسلكهم بهذا المنطق ، ويردون مواقفهم إلى الحكمة فرارا من اتهامهم بالخور والجبن ، وأهم مميزات الشجاعة جرأة لا تفترق في أكثر مظاهرها عن الطيش والتهور • ولو أنك تأملت الحركات الكبرى في التاريخ وأكثرها مدعاة لبث الذهول في النفوس وأخضعتها لما كانت تمليه الحكمة ويفرضه التعقل لصارت إلى العدم ، ولما قدر لها أن تأخذ طريقها إلى الوجود ، وأن تترك أعظم الأثر في الحياة الإنسانية • خذ مثلا الأنبياء ، خذ مثلا آخر أصحاب الثورات الكبرى ، وقل لى بأى منطق غير منطق الشجاعة الحقيقية كان في إمكانهم أن يواجهوا ما واجهوه وأن يفعلوا ما فعلوه" •

أغمض عينيه محاولا الانصراف عن الرجل لكنه وجده تحت جفنيه ، وجد نفسه دون وعى يقارن بينه وبينه والمقارنة لا تزيده إلا أرقا • "أنت تحلم بمستقبل تكون فيه نقطة ارتكاز ، المحور الذى تدور من حوله الأشياء وتتحدد العلاقات ، أما هو فكان لديه بالفعل هذا المستقبل ، لكنه لفظه ليحلم بمستقبل آخر ، هو مستقبل الناس ، من يعرف منهم ومن لا يعرف ، وجودهم نقطة ارتكازه ، آمالهم محور دائرته ، بهم يتحدد إطار حركته ، من مصالحهم تنطلق رؤيته ، أى شجاعة هذه !! إنها هى الجنون بعينه ، أى جنون أكبر من أن يفنى الإنسان ذاته طوعا غير منتظر جزاء حتى من أولئك الذين يعمل من أجلهم ويفنى فيهم • المقارنة ظالمة • فهذا رجل ضل طريقه إلى عصرنا" •

من جديد يغمض عينيه ويهز رأسه كأنما يريد أن يخرجه منه ، "أنت تعرف طريقك جيدا ، فلا تدع جلسة تمت بالمصادفة تشوش تفكيرك ، لا ينبغي أن تضل طريقك مهما كانت الأسباب ، الزمان الردئ أنت بدورك لا تقف منه موقف القبول ، ولا حتى الاستسلام ، أنت لا تشارك في انحراف ولا تتستر على خطأ ، وليس انحرافا ولا خطأ أن تحاول الوصول إلى موقع تزداد به قدرتكم على المقاومة ، لكن حذار ، فكل شيئ الآن عرضة للانهيار ، مثل هذا الرجل لابد أن يكون مراقبا ، واجتماعكم به حتى في أكثر الأماكن بعدا عن الشبهة يجب أن يكون مرصودا ، فما بالك إذا كنتم أخذتم ترددون أشعاره التى تكفى وحدها لتذهب بكم وراء الشمس • لقد كان حضوره الاجتماع خطرا ، وما كان لك أن تشارك فيه" • سحب جذعه إلى الخلف وأسند ظهره ومد يدا مدربة في الظلمة فتحسست علبة السجائر فوق الكومودينو ، أمسكها بلطف وأخرج منها سيجارة وضعها بين شفتيه وأعاد العلبة إلى مكانها ، من جديد تحسست يده سطح الكومودينو بحثا عن علبة الثقاب لكنها اصطدمت بها فسقطت ، أفزعه رنين سقوطها برغم خفوته على الأرض العارية ، مال بجذعه حتى لا مست أصابعه الأرض وراح يفتش عنها ، كاد يمسك بها حين لمستها إصبعه لكنها حركتها بعيدا ، انحنى بشدة مادا يده متحسسا لكن الحركة لم تكن محسوبة فسقط على الأرض •

نهض مغضبا وهو يمضغ السيجارة دون وعى ، وتمدد فوق الفراش مشبكا أصابع يديه معا فوق صدره ، وتمتم كمن يعذف نفسه : "كفى تفكيرا فيما كان فالمهم الآن ما سيكون ، هذا اليوم أخطر الأيام التى مرت بك ، ودورك فيه أخطر دور قمت به ، يوم له ما بعده ، فهل تنجح الخطة فتتحقق أحلامك أو تجدّ احتمالات ليست في الحسبان يضيع معها كل شيئ" • راح يغرى نفسه بتتبع الاحتمالات غير المتوقعة واحدا إثر الآخر ، وأخذ يفكر في كل منها بأناة ، وكأنه عاد مرة أخرى إلى المشروع المشترك للحصول على البكالوريوس •

"هل يمكن أن ترفض جماهير العمال في المصنع الاستجابة لكم ولا يشارك إلا عدد محدود يكشفكم ويغرى الإدارة بكم ؟ كيف وكل الدلائل تشير إلى النار الكامنة تحت الرماد ، نار يذكى سعيرها يوميا سلوك مستفز لإدارة فاسدة ، الناس يمتلئون سخطا وغضبا ويتوهجون رغبة في تحرك من أى نوع ، ولا ينقصهم إلا قيادة منظمة واعية تعرف كيف تحركهم وإلى أين تقودهم ، مثل هذه القيادة قادرة على أن تصنع المعجزات • هل أنتم فعلا هذه القيادة أو أن المنافقين سيكونون أقدر منكم على استلاب الإرادة ، اللجنة النقابية مملوءة بهم فهل هم قادرون على تكوين عقبة أمامكم ، أو ستعزلهم عن التأثير عمالتهم المكشوفة • العناصر المكشوفة ليست وحدها المشكلة • المشكلة الحقيقية في العناصر غير المكشوفة المبثوثة وسط الناس ، هل تستطيع هذه العناصر أن تتحرك لحماية الفساد بالمزايدة على المطالب والشعارات فتضرب الحركة ضربة إجهاض كما حدث في مرات سابقة ، أو تأتى ضربة الإجهاض من عميل يسرب المعلومات ويقتنصكم ليلقوا بكم وراء الشمس" •

"يا دكتور ، حتى الآن لا يعرف بالتحرك إلا عدد قليل جدا ــ وهو موثوق به ، ولو تسربت الأخبار ستكون كارثة - شف يا أستاذ ، لو تسربت أخبار ستكون مصيبة ، صحيح لكن لن تكون كارثة - لا أفهم الفرق يا دكتور - الفرق بسيط ، المصيبة يمكن تحملها ، أما الكارثة ففوق مستوى الاحتمال - ولماذا لا تكون كارثة - لسبب بسيط ، في كل الأحوال سيوجد من يواجه ، من يتصدى ، من يثور ، إن لم يكن اليوم فغدا ، وإن لم يكن غدا فبعد غد ، هذه حتمية التاريخ - هذا كلام إنشاء - من الممكن أن نخسر معركة ، اثنين ، ثلاثة ، من الممكن أن نخسر سنوات ، لكن النصر لنا في النهاية ، لأننا نجاهد من أجل الحق ، لمصلحة الجماهير ، نحن نناضل من أجل حياة نظيفة ، لا يسيطر عليها الخونة والعملاء والمنافقون والمرتشون ، نناضل من أجل لقمة ليست مغموسة بالذل ، وشربة ليست ملوثة بالمهانة ، وموقف متحرر من الخنوع والعار ، نناضل ضد الفساد والتسيب والاستبداد ، ولن

ينتصروا إلى الأبد ، انتصاراتهم مرحلية - لكن لا أحب أن أكون في الجانب المهزوم حتى ولو مؤقتا - ومن الذى يحب ذلك ، لكن لكل معركة ظروفها - معنى هذا أننا قد ننهزم - حتى لو انهزمنا فنحن منتصرون - كيف - لسبب بسيط ، لأن الحركة في ذاتها في ظل هذه الظروف انتصار - أى انتصار إذا قضى علينا - انتصار على اليأس ، انتصار على الأكاذيب والتضليل والزييف والتزوير والمذلة ، انتصار على سياسة جوّع كلبك ، الحركة تقول للعالم برغم كل ما حدث ، برغم القمع والتعذيب والتشويه فإننا أحياء ، ونتحرك ، وسنظل نتحرك إلى أن تتحقق جميع أهدافنا" •

تمتم لنفسه وهو يتمدد مغمضا عينيه : "إنه رجل مجنون ، فقد كل شيئ ولم يعد عنده ما يفقده ، عليك أن تعيد حساباتك من جديد" • بدأت الأفكار المعربدة تخمد واسترخت على الوجه المدفون بين الوسادتين ابتسامة ، آن للكرى أن يداعب الجفون المثقلة • وحين نهض من الفراش اتجه وما زال مغمضا عينيه إلى باب الحجرة ، رفع يده ببطء إلى حيث مفتاح النّور فضغطه ، أعشاه الضوء المفاجئ وأغلق عينيه وظل لحظات في مكانه قبل أن يفتحها ليتجه مرة أخرى إلى الفراش ، أخرج ساعته من تحت الوسادة ونظر إليها بإمعان وكأنه غير مصدق ، وما لبث أن همس لنفسه مستغربا : "ياه ، لقد تأخرت كثيرا" وجد نفسه يتجه تلقائيا إلى الحمام وهو يتغنى دون وعى بكلمات عم فؤاد :

لما تونسنا الكلاب   نشكر الكلب الكبير

* *

سحر الغسق

-سامح بك •

قالها وائل لموظف الاستعلامات الأنيق الذى كان يتشاغل بـالنظر فـي شاشة الكمبيوتر ويتحدث في التليفون في نفس الوقت ، رفـع بصـره إليـه متسائلا فأضاف :

-الرائد سامح سرى ، ضابط السياحة في الفندق •

سأل الموظف بطريقة آلية :

-من يريده ؟

-الرائد وائل صالح •

-لحظة واحدة •

وأدار قرص التليفون أمامه ثم همس ، ومن جديد رفع بصره إلى وائـل ليقول :

-يمكنك الانتظار في الريسبشن أو في الهول •

أحس وائل بشيئ من الضيق فقال :

-بيننا موعد •

فأضاف الموظف موضحا :

-إنه موجود في الفندق فعلا ، ولكنه ليس في المكتب ٠

لاحظ أن التوضيح لم يزل الضيق الذى ظهر على وجه وائل فتابع :

-مؤكد سيحضر ما دام بينكما موعد ٠

جلس قلقا يترقب ، ولكنه بعد قليل أخذ يتشاغل بالنظر فيمن حوله ، الرجال نماذج مختلفة ، لكنه كان يستطيع تمييز المصريين والخليجيين والأجانب ، لم يكن الزى هو الذى يميز بينهم ، فكثير منهم يتشابهون فيه ، لكن المصريين القليلين كان يغلب عليهم التكلف في الحركة والمبالغة في الاحترام كأنما هم ضيوف ، في حين كان يغلب على الأجانب البساطة والتلقائية كأنما هم في بيوتهم ، أما الخليجيون فكانت سمتهم الواضحة التظاهر والتعالى ٠ لكن التمييز بين النساء لم يكن بهذه السهولة ، إذ لم يستطع برغم انهماكه أن يميز بين المصريات وغيرهن من العربيات ، فهن متشابهات في الاهتمام بملابسهن والعناية بزينتهن ، فالبلوزات ذات ذات الألوان المتداخلة تنفتح متسعة عند الرقبة حتى تسمح برؤية ملامح من المعالم المشدودة ثم تنساب برقة لتقف عند الخاصرة أو تدخل في البنطلونات الضيقة ذات الأرجل الواسعة أو الجوبات الملتصقة التى تحدد بدقة ما تحتها ، والمكياج يبدو شديد التألق برغم الضوء الساجى في البهوذى اللون الوردى ، وقد روعى فيه التناسق اللونى مع لون البشرة وحرصت الخبرة فيه على إبراز عناصر الجذب الأساسية في العيون والشفاه ٠

تناهى إليه برغم اللغط كلمات من حوار بدت له لهجتها غير مألوفة ، التفت برقة فالتقت عيناه بعينين سوداوين واسعتين ، أغمض برهة ثم عاد للنظر فكأن العينين كانتا في انتظاره ، بدتا له مخيفتين وقد فاضت بهما الرغبة ، انحدر نظره قليلا فوجد الشفاه المكتنزه الداكنة ، لماذا أحس بأنها كما لو كانت تمضغه ، التفت إلى الرجل الجالس إلى جوارها فوجده يحدق في المضيفة التى تضع أمامهم أكواب العصير وبصره يتجول بنهم بين عجيزتها وفتحة الجوب الممتدة حتى منتصف الفخذ ، تجاوزت عيناه الرجل

فرأى إلى جواره الولد والبنت يتألق في وجهيهما نور الصبا وعيونهما تتبــع بحذر بنطلون مضيف قريب • تمتم لنفسه ساخرا : "لا داعى للحذر ، إنـهما مشغولان" ، ووجد نفسه دون إرادة يبتسم •

-أهلا بالعريس •

ارتفع الصوت مرحبا وصاحبه يفتح ذراعيه ليضمه إليــه ، قبلــه فــي وجنتيه بحرارة وهو يكرر كلمات التهانى مشفوعة بالاعتذار عن تـــأخره ، غمغم وائل فلم يستبن له حرف ، هل أراد سامح أن يؤكد صـــدق اعتــذاره فأضاف :

-أصل الباشا وصل من غير موعد سابق ، فاضطررت أن أرتــب لــه القعدة في على بابا •

تساءل وائل بتلقائية ؟

-الباشا ؟

-اللواء تيسير الطنبطاوى وكيل الإدارة العامة •

وصمت لحظات ليقول وفي صوته نبرة فخر :

-وهو إن لم تكن تعرف الكل في الكل ، هنا وفي الإدارة وفي الــوزارة وفي كله •

وخفت صوته وهو يضيف :

-على اتصال بالناس الــ ••••

وأشار بيده إلى أعلى ، سأل وائل ضاحكا :

-أى ناس ، الذين في الدور الأول •

رد سامح وهو يشاركه الضحك •

-أول إيه ، فوق ، فوق ، الذين في الدور الأخير •

سأله سامح وهو يجلس إلى جواره واضعا ساقا على ساق :

-زرت الفندق من قبل ؟

أجاب وائل وفي صورته رنة أسى :

-للأسف ، هذه هى السابقة الأولى •

وصمت لحظة ليضيف متصنعا الحسرة وهو يشير بيديه إلى ما حوله :

-يا بختكم ، نحن نعيش وسط العقارب والثعابين وأما أنتم فتستمتعون بالورود والرياحين ، جاءتنا نيلة في حظ الهباب .

قال سامح بغبطة :

-أنت لم تر شيئا بعد .

ونهض وهو يقول :

-سأريك أحلى ما رأيت في حياتك .

قال وائل معتذرا :

-فرصة أخرى ، لا أريد أن أتأخر لأن العروس في الانتظار .

رد سامح :

-أعدك بأنك لن تتأخر كثيرا ، وإن كنت واثقا أنك هنا يمكن أن تنسى كل مواعيدك .

-ومن قال لك إننى أريد أن أنسى .

تجاهل عبارته وتابع كأنما يغريه :

-ما رأيك في أن نبدأ بالبيسين .

هل كان وائل يعترض حين قال وفي صوته شيئ من الدهشة :

-وهل يعمل الآن ؟ الجو الليلة بارد بعض الشيئ .

ضحك سامح كأنما سمع نكتة وهو يقول :

-إنه يعمل على مدار السنة وعلى مدار الساعة .

ومال على رأسه وهمس كأنما يبوح له بسر :

-هناك شيئ اسمه التكييف المركزى ، هيا إلى المصعد .

-وما لزوم المصعد ؟

-وهل تستطيع أن تصعد ثمانية وثلاثين طابقا على قدميك .

علت وجهه ابتسامة خفيفة ليدارى ما أحس به من حرج وسارا صامتين حتى وصلا إلى المصعد الذى حملهما إلى حمام السباحة ، وقف وائل في مدخله مترددا ، ألم يتوقع ما يرى ؟! ماذا يمكن أن يكون في حمام سباحة

غير هذا ، مد سامح يده ليمسك بقبضة زميله ويمضى بـــه حتـــى يجلســـه باسترخاء على مقعد طويل قريب من حافة الماء ، وجلس أمامه كأنما يتأملـــه ثم قال ببهجة حقيقية :

-أنت الآن واحد من رجال الأعمال .

التفت وائل حوله في دهشة بعد أن ظنه يخاطب شخصا آخـــر ، تـــابع سامح :

-صحيح أنك صغير في السن ، لكن بالتأكيد لديك بضعة ملايين .

-نعم .

تابع سامح مفسرا :

-هذا هو المكان المفضل عندهم ، فالساونا قريب في هذا الدور ، وهـــم يحبون حينما يأتون إليه أن يستمتعوا بالجلسة على البيسين .

هل أراد سامح أن يحذره حقا حين قال :

-لكن لا شأن لك بالفراشات .

علت عينيه نظرة تساؤل . فتابع سامح وهو يتجـــول ببصـــره فيمـــن حوله :

-هنا مجموعة من أجمل نساء الدنيا ، من أمريكـــا وكنـــدا وروســـيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والسويد وحتى من بنات العم .

ظن وائل أن زميله جاد فقاطعه بأنفة :

-لا أحب الأجنبيات .

وسكت زميله لحظة كأنما فوجئ ، ثم قال ضاحكا :

-لكنهن يفضلن رجال الأعمال ورجال الأعمال يفضلونهن .

وانفجر مقهقها ، أدرك وائل أن صديقه يعبث ، فأضاف وهو يشـــاركه في الضحك :

يا عم ، أنا لا أحب إلا المصريات .

هل كان سامح جادا أو عابثا حين عقب :

-كلهن تحت ، في النايت كلوب - يبحثن عن رزقهن مع الإخوة العرب •

جلسا دقائق صامتين ، هل لاحظ سامح أن في نظرات ضيفه شيئا من الخوف الممزوج بالدهشة وهو يطالع على عجل صفحات من إعجاز الجسم البشرى فأراد أن ينقل إليه خبرته :

-لما جئت إلى هنا لأول مرة خفت ، أقول لك الحق ارتعبت ، لكن بعد فترة أيقنت أن أجمل شيئ في الدنيا هو الجسم البشرى ، وأجمل ما فيه هو التنوع ، أتعرف ؟ يقال إن الجمال يتعدد بتعدد الأنواع والأجناس ، تستطيع أن ترى هذا بعينيك ولكنك حين تتعمق في المسألة ستجده يختلف باختلاف كل أنثى ، وهذا أروع ما فيه وأفظع ما فيه معا •

-لست أفهم •

-لأن الطاقة في النهاية محدودة •

لم يفهم وائل فتابع سامح وفي صوته نبرة أسى حقيقى :

-آه لو كانت لدى الإنسان قدرة لا نهائية ، أو لو أن امرأة واحدة تستطيع أن تتشكل بأشكال نساء الدنيا كلها •

تجاوز وائل حرجه ليقول بهدوء :

-سيبك من هذا الكلام وقل لى ، ماذا فعلت في الموضوع ؟

أجاب سامح وهو يرفع يده إلى رأسه بالتحية العسكرية متصنعا الجد :

-تمام يا باشا •

ولما نظر إليه مستوضحا أضاف وهو يبتسم :

-لا تحمل هما ، كل شيئ سيكون على ما يرام •

قاطعه وفي صوته نبرة تجمع بين القلق واللوم :

-إذن أنت لم تفعل شيئا •

رد عليه مهونا :

-قلت لك لا تقلق ، أنت لم تقل لى كم عدد المدعوين حتى يمكن عمل اللازم •

-وهل هذا ضرورى ؟
-طبعا ، فتحديد القاعة مرتبط بالعدد .
قال وهو يفكر :
-فلنقل مثلا مائة .
-فقط ، زود العدد لأنه كلما زاد العدد كان التوفير أكبر .
-لنجعلهم مائة وخمسين ، بشرط ألا تخرب بيتى .
-بالعكس ، سأبذل كل جهدى حتى يعملوا لك أقصى خصم ممكن .
قالها وهو ينهض ، ثم تابع :
-سأنزل لأنهى الموضوع .
وقف وائل وهو يقول :
-سأنزل معك .
توقف سامح عن الحركة وقال معترضا :
-لا داعى لأننى سأكون مشغولا ، ثم إننى سأنتقل من مكان إلى مكان .
وخطر في باله في نفس اللحظة خاطرة فأضاف :
-إلى أن أنهى الموضوع سأجعلك ترى أحدث صيحة في القاهرة ، رقصة الاستربتيز تؤديها فرقة سويدية .
هل كان وائل يعترض حين قال :
-لا أستطيع أن أتابع الرقص وبالى مشغول .
رد سامح وفي صوته نغمة لوم :
-لا يصح أن تشغل بالك بأى شيئ ، سيتم كل شيئ كما تحب .
وصمت لحظة قبل أن يضيف :
-سأريك إذن مكانا لا يراه إلا قليلون جدا من أعلى المستويات ، مكان فيه إثارة من نوع غريب جدا لا يستطيع أحد أن يتصور مداها ، حتى نتصورها لابد أن تعيشها . ومهما كان بالك مشغولا فإنه قادر على أن ينسيك كل شيئ ، ينسيك حتى نفسك .

نظر إليه وائل وقد أوشكت كلمات الاعتذار أن تصدر منه لولا أن سامحا تابع :

-سنذهب إلى نادى الصفوة وإذا لم يعجبك يمكنك أن تلحق بى •

-الصفوة ؟

-نادى القمار •

تساءل وائل بدهشة :

-نادى قمار هنا ؟ في الفندق !

-طبعا ، وفي أجمل مكان فيه •

سارا معا إلى أحد الممرات الجانبية حتى وصلا إلى مصعد خاص ، دفع سامح ببطاقته الخاصة في فتحة الاستدعاء فوصل المصعد ، دخلاه فلم يتحرك حتى دفع سامح بالبطاقة في فتحة خاصة فيه فانغلق الباب وتحرك عددا من الطوابق ، التفت سامح إلى وائل وهو يقول مفسرا :

-إجراءات أمن ضرورية •

وخفت صوته وهو يضيف :

-في هذا المكان أغنى الرجال وأكثرهم أهمية ، وفيه كمية من الأموال لا يمكن رؤيتها حتى في خزائن البنك الأهلى •

توقف المصعد وانفتح الباب ، فخرجا معا ثم مال سامح على وائل وهمس :

-تفرج وأنت ساكت ولا تظهر أى انفعال مهما رأيت ، سيتصورون أنك بودى جارد •

وهز رأسه لرجل الأمن الواقف أمام باب مغلق ، فمد يده بتلقائية وفتح لهما الباب • وما كادا يجتازان الباب الذى أغلق وراءهما حتى أيقن وائل أنه في عالم خاص تداخلت فيه معطيات الحواس كلها ، كانت الرائحة العبقة يتنفس بها المكان فتشربها العين لاذعة صاخبة تمتزج فيهاً روائح الرجال وعطور النساء والمشروبات الخفيفة وغير الخفيفة والسيجار والسجائر ، خليط شعر معه وائل لأول وهلة بالنفور ، لكنه لم يلبث في اللحظات التالية

أن ألفه حتى إن الرائحة بدت له كأنما قد زالت ، وحل محلها مشهد العيون المحدقة حول المائدة المستطيلة التى تحمل عجلة الروليت الدائرة ، عيون صامتة لكن يطفر منها مزيج معقد متفاوت تكاد تسمع حواره الفظ بين الخوف والرجاء والرغبة والفزع والاطمئنان والقلق والألفة والدهشة والقوة والضعف والاستسلام والشراسة وأصابع الأيدى اليمنى تمسك بحواف المائدة مخفية رعشات خفية تردد دقات القلوب الضارعة وهى تنتظر ٠

مال وائل على أذن سامح وهمس :

-أين الأموال ؟

ابتسم سامح وهو يهمس مشيرا بعينيه إلى ما فوق المائدة :

-هذه الفيشات الملونة تساوى ثروة ضخمة ٠

عقب وائل وهو ينظر إليها باستهانة :

-وتقول إن المال هنا أكثر من البنك الأهلى ٠

تمتم سامح بهدوء :

-انتظر وسترى ، فأنت حتى الآن لم تشاهد إلا الصغار ٠

تساءل وائل مستنكرا :

-الصغار ؟

فبادره سامح مفسرا :

-أقصد صغار الكبار ٠

وصمت برهة ليضيف محذرا من سوء الفهم :

-أقل واحد من هؤلاء اللاعبين يملك أكثر من مائة مليون ٠

هل أفزعه الرقم حتى أوشك أن يصيح :

-مائة مليون ٠

وتابع لائما :

-وتسميهم صغارا !

رد سامح بثقة خبير :

-لأنهم لا يتجاوزون الروليت ، اما الكبار جدا فإنهم لا يلعبونها أبدا ٠

-ماذا يلعبون إذن •

-الورق •

هل كان وائل يسخر أو يستنكر حين قال :

-الورق ؟ البصرة والشايب •

-كلا بالطبع •

وصمت سامح لحظات كأنما يتذكر ، مع أن الصورة حية في ذاكرته :

-أتعرف ، لقد رأيت بعضهم مرة يلعب بثلاثة مليون •

تمتم وائل مذهولا :

-ثلاثة مليون •

-بالمناسبة ، اللعب هنا بالدولار حتى لا تخطئ في الحساب •

فتح وائل فمه دون أن ينطق ، لكن ندت عنه شهقة لم يستطع منعـــها ، وظل يحدق فيمن حوله غير مصدق ، وما أن تمالك نفسه حتى سأل سامحا :

-أهم ناس مثلنا ؟

رد سامح مبتسما :

-بالتأكيد •

قال وائل مفسرا :

-أقصد مصريين •

-معظمهم من المصريين ، لكن أحيانا يلعب بعض الأجانب •

-والذين لعبوا بالملايين ؟

-كانوا مصريين •

لم يصدق وائل ، "أهذا ممكن ، ثلاثة مليون دولار يخسرها الواحــد أو يكسبها في ضربة حظ ، ثلاثة مليون دولار تساوى مرتبات جميـــع ضبــاط جميع الفرق لمدة عام كامل ، عشرة مستشفيات ميدانيـــة بكـل تجهيزاتــها ومرتبات ضباطها وأطبائها وممرضيها وتكاليف العلاج فيها لعام كامل ، ألف شقة على الأقل لألف أسرة ، هذا مستحيل" •

-وما الذى فعله الذى خسر ؟

رد باستهانة :

-لا شيئ ، من يدرى ؟ ربما كان سعيدا ٠

تمتم وائل مندهشا :

-لو كنت مكانه لا نتحرت ٠

رد سامح مفسرا:

-أحيانا قد تكون الخسارة مقصودة ، لدرجة أن القاعدة في قاعة الكبار أن الذى يخسر يكسب ، وكلما ازدادت الخسارة ازداد المكسب ٠

لم يصدق وائل أذنيه وفغرفاه ، فتابع سامح :

-في الحالة التى أحكي لك عنها كان الذى يلعب ابن أحد المسئولين الكبار جدا ، والذى أمامه أحد المستوردين الكبار جدا برضه ٠

-ومن الذى خسر ؟

-وهل المسألة تحتاج إلى ذكاء ٠ المستورد طبعا ٠

قال وائل وقد ألحت عليه الرغبة :

-هل يمكن أن أرى هؤلاء ؟

ابتسم سامح وهو يرد :

-المسألة تحتاج إلى ترتيب ٠ سأرى ؟

وتركه واتجه جانبا ليهمس في أذن امرأة كانت تقف قريبا من مكان صرف الفيش ، حدّق وائل ولم يستطع أن يخفض بصره عنها ، كيف لم يرها من قبل ؟ بدت له نموذجا خارقا للجمال الانتقائى : الشعر الأصفر الطويل يتهدل على الأكتاف المستديرة العارية ، بينما تتسدل خصلة عابثة منه برقة على الجبين اللامع الذى تتوهج تحته عينان خضراوان شديدتا الصفاء ، والأنف الدقيق المستقيم يلتقى مع الشفة العليا في شبه قوس صغير بالغ الرقة ، والجيد المرمرى الطويل العارى من الحلى يسلمك بسلاسة إلى الصدر النافر الذى لا تخفيه عن الأعين إلا غلالة رقيقة من الشيفون الأسود الذى يلتف برفق حول الجسم اللدن الذى لا توجد فيه ذرة شحم في غير

موضعها المناسب ثم ينسدل حتى منتصف الفخذين اللذين يتألق فيهما البياض المشرب بحمرة وكأنهما مضاءتان من الداخل ٠

ما كاد سامح يعود إليه ليهمس في أذنه :

-بعد قليل ٠

حتى بادره وائل :

-من هذه ؟

وما كاد يقولها حتى أحس بخجل ، نظر إليه سامح نظرة عابثة ليقـــول بتؤدة :

-ربما كانت زميلة عروسك ٠

أوشك وائل أن يغضب لولا أن تابع سامح :

-إنها طبيبة ٠

-وماذا تفعل هنا ؟

-هى المسئولة عن القاعة ٠

رفع وائل عينيه متسائلا فاستمر سامح :

-إنها بنت المرحوم اللواء مجاهد عبد الحق الذى مــــات فـــى حـــرب الكويت ، وبعد أن تخرجت من الطب ألحقها المسئولون بالعمل هنا ، تقديـــرا لتضحيات أبيها ، فهى هنا تكسب آلاف الدولارات شهريا ٠

لماذا تساءل وائل ، هل لمجرد حسب الاستطلاع :

-متزوجة ؟

صمت سامح لحظات قبل أن يقول وفي عينيه نظرة خبيثة :

-آنسة ، لم تتزوج بعد ٠

-صحيح ؟

-كل الذين عرفوها يقولون هذا ٠

تساءل وائل بتلقائية :

-وأنت ، ألا تعرفها ؟

رد سامح بعفوية :

-يا ابنى هذه لا تعرف إلا الكبار .

وتابع وهو يتحرك تجاه الباب :

-سأتركك لأنجز الموضوع ، وإذا أردت النزول قبل أن أحضر فاسأل عن مدام نجلاء وستصحبك إلى أن تنزل ، يمكنك انتظارى في المكان الذى انتظرتني فيه ، وسأمر به قبل أن أصعد إلى هنا .

ظل وائل طوال فترة وجوده في قاعة الروليت موزع البصر بينها وبين المتحلقين حول المائدة منتظرا إشارتها ، ووجد نفسه دون إرادة يفكر في المرتب الذى تحصل عليه ، إنه يعادل مرتبات جميع ضباط الكتيبة ، في مقابل أى شيئ ؟ ماذا تعمل ؟ أيا كان نوع العمل الذى تعمله هل يستحق ما يعادل جهود عشرة ضباط متفاوتى الرتب يظن كل منهم أنه الحاكم بأمره في ألف جندى ، وتذكّر اليوم الذى اشترى فيه سيارته ال ١٢٨ وابتسم ساخرا ، كان يظن حينئذ وحتى هذه اللحظة أنه بدأ يضع رجله على السلم مع أنه حرم نفسه من كل شيئ تقريبا لمدة عام كامل حتى استطاع أن يدفع مقدم ثمنها ، وحرم نفسه من كل شيئ لمدة عامين آخرين حتى استطاع تدبير الأقساط . أما هذه ففى وسعها أن تحصل بمرتبها على سيارة أفضل كل بضعة شهور دون أن تحرم نفسها من أى شيئ .

أشارت إليه . فأقبل عليها متكلفا ابتسامة صغيرة ، وهز رأسه محييا ، لم تكلف نفسها عناء الرد عليها بل سألته بصوت خافت :

-ستعمل معنا هنا ؟

-ربما .

لم يشأ أن ينفى حتى لا يثير التساؤل حول سبب وجوده ، ولكنه ما إن سمع صوتها حتى أحس بالغرابة ، فالصوت تشوبه بحة حادة كتلك التى تنتج عن الإسراف في الشراب .

-ما رتبتك ؟

-رائد .

ردت وصوتها يجمع بين الكبرياء والاستهانة :

-وحتى لو كنت لواء ، إذا عملت هنا فستتلقى أوامرك منى •

دارى ما أحس به من غيظ بابتسامة ساخرة بعد أن ارتفعت تلقائيا إلـــى عينيه صورة العقيد حسين •

أرادت أن تؤكد له منذ أول وهلة أهميتها فتابعت :

-لم يحضر الليلة لاعبون مهمون ، والمبالغ التى يلعبون بها صغــيرة ، ولذلك ترانى هنا •

أحس بأنه لم يفهم فواصلت :

-حين تكون المبالغ كبيرة فإننى أكون داخل القاعة حتى أتاكد من سلامة اللعب •

-بكم يلعبون ؟

ألم تسمعه ؟ سارت تتقدمه فتبعها ، تمتم لنفسـه وهـو يـرى حركـة خاصرتها كما لو كانت عارضة أزياء : تبادر إلى ذهنه "بحكـم الموقـع" ، انعطفت يمينا في ممر مفروش بالشينواه الصينى تضيؤه الثريات التشـيكية التى تنعكس صورها على المرايا المتقابلة تتخللها صـورة القـائد الأعلـى بضعف الحجم الطبيعى ، أبطأت خطوتها فأبطأ ، لكنه اضطر أن يقترب منها بعد أن رآها تهمس :

-هذا الجناح تشرف مرة بحضور ابن سيادته •

أوشك أن يرفع يده بالتحية العسكرية ، لولا أنه تذكر أنه بالزى المدنـى فاكتفى بأن أحنى رأسه •

توقفت على مدخل القاعة الذى يحيطه من كل جانب من جانبيه رجـل أمن ، فتوقف ، غمغمت هامسة :

-ادخل بهدوء حتى لا تسبب إزعاجا •

كانت القاعة الرحيبة الفاخرة التى تغطى أرضيتها كلها سـجادة يدويـة واحدة تتناثر في أركانها مقاعد الأوبيسون الفرنسى وقد احتل بعضها بعـض الرجال يتبادلون أحاديث هامسة وفي أيديهم كؤوس الشـراب ، وتتوسـطها

مائدة كبيرة مستديرة مغطاة بمفرش من الساتان اللازوردى الذى حليت أطرافه بخيوط ذهبية ولم يكن يجلس إليها إلا لاعبان فحسب ٠

تمتم لنفسه : "هذا عالم آخر" ٠ فلم يحس فيه بذلك الصراع المكبوت في قاعة الروليت ، بل كان الذى يسود فيه الهدوء الذى يخلو من التوتر والاطمئنان الذى لا يشوبه القلق ، والابتسامات الصافية على الوجوه لا يكدرها تفكير في احتمال غير متوقع ٠

همس لها :

-لا أرى فيشا ، يبدو أنهما يتسليان فقط ٠

فلما نظرت إليه مؤنبة أدرك أنه تجاوز حده فلزم الصمت ٠ وظل فترة يتأمل حتى أحس بالملل ، وما كاد يفكر في أن يستأذن منها حتى ارتفع صوت أحد اللاعبين وهو يرص ما بين يديه من أوراق على المائدة :

-كونكان ٠

قال اللاعب الآخر وهو يضم أوراقه ليضعها دون أن يعنى حتى بالنظر إلى الأوراق التى وضعها زميله على المائدة :

-تكسب يا باشا ٠

وتابع وهو ينهض مبتسما :

-كالعادة ، سيكون المبلغ في الحساب غدا ٠

-مائة ألف ٠ مبلغ تافه لا يستحق الإيداع ، يمكنك أن تدفع نقدا ٠

-بعد إذنك ٠

قالها وائل ومضى في طريقة إلى خارج القاعة دون أن ينتظر ردها ، ووقف فور مغادرتها يسأل أحد رجال الأمن عن مدام نجلاء ، فلما أبلغه أنها توجد في حجرة على يسار المدخل الرئيسى للنادى انطلق بخطى سريعة إليه ، وعند المدخل سأل مرة أخرى ، فأشار أحدهم إلى باب الحجرة نصف المفتوح فمضى إليه حتى وقف فيه ٠ كانت الحجرة عارية من الأثاث ليس فيها إلا مكتب صغير من صاج قديم يحمل جهاز تليفون وأوراقا متناثرة من صحيفة يومية ، وغلى جوار الحائط طاولة صغيرة عليها إناء من الصاج

يطل من فوهته كويل لغلى الماء ، وإلى جواره صينية من الألومنيوم تحمل بضعة أكواب زجاجية ٠

فوجئت السيدة الجالسة على مقعد خشبى أمام المكتب بوجوده فتوقفت عن الكلام في التليفون وقالت برقة وهى تشير إليه بالدخول :

-تسمح لى أكمّل المكالمة ؟

هز رأسه فتابعت حديثها ٠

تأملها وهى تتكلم ، كانت في نحو الخامسة والثلاثين ، وجهها الخمرى البيضاوى يشعرك بالألفة حتى لكأنك تعرفها من مدة طويلة ، لكن تشوبه ملامح إرهاق حاولت أن تتغلب عليها بالمكياج ، وشعرها الأسود قد صففته بعناية وإن كان واضحا أنها لا تتعامل مع الكوافير ، وعيناها العسليتان جميلتان وهما تعكسان قلقا مألوفا كأنما تعايشت معه ٠ وملابسها رخيصة الثمن وإن كانت رغم بساطتها لا تخلو من ذوق ٠ لم تكن تهمس في التليفون شأن من يخفى سرا ، بل كانت تتكلم بصوت خفيض يمكن متابعته ، "من الواضح أنها تكلم رجلا اهتمامها به غير عادى ، فهى تسأله عن أشياء بالغة الدقة شديدة التفاصيل تتصل براحته ، ربما كان زوجها وربما كان أخاها ، أما هذه فبالقطع ابنتها ، لا تحمل عبارة واحدة كلمة حب لكن كل كلمة تؤكد حنانا غامرا بغير حدود يعكسه ما علا وجهها من خوف عليها وشفقة بها" ٠

-آسفة يا باشا ، عطلتك ٠

قالتها وهى تضع السماعة مكانها بصوت يحمل نغمة اعتذار حقيقى ، ونهضت واقفة ، تمتم بنبرة لا تخلو من صدق :

-لا أبدا ٠

تابعت بهدوء ، وهى تتحرك لتخرج من خلف المكتب :

-أنا مضطرة دائما أن أطمئن عليهم ٠

وصمتت لحظة لتضيف مفسرة :

-مواعيد العمل هنا غير مناسبة ، لكننا نحاول التغلب على هذا بالاتصال بالتليفون ٠

عقب مجاملا :

-شيئ طبيعى ، زوجك ؟

ردت باقتضاب :

-نعم ٠

كانت قد أكملت خروجها من وراء المكتب وسارت إلى منتصف الحجرة حين تساءلت :

-واضح أن سعادتك ضيف يشرفنا لأول مرة ، لم أرك من قبل ٠

رد بإيجاز :

-بالفعل ، هذه أول مرة أحضر إلى هنا ٠

هل كانت صادقة حين قالت بتلقائية :

-أرجو ألا تكون الأخيرة ٠

لم يرد فتابعت :

-واضح أنك لست زبونا ، كما أنك لست بودى جارد ٠

تساءل وصوته مشبع بسخرية :

-لم ؟ شكلى لا يصلح ٠

ردت مفسرة وفي صوتها نبرة اعتذار :

-أبدا ، بل لأن الزباين لا يغادرون الآن ، إنهم لا يغادرون قبل الثالثة أو الرابعة صباحا ، وطبعا حراسهم يظلون في صحبتهم دائما ٠

وصمتت برهة ثم أضافت ٠

-تحت أمرك ٠

سارا معا صامتين متجهين إلى الباب الرئيسى للنادى ، أدركه إحساس بأنه فظ ، وأن سخريته لم يكن لها مبرر ، فقطع الصمت ليقول محاولا أن يتلطف :

-هل تظلين هنا إلى أن يغادروا ٠

بقيت صامته كأنها لم تسمع ، شعر بشيئ من الحرج فأراد أن يغير الحديث ، فقال وهى تضع بطاقة استدعاء المصعد :

-واضح أنك تحرصين على راحة زوجك كثيرا ·

ابتسمت ، أحست بأنه لا يقصد سوءا ، فقالت بتلقائية :

-طبعا ، قال الناس عنى عندما رفضت أن أتركه بعد أن عاد من حرب الكويت أعمى مقعدا إننى مجنونة ، وإننى لن أستطيع مواصلة العيش معه ، ولكنى برغم كل شيئ أعيش معه راضية بقسمتى ، لا يعذبنا إلا مرض البنت ·

-أهي مريضة ؟

-ولدت بثقب في القلب ، وقال الأطباء إنهم لا يستطيعون إجراء العملية لها إلا بعد أن تكبر ، ويكتبون لها دواء مستوردا غاليا لا يتوفر في مستشفيات القوات المسلحة ، ونضطر لشرائه من الخارج أو من صيدليات المستشفيات الاستثمارية بعد أن تطلع روحنا ·

عقب بأسى :

-ربنا يشفيها ·

هل كان يغير الحديث ثانية ليزيل عنها ما أحسه من كآبة :

-لذلك تعملين هنا ؟

ردت وفي صوتها مزيج من الحزن والاستسلام :

-تصور من التاسعة مساء إلى الخامسة صباحا مقابل ثلاثمائة وخمسين جنيها لا تكفى ثمنا لعلبة دواء واحدة ·

هل تصنع الدهشة ليقول :

-غير معقول ·

تابعت :

-قالوا لى عند ما جئت إلى هنا إن البقشيش سيكون أكبر من المرتب ، وإننى سأتعامل مع الكبار الذين يلعبون بالفلوس ، لكنى لم أجد واحدا يدفع لى بقشيشا منذ جئت ، ويقولون الآن إن البقشيش متوفر في النايت كلوب ، لكننى مترددة ، أخاف أن ··

توقفت وابتسمت لأول مرة منذ رآها ، وقالت وصوتها يقطر سخرية :

-يظهر أن البقشيش ليس لأمثالنا •

وصمتت لحظات قبل أن تضيف ضاحكة :

-مع السلامة •

ولم يكد يخرج من باب المصعد حتى فوجئ بسامح الذى صاح بصوت يجمع بين البهجة والدهشة :

-ابن حلال ، وفرت على المشوار •

-خير -

-طبعا خير •

قالها باعتزاز ورضا ، وتابع وهو يبتسم ابتسامة كبيرة •

-أولا نذهب إلى السويت لنأخذ مشروبا ثم أقول لك التفاصيل •

رد وائل معتذرا :

-لا داعى ، تعرف أنى تأخرت كثيرا ، المهم ماذا فعلت ؟

ألح سامح فأصر وائل على الاعتذار ، ألأنه كان ممتلئا بمشاعر متضاربة فلم يكن عنده استعداد لمزيد ، اضطر سامح أن يقول بعد أن أيقن أنه يحاول معه دون جدوى :

-إذن نجلس في الكافيتريا ونتكلم •

وسارا إليها ، ولو كان وائل في ظل ظروف أخرى للاحظ أن سامحا يتفقد بنظراته مواقع بعض الفتيات في المقهى محاولا أن يلم بصورة سويعة بمدى نجاحهن ، كان يسجل في ذاكرته بعض ملحوظاته الخاصة حين جلس أمامه وقال ولما يتم جلوسه بعد :

-أستطيع أن أقول إننا حققنا نجاحا غير عادى •

لم يشأ وائل أن يعقب منتظرا التفاصيل ، فتابع سامح :

-شوف يا سيدى ، طبقا للأسعار الرسمية هنا كان المفروض أن ندفع عن الفرد الواحد مائة وخمسين جنيها ، وعشرة آلاف للفرقة •

فتح وائل فمه دهشة ، فلم يكن في مقدوره أن يصدق ، لكن سامحا استمر ولم يتح له فرصة للمقاطعة :

-لكن أخاك استطاع أن يحصل لك على أعلى خصم ممكن ، خصم لم يحدث من قبل ، كم تتصور ؟

ولم يكن في استطاعة وائل أن يتصور شيئا ، فمهما كان الخصم فواضح أن الفكرة كلها خرجت من نطاق الاحتمال ، "لماذا أغريتنى بالتفكير في هذا الموضوع المستحيل" .

-حصلت على خصم خمسين في المائة .

قالها وصوته كوجهه يشارك في بهجة إنجاز غير مسبوق . ولكنه تعجب حين رأى وجه وائل يمتقع ، ويصمت دون أن يعقب بكلمة شكر واحدة .

هل كان يحاول إقناعه فعلا حين قال بحماس :

-عشرون ألفا لمائتى مدعو في ليلة من ليالى ألف ليلة مبلغ بسيط .

ظل وائل صامتا ينظر إليه بإمعان ، وجالت في نفسه خاطرة "أنت من يقول هذا ، ونسيت أنك كنت تحرص على البقاء في الكلية في إجازة آخر الأسبوع حتى تحصل على طعام الطلاب الذين يخرجون في الزيارات" .

ظن سامح أنه يفكر فراح يغريه :

-هذا المبلغ يدفعه كثيرون بقشيشا .

تمالك وائل نفسه برغم المرارة التى أحس بها وقال بهدوء :

-ومع ذلك المبلغ أكبر من إمكانياتى .

هل تجاوز سامح حده حين تساءل :

-والعروس ؟

اكتفى وائل بأن يرد بامتعاض وهو ينظر إليه بحدة :

-وأكبر من إمكانيات العروس .

همّ سامح أن يسأله : "ولماذا تزوجتها إذن ؟ لولا ما شعر به من ضيق زميله ، فأضاف بتلقائية :

-طيب ، قل لى الإمكانيات المتاحة ، ربما ..

فقاطعه وائل بحسم :

-انس ، الموضوع كله خطأ ولا داعى للتفكير فيه ٠

أحس سامح من لهجة زميله كما لو كان يلومه مع أنه بذل من أجلـــه جـــهدا يفوق الوصف ، وحصل له على خصم غير مسبوق ، لكنه كان حريصا على ألا يحدث بينهما سوء فهم ٠ نهضا معا ليأخذا طريقهما إلى الخارج ، أمسـك بكفه وبدأ يفسر من جديد ما فعله حتى وصل إلى هذه النتيجة ، قابله بالصمت فراح يعتذر محاولا تخفيف ما نزل به من كآبة ، كان الصمت مؤثـــرا إلـــى الدرجة التى ود فيها سامح أن يفعل له أى شيئ ، وفجأة برقــت لـــه بارقـــة أمل :

-ما رأيك في أن نلجأ إلى الباشا ٠

تساءل سامح بتلقائية :

-أى باشا ؟

-اللواء الطنبطاوى ، ربما ٠٠٠

قاطعه وائل ، فلم يعد في مقدوره أن يتحمل خيبة أمل جديدة :

-لا داعى ٠

لكن سامحا قال بحماس :

-لن نخسر شيئا إذا لم نحقق أى نتيجة ، هيا ، لا تعاند ٠

"لن نخسر شيئا ، لكن ٠٠٠ ربما " تولدت بذرة أمل شديدة الوهن ، كـاد يرفض ولكن تباطأت قدماه ووجد نفسه يقول :

-اذهب أنت ٠

ابتسم سامح وأخذ يشده من يده وهو يؤكد :

-لابد أن تأتى معى ، أنا أعرفه جيدا ، يحب أن يرجوه الإنسان ويسمّعه كلمات التعظيم ٠

لم يكن قد اتخذ قرارا بالموافقة لكنه وجد نفسه ينقاد إليه دون مقاومـــة وهو يتجه به إلى المصعد ، وفي دقائق كانا في مدخل القاعة الحاشدة التـــى تجلجل فيها إيقاعات الموسيقى السريعة التى تصحب الراقصين على البســت في حركاتهم العنيفة ، توقف وائل وهو يهمس لسامح :

-سأنتظرك هنا إلى أن تكلمه أولا ٠

وافقه سامح على مضض واتجه إلى حديث تــرك الباشــا فــي بدايــة السهرة ٠

تابعه وائل بعينيه وهو يخترق الموائد المحملة بالطعام والشراب حتـــى وقف أمام المائدة التى يجلس إليها الباشا ، فراح يتأمله وهو يتمتم :

-هذا إذن هو ٠

كان في نحو الخامسة والخمسين ، شعره المصبـــوغ بـــاللون الأســـود مصفوف بعناية كأنه خارج لقوه من تحت يد مصفف الشعر ، أبيض الوجــه مشوب بحمرة تزيدها الإضاءة الملونة المتغيرة جاذبية ، فكأنه نتـــاج بـــذرة قديمة تركها الفرنسيس في حنايا النهر ، فمه الواسع وهو يضحك لا تدل عليه وهو مغلق شفتان رقيقتان كأنما هما طرفا جرح ملتئم ، عنقه الغليظ وصـدره الضخم نتاج جيد لبنية غير عادية وتدريب مستمر يشرف عليه ثلاثة علـــى الأقل من المجندين المتخصصين في التربية الرياضية ، بدلته اللامعة الأنيقـة تظهر القميص الحريرى المشجر الذى فتحت أزراره العليا لتسمح لعينة مـــن شعر الصدر الكثيف بأن يطل علـــى الفتـــاتين اللتيـــن يـــســـطهما ، كانتـــا صغيرتين ، دون الثامنة عشرة ، تجلس على يمينه بيضاء لم يفلح المكيـــاج الزاهى في أن يخفى اصفرار بشرتها ، في حين تجلس على يساره ســـمراء نحاسية طازجة لمسات المكياج على وجهها تنقصه الخبرة ولكنه يفتح الشهية لإعادة النظر ٠ لم يكن الباشا لولا وجود الفتاتين معه ليلفت النظر ، فكثـــير ممن في القاعة في مثل سنه أو يزيد ، ومنهم من هو على البست يترنح وهو يراقص فتيات صغيرات لكن وجود اثنتين معه بدا أمرا خارجا عن المـــألوف إلا أن يكون في انتظار رفيق تكتمل به السهرة ٠

تأمل سامحا وهو ينحنى ليكلم الباشا ، أهو يـــهمس أم يتكلـــم بصـــوت مرتفع ، البنات مشغولات بالطعام غير ملقيات بالا إلى ما يفعله ، هـــو إذن يهمس ، لكن الباشا يتكئ بمقعده إلى الخلف ممسكا بالكأس نصف الفارغـــة ، أهو يبتسم موافقة على التدخل أو رفضا ، وحين يقبل عليه سامح مبتســـما لا

يحس بالاطمئنان ، وحتى حين يبلغه سامح بأن الباشا يريد أن يراه ود لو أنه لم يكن صحبه إلى مدخل القاعة ، إذن لأعطى نفسه مهلة أطول للتفكير ، فسيحاول الباشا شأن أمثاله أن يستعرض مكانته ليحقق مزيدا من التأثير على صغيراته ، لكن ، لا مفر .

-الرائد وائل صالح معالى الباشا .

قالها سامح وهو يرفع يده بالتحية العسكرية ، اضطر وائل أن يرفع يده في اللحظة ذاتها ، لكن التحية بدت له حتى وهو رافع يده نشازا غير مستساغ في جو القاعة غير المناسب ، ومن حسن الحظ أنه لم يكترث بما يفعلانه أحد .

قال الباشا بلطف دون أن يرد على التحية :

-مبروك ، من أين أنت ؟

-من دار السلام معالى الباشا

التفتت إليه البنت السمراء في الوقت الذى انفجر فيه الباشا ضاحكا على غير توقع ، هل قال نكتة ، استدرك سامح مبتسما :

-من العمليات الخاصة معالى الباشا .

تابع الباشا ضاحكا :

-لابد أن تدعونا في الفرح ، أريد أن أرى العروس التى خطفت قلب واحد من رجالنا .

غمغم وائل مؤكدا ، فاستمر الباشا ملاطفا :

-لا تحمل همّ العدد ، أستطيع أن أدبر مقعدا لى .

-نحن على استعداد لنحملك على رءوسنا معالى الباشا .

ظل الباشا يقهقه راضيا وهو يخرج من حافظته بطاقة يكتب على زاويتها اليسرى كلمة ، ثم يمد يده إلى سامح قائلا :

-أعطها لمستر واين هيد .

وصمت لحظة ليضيف وهو ينظر إلى ساعته :

-بعد أن تنتهى لا تنس أن تمر على مكتبك لا حتمال أن يتصل بى أحد .

-تمام معالى الباشا .

وأخذ سامح يقدم كلمات الشكر التى شاركه فيها وائل ، فلم يكف عن ترديدها إلا بعد أن غادرا القاعة ، إذ التفت إلى وائل ليقول وفي صوته مزيج من الدهشة والرضا :

-إنه لطيف جدا على غير العادة .

لكن وائلا لم يهتم بملاحظة سامح وسأل :

-ماذا تتوقع ؟

رد سامح مؤكدا :

-مادام قد وافق على التدخل بهذه الصورة فلابد أن نصل إلى نتيجة ، فالبطاقة موجهة إلى المدير نفسه .

قال وائل في حب استطلاع :

-ماذا كتب فيها ؟

قلبها بين إصبعيه وهو يجيب :

-لا شيئ ، مجرد توقيع .

-والآن ، ماذا ستفعل ؟

-سنذهب إلى المدير طبعا .

-لاداعى لأن أذهب معك ، اذهب أنت وسأنتظرك في الهول .

وذهب وائل إلى الهول فوجد المكان الذى كان يجلس فيه مشغولا ، جلس في مكان قريب منه لكنه أحس بأنه قلق في غير موضعه ، قام وسار خطوات حتى المدخل ثم توقف ، هل كان يتوقع أن يخلو مكانه الأول ، أخذ يسير جيئة وذهابا غير عابئ بنظرات المضيفين والمضيفات ، لكنه وجد نفسه ثانية يتوجه إلى مقعد قريب من المدخل لينتظر ، كان يلوم نفسه حين تمتم ساخطا : "ليتك صحبته بدلا من هذا الانتظار الممل" ، وحاول أن ينشغل بالنظر إلى من حوله ، وفجأة لاحت له العينان السودا وان كأنما تنتظوان .

برقت عيناه بنظرة دهشة وهز رأسه هزة لا تكاد تدرك وشفتاه تتحركان دون صوت ، هل ابتسمت ؟ نظر حولها فلم يجد أحدا ، كيف واتته الجرأة على أن ينهض متجها إليها ليجلس قريبا منها محييا بصوت جاهد كى يجعله طبيعيا ٠

-مساء الخير ٠

-حياك الله ٠

كان صوتها خافتا لا يكاد يسمع ، لكن عينيها تكفلتا بتوصيل التحية ٠

تمتم معتذرا دون أن ينظر تجاهها :

-آسف للإزعاج ٠

لم ترد بغير الصمت ، فأضاف وكأنه يهم بالنهوض :

-إذا كان وجودى يزعجك أستطيع أن أذهب إلى مكان آخر ٠

ردت باقتضاب :

-ما فيه إزعاج ٠

تساءل ، ربما لقطع الوقت الممل :

-أين الأستاذ ؟

-ردت بهدوء :

-في الملهى ٠

-والأولاد ؟

-خرجوا للسهر ٠

همّ أن يسألها : ولم لم تخرجى معهم ؟ لولا أنها بادرته متسائلة :

-تقيم هنا في الفندق ؟

بدا السؤال غريبا فرد بدهشة :

-ولم أقيم في فندق ؟ أنا أقيم في شقتى الخاصة ٠

-قريبة ؟

كان على وشك أن يفتح فمه حين فوجئ بسامح يقول بانبهار حقيقى :

-إنها لمعجزة ، سيقام لك حفل أسطورى لا يقام مثله إلا في المناسبات الخاصة جدا ٠

نهض وائل متسائلا بدهشة :

-كيف ، فهمنى ؟

تابع سامح وكأنه لم يسمعه وهو يسير به في اتجاه المدخل ملوحا بيديه معا :

-هل تتخيل ما أقول ؟ حفل من الفئة (أ) ٠

-أفهم فقط ٠

-أفضل طعام ، ومشروبات كما تحب ، وفرقة فنية ، وراقصات من الدرجة الأولى ، ونجوم غناء ٠

قاطعه وائل بحدة وقد خطر له أنه يهزل :

-لا داعى للتهريج ٠

فطن سامح إلى أن وائلا لم يصدق فأخذ يشرح :

-شف يا باشا ، لقد قرر الفندق أن يقيم الحفل على حسابه دون أن تتكلف مليما واحدا ٠

فتح وائل فمه ليقاطعه لكنه أسكته بإشارة منه واستمر مفسرا :

-لا تتكلم ، القاعة هدية من المدير ، والطعام هدية من الشيف ، والطورطة والمشروبات هدية من المتر ، والفرقة هدية من العلاقات العامة ٠

صاح وائل مذهولا :

-معقول ٠

-ولم لا ، الباشا سره باتع ، لم يبق إلا أن تحدد الموعد ٠

قاطعه وائل وكأنه ما زال غير مصدق :

-لا ، بقى شيئ آخر ٠

تساءل سامح مندهشا :

-ماذا ؟

-أن نذهب إلى الباشا لنشكره ٠

وفي الطريق إلى الباشا في على بابا ظل سامح يتكلم دون انقطاع عن المعجزة التى تحققت بفضل البطاقة الممهورة بالتوقيع ، لكنها ليست أى بطاقة وليس أى توقيع ، إنها بطاقة الباشا وتوقيعه ، وظل وائل صامتا ، لم يكن يسمع بل كان يدير حوارا داخليا مع عروسه ، ومع أمها ، ومع شقيقها ، تمتم لنفسه وهو يعبر المدخل في طريقه إلى حيث يجلس الباشا : "ستكون مفاجأة مثيرة لهم ، "ستكون المفاجأة أكثر إثارة وأنا أقول لهم التفاصيل ، وستكون ليلة العمر حين يرون ما سيحدث في الفندق الذى سيدخلونه لأول مرة" ٠

رفع يده بالتحية العسكرية بصرامة ولسانه لا يكف عن الشكر ، شاركه سامح في التحية والشكر ثم توقف فجأة ليقول :

-تمام معالى الباشا ٠

فتساءل الباشا بلطف :

-ماذا ٠

-لقد ترك الكولونيل مايكل رسالة يقول فيها إن السهرة قد انتقلت إلى مبنى المارينز ٠

-عمل طيب ٠

قالها الباشا وهو ينهض وتنهض معه تلقائيا فتاتاه ونظر إلى وائل ليؤكد من جديد وهو يضحك :

-أظن أنه ليست لك حجة ، تستطيع الآن أن تدعونى بقلب جامد ٠ أريد أن أطمئن بنفسى على ذوق أولادنا ٠

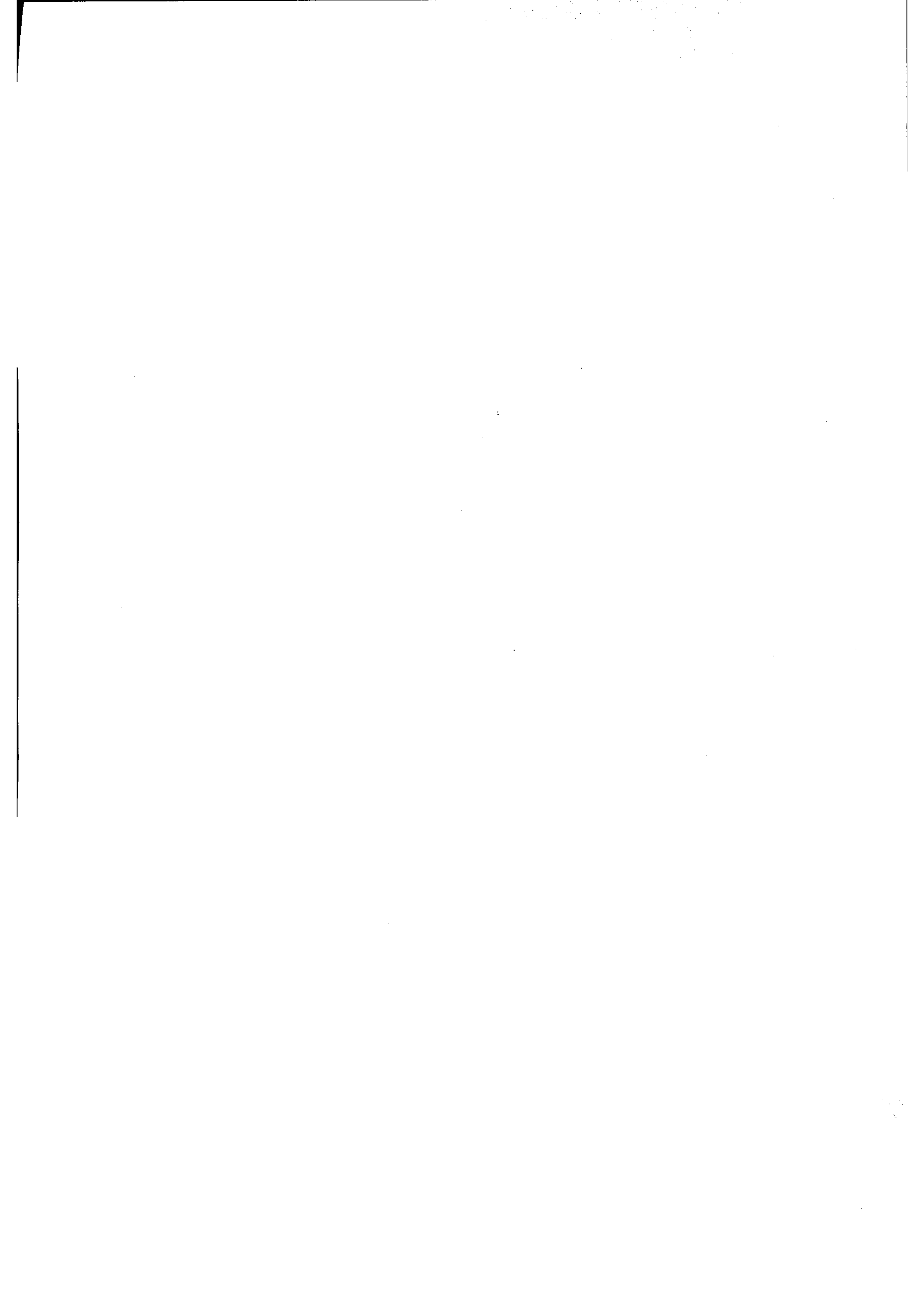
تمتم سامح ببهجة مؤكدا :

-ذوقه طول عمره حلو معالى الباشا ٠

قهقه معاليه وهو يقول :

-سأتحقق بنفسى ٠

* *



ألَق السحر

(١)

-نظيف ومخلص ، إنها معادلة صعبة • تستطيع أن تقول : مستحيلة ، لابد من الاختيار بينهما •

-هل أستطيع أن أسألك عن اختيارك يا سيدى •

-لست في حاجة إلى أن تسأل • فأنا أستعين بكم دائما ، أنت تعرف •

-نحن من منطلق الحرص عليكم نقدم توصياتنا •

-ونحن أيضا من منطلق علاقتنا الاستراتيجية ننفذ هذه التوصيات •

-لهذا نحن معكم يا سيدى •

"من يكون نظيف ومخلص اللذان تتحدثان عنهما"

هل كان ما فاجأ نديم الساقى الخاص الاسم الذى لم يطرق سمعه من قبل أم كان ما أدهشه النغمة التى صحبت طريقة النطق به وكأنما سيادته يهمس لنفسه بسر ، ظل منحنيا برشاقة لم تؤثر فيها حركة الطائرة وهى تجتاز المطب الهوائى فوق المحيط وأكمل صب الجرعة الثالثة في الكأس المصنوع يدويا من الكريستال البوهيمى المحلى برسم بارز للنسر الذهبى دون أن

تظهر عليه الدهشة ، لقد أسعفه هدوؤه الذى منحته الطبيعة ومقدرتـــه التـــى غذتها الدربة فأمكنه أن يتحكم في صوته ونظرته كما يتحكم ببراعـــة فـــي حركته ، وتمتم بنبرة هادئة تخلو من الانفعال وهو يدور نصف دورة ليكـون في مواجهة الكأس الثانية التى يمسك بها رفيق الرحلة المختار :

-تمام يا فندم ٠

لم تفطن العينان العسليتان الغارقتان في التأمل إلى صوته كما لم تفطنـــا إلى حركته ، لكن العينين الزرقاوين المفعمتين باليقظة شملتاه بنظرة ســريعة فاحصة لم يلق لها بالا وهو يصب بعناية بالغة بضع نقاط في الكأس التى لـم تنقص إلا رشفة جد صغيرة ، اعتدل ، وسدّد وهو ينسحب إلى الخلف نظـرة مباشرة إلى مدحت الشماشرجى الواقف بانتباه إلى جوار الرائد شوقى ضـابط الحرس الخاص في موقعه الثابت أمام باب الصالون الرئاسى من الداخــل ، تلقى الرجل الأمر فسار بثبات تجاه الزاوية اليسرى للصالون ودلــف خلـف البارفان الصينى الذى يفضى إلى جناح المشروبات الخاصـــة الواقــع بيـن الصالون وحجرة النوم الملحقة ثم توقف ، تبعه على الفور نديم الذى مد إليـه يده بالزجاجة وما زال فيها قرابة نصفها ، انحنى مدحت وهو يتلقاها قـــائلا بأدب بالغ :

-أوامرك يا فندم ٠

رد الساقى بصوت واضح النبرات :

-سكوتش ، درم ١٤ ٠

وأردف بهمس حذر :

شريف مخلص ٠

لم يبد على الشماشرجى أى رد فعل وهو يمد يده يســـتخرج الزجاجـة المطلوبة وإن ظل يردد الاسم في ذهنه مرات قبل أن يهمس بدوره وهو يقدم الزجاجه إليه :

-تمام يا فندم ٠

تبادلا نظرات مؤكدة وهما يغادران المكان ليأخذ الساقى موقعه في الصالون منتظرا إشارة جديدة ليعيد ملء الكؤوس ، وليقف الشمَاشرجي ثانية إلى جوار ضابط الحرس إلى أن يطمئن إلى أن الزجاجة الجديدة قد حظيت بالقبول • حين تلقى من الساقى نظرة ارتياح التفت وعلى شفتيه شبه ابتسامة صغيرة إلى الرائد شوقى ، كانت ابتسامة واعدة أراد شوقى أن يؤكدها حين مد يده ليفتح له الباب فهمس لمدحت وهو يجتازه :

-لا تنسنى •

اتسعت الابتسامة الواعدة وكان ذلك ردا كافيا منح شوقى إحساسا عميقا بالرضا •

توقف مدحت فور خروجه من الباب الذى أعيد إغلاقه مباشرة وأخذ نفسا عميقا ، أخرج علبة سجائره وهو يحرك رأسه ببطء مقصود يمينا ويسارا في حركة شبة دائرية أراد لها أن تبدو عفوية ، ولكنها أتاحت له في لمحة سريعة أن يتأكد من أن كل شيئ كما يتوقع ، ضباط الحرس الخاص في مواقعهم الثابتة على جانبى الممر الممتد بطول الطائرة ، يمينا إلى مربض اللواء الديب حيث أجهزة المراقبة والمتابعة والاتصالات • ثم كابينة القيادة ، ويسارا إلى قسم الخدمة الخاصة الذى يتولى مسئولية خدمة ضيوف الصالون الرئاسى ، فمكتب قائد الحرس الخاص ، فاستراحة الضباط ، ثم الصالون الخاص الذى يضم كبار المسئولين الذين يتشرفون بالرفقة ، فقسم الضيافة الذى يقوم بالخدمة على الطائرة ، وأخيرا الصالون الملحق الذى يحتشد فيه - كالعادة - كبار الإعلاميين المرافقين • أخرج سيجارة رفعها بهدوء بين شفتيه ولكنه لم يشعلها ، وسار ببطء يمينا في اتجاه مكتب المتابعة، همّ بأن يتوقف حتى إن الضابط المنوط بالباب مد يده إلى مقبضه ليفتحه لو لا أن عاجله بإشارة ألا يفعل ، وتقدم خطوات أخر في اتجاه كابينة القيادة قبل أن يستدير عائدا إلى حيث بدأ • تابع سيره إلى أن اجتاز قسم الخدمة الخاصة واستراحة الحرس الخاص حتى وصل أمام باب الصالون الخاص فتوقف لحظات أشعل فيها سيجارته ، وأخذ منها نفسا عميقا أخذ

يلوكه في فمه كأنما يستمتع بطعمه شأنه حين يشغله أمر ، ثم نظر إلى الضابط الواقف إلى جوار الباب المغلق وهز رأسه هزة خفيفة فامتدت يده إلى مقبض الباب .

خطا خطوة واحدة ثم وقف بالباب المفتوح كأنما يتأمل الحاضرين وسيجارته بين شفتيه ، خفتت تلقائيا أصوات كانت تتداخل فيها حوارات صاخبة وتعليقات هامسة وقفشات لا تخلو من ابتذال ، وأخذت أنظار تتمسح به وقد مسّ بعضها شيئ من خشوع مسّه كالعادة بشيئ من خيلاء ، خطا خطوة أخرى إلى الداخل فشرعوا يعتدلون في جلوسهم ويسوون ملابسهم ، وسارع القريبون منهم إلى الباب فتهيئوا للنهوض ، ارتفعت يده محركا أصابعها بلطف صعودا وهبوطا طالبة عدم القيام وهو يتفرس الوجوه بابتسامة غامضة . هل كان مشغولا إلى الدرجة التى لم ير فيها يد كبير المرافقين معلقة في الهواء وصوته الضفدعى المتميز يرحب به . كيف لم يفطن أيضا إلى جسده الضخم وهو يعانى في محاولة القيام فيجتازه غير ملتفت إلى اليد الممتدة ليأخذ طريقة إلى الصف الخلفى من الصالون شبه الدائرى حيث يجلس عارف السكرتير الخاص :

-أهلا مدحت بك .

قالها السكرتير الخاص وهو ينهض محييا بحرارة وهو يقبض على يده بمودة . هل كانت حركة اليد المعلقة تعبيرا عن رغبة خفية كامنة في أن يكون الأوان قد آن لركل صاحبها من موقعه الذى تحصّن فيه بالخضوع المطلق كأنما نسى في غمرة الرغبة الراقدة في الأعماق أنه كان أحد الذين أثنوا عليه وآزروا ترشيحه ، إنه حين اتخذ هذا الموقف كان موقنا أنه اختيار مؤقت ، وأن أهم خصائص المرشح للمنصب خلوه من الرؤية الخاصة حتى يمكن فعل أى شيئ وكل شيئ دون عناء ، ولكن الضفدع العجوز خدعهم جميعا فكشف عن قدرة هائلة على النقيق الدائم تعبيرا عن الولاء المطلق في كل مناسبة ومن غير مناسبة ، وبكل الوسائل المؤثرة وأهمها تيسيرا لمصالح الخاصة بالأنجال والاصهار . قفز إلى ذهنه في نفس اللحظة خلاصة

تقرير دير شبيجل عن الأموال المنهوبة : "بفضلك أيها الضفدع العجوز صار لدينا ألف ملياردير ، وبقينا نحن في القاع نجاهد كى نتعلق بذيل المائة ألـــف مليونير" •

جلسا متجاورين كتفا لكتف وقد تقاربت رأساهما ، هل كان ذلك بســـبب إدراكها أهمية الجلسة وما ستوحى به للآخرين ، أم أن مدحت أراد أن يرسل من خلال كاميرا المراقبة رسالة عاجلة إلى اللواء الديب بوجود ما يحتاج إلى اتصال •

تساءل السكرتير الخاص هامسا :

-نائم ؟

همس مدحت :

-يشرب •

-الوقت مبكر •

لم تكن نغمة دهشة بقدر ما كانت محاولة للإغراء بإجابة ينتظرها ، ولما لم يسمع ردا أضاف :

-ربما يضايقه شيئ •

-كانت بون باردة جدا •

هل كان السكرتير الخاص يفسر حين عقب :

-مؤكد ، فهؤلاء الناس لا يتركون شيئا للصدفة •

اكتفى مدحت بهزة رأس خفيفة لكنها كانت كافيـــة لإغــراء الســكرتير الخاص بأن يضيف بلهجة تجمع بين السخط والأسى والدهشة :

-ليس من اللائق أبدا نشر موضوع دير شبيجل في نفس اليوم المحــــدد للزيارة•

رد مدحت بنغمة حزينة •

-لا شك أن التوقيت سيئ •

ثم تابع كأنما يخفف من تأثير الموقف :

-هم على كل حال غير مهمين ، فلا تربطه بهم علاقات وثيقة •

تمتم عارف مؤكدا :

-نعم نعم ، المهم ما سيأتى ٠

وجال في نفسه خاطر : "هل لما كان صلة بما سيكون ، دير شبيجل لم تفعل أكثر من نشر مقتطفات تم تسريبها من تقرير سرى لوكالة المخابرات المركزية ، لماذا قام الأمريكان بهذا التسريب ، إنهم هم الذين شجعوهم في البداية بعطاياهم السخية المباشرة وغير المباشرة ، وهم الذين ساعدوهم في فتح حساباتهم السرية في البنوك السويسرية فلماذا إذن يتخذون الآن هذا الموقف ، هل تجاوزوا المدى الذى يسمحون به ، وهل هذا إيذان بتحوّل ما ، "زفر غيظا" ؛ الذين وصلوا قد وصلوا أما أنت" !

لم يغفل في غمرة حديثه وتفكيره أن يلحظ النظرات الحريصة على الاستكشاف الخفى تتوجه إليهما بشكل شبه تلقائى بين لحظة وأخرى ، وكلما ازداد انهماكهما في الحديث امتدت النظرات وطالت ومسها التوجّس ، أدرك أنه لمس وترا حساسا فأخذ يعزف فوقه ببراعة بالهمس المبالغ فيه ، وملامح الوجه التى اكتست بالجد ، وحركة اليد الحادة ، حتى حمل الصفوة الموجودة على أن تعدل عن إخفاء قلقها في الضحكات العصبية والضجيج المبالغ فيه إلى الصمت الناطق باللهفة ٠ ترتعد فيه أعماق خوفا وأصحابها يرون كبيرهم يغرق في صمت الحيرة ، يستشعرون بدورهم خطرا مجهولا وهم يتابعون عينيه في حركتهما الآلية الدائبة بين سقف الطائرة والنظرات الجانبية المتقطعة إلى رجلى القصر المنهمكين في حديث لا ينقطع ، تتجلى أهميته في استغراقهما وملامحهما : "ماذا يمكن أن يكون وراء هذا الحديث ؟" نبت التساؤل في الأعماق وراح ينمو بسرعة حتى ملأ العقول باحتمالات لا حصر لها ، والرجلان بعزلتهما وانقطاعهما يؤكدان أسوأها ، هل أرادا فعلا الاشتراك في الرسالة التى أخذ كبير الحاضرين يفكر في دلالتها متصيدا مؤشراتها ٠ رفع كأسه إلى فمه وهو يغمغم لنفسه في محاولة ليطمئنها : "إنهم يظنون أنهم قادرون على أن يربكوك ، صحيح أنهم حوله في كل

وقت ، وأنهم لا يكفون عن الفحيح في أذنيه ، ولكن برغم كل شـــيئ يظـــل رباط المصالح الخاصة أقوى من كل الكلمات" .

توقف عارف لحظات أشعل خلالها سيجارة جديدة وهو يـــهمس دون أن ينظر إلى الحاضرين :

-أصحابنا يسترقون السمع .

لم يسمعه مدحت الذى شغله تتبع كاميرا المراقبة التليفزيونية وهى تدور دورتها التقليدية على الحاضرين ثم تستمر في تركيزها عليه لدقيقـــة كاملـــة للمرة الثانية ، تأكد من الرسالة فنهض وهو يقول :

-اسمح لى .

ومد يده إلى عارف مبتسما قبل أن يضيف :

-سأستدعيك في وقت قريب ، كن جاهزا .

قبض عارف على يده بقوة وهو يعقب :

-أوامر معاليك .

وظل واقفا يتتبعه ببصره إلى أن غادر الصالون الخاص .

-هذه فرصتنا يا عارف بك .

قالها الكبير بنغمة تجمع بين الألفة والمودة ، ولكنه ما لبث أن أردفـــها مباشرة وقد خشى أن يسادفهمها :

-فرصة لكى تسعدنا بشرب كأس معا .

كيف يتمكن هذا الرجل من أن يكسو وجهه بكل هذا الإشراق برغم كـــل ما يمور في داخله .

-شرف كبير لى يا عابد باشا .

قالها عارف بنبرته الواثقة المترفعة ، وكأنما أراد أن يؤكد رسالة سلفت وأن يرسل أخرى جديدة لكل من يعنيه الأمر من الصفوة : "أيـــها الســـادة ، إننى أخاطبه باسمه لا بوظيفته" .

جلس الرجلان متقابلين من غير أن يمد أى منهما يده إلـــى الآخـــر ، وسرعان ما وضع عارف ساقا على ساق وهو ينفث دخان سيجارته أمامـــه

مباشرة ، هل كان يصدر تلقائيا عن عادة شخصية أم كان ينفذ عامدا الدروس الأولية للعمل في القصر : "لقد صرت واحدا من رجالنا ، وعليك دائمـــا أن تتصرف بشموخ يليق بموقعك" أشار عابد باشا إلى المضيفة القريبـــة التـــى تحمل زجاجة الشراب المثلج الملفوفة في الفوطة الجافة الناصعة البيـــاض ، فأقبلت تسبقها ابتسامتها الساحرة ورائحة البويسون النفاذة تدغدغ الحـــواس ، وتحرك معها في نفس اللحظة المضيف الرقيق الأنيق الغـــارق فـــي عطـــر الأرمانى حاملا صينية الكريستوفل الفضية التـــى رصـــت عليـــها كـــؤوس الكريستال المحلاة بالنسر الذهبى •

انتظر عابد باشا إلى أن عاد المضيفان إلى موقعهما وقال وهو يحدق في عينى عارف مبتسما :

-من أهم الأشياء التى أحبها في هذه الرحلات أنها تمكننى مـــن لقـــاء أحبابى الذين لا تمكننى ظروف العمل في القاهرة من لقائهم كثيرا •

تمتم عارف لنفسه وهو يستمع إلى الكلمات : "قدرتك أيها الرجل علـــى التلون لا حدود لها ، لكنك تكتفى بالنسبة لنا بصياغة الكلمـــات أمـــا غيرنـــا فتصنع لهم القرارات" ، ورد مبتسما :

-إنها نفس مشاعرى •

-أعرف •

ورفع الكأس إلى شفتيه فبللهما بالشـــراب وهـــو يفكـــر فـــي المفتـــاح المناسب ، أضاف ليعطى نفسه فرصة للتفكير :

-كان الله في العون ن فأنتم تحملون عبئا هائلا •

رد عارف باعتزاز :

-هذه طبيعة عملنا يا باشا ، علينا أن نعمل في كل مكان وفي كل لحظة استجابة للتوجيهات للسيطرة على المستجدات المتوقعة وغير المتوقعة •

من جديد رفع عابد باشا عينيه إليه : "إنه لا يكتفى بالتلميح ، لقد تجاوزه إلى ما يشبه التصريح" وعقب :

-هذا يقينى دائما ، وهو ما كنت أقوله منذ قليل لعماد بك •

وأشار إلى رجل المالية الجالس غير بعيد ، الذى كان يصغى باهتمام إلى الحديث من غير أن يشارك فيه ، ترى هل كان قد توصل إلى المفتاح المناسب ، أم كان ما زال في حاجة إلى مزيد من التفكير للوصول إليه ٠

ومضت في نفس عارف الفكرة بسرعة البرق ، لم لا ينتهزها ٠

-هل أفهم من هذا أن بين رجالكم من لا يقدر بما فيه الكفاية جهودنا ٠

-أعوذ بالله ٠

قالها الدكتور عماد بسرعة جمعت بين الصدق والهلع ، وأضاف وهو يتحرك ليقترب :

-بالعكس ، لا يوجد وطنى مخلص ينكر جهودكم الهائلة ٠

اكتفى عارف بابتسامة غامضة شأن من لا يتأثر بالكلمات ، وشاركه عابد باشا الابتسام وهو يقول مخاطبا الدكتور عماد :

-عارف بك مثلى يا دكتور ، لا تكفيه الكلمات ٠

ثارت في نفس الدكتور عماد مخاوف لم يتوقعها ، فردد بصره بينهما وهو يفكر : "هل تتقاربان على حسابى" ثم نظر إلى رئيسه نظرة طويلة كأنما يذكره : "هل نسيت انك صاحب الرأى في تعليق موضوع الباخرة الرابش التى أدخلها باسم زوجته ، بالرغم من أننى قلت لك كل شيئ عن الموضوع"

وتابع عابد باشا :

-ربما كان عارف بك في حاجة إلى بعض الإيضاحات يا دكتور ٠

كان الدكتور عماد قلقا وهو يقول بصوت هادئ :

-أنا جاهز لأى إيضاحات ، دولة الباشا ٠

نظر إليه عابد باشا بإمعان وقال :

-أظن أن عارف بك مثلى يضايقه أن يجد المستثمرون معوقات ٠

رد الدكتور عماد بحسم الواثق :

-تعلمون أننا نبذا كل جهودنا ، دولة الباشا ٠

هل كان عابد باشا قد استقر على المفتاح المناسب حين تساءل :

-لماذا إذن لا تمنح واردات بعض الشركات الإعفاءات الجمركية المطلوبة ما دام قد سمح لها بالعمل بصورة قانونية ؟

رنّ التساؤل في أذنى الدكتور عماد فأدركه خوف مبهم ، إنه رجل اقتصاد لا يدرك هذه الألاعيب التى يجيدها صاحب المقولة المشهورة : "يجب أن يكون كل شيئ بالقانون ، وكل شيئ يمكن بالقانون قبوله ويمكن بالقانون رفضه ، والفيصل في القرار دائما توجيهات القيادة" . "هل لابد أن تقذف بالكرة إلى ملعبه ؟ قال بهدوء :

-أنتم أقدر منى على شرح الجوانب القانونية دولة الباشا .

-لعله يريد أن يسمعها منك .

-نحن تلاميذك يا دولة الباشا .

-دعنى إذن أختبر معلوماتك .

اهتز جسد عابد باشا وهو يضحك بملء فمه ملقيا رأسه إلى الخلف حتى تألق ضرسه الماسى المزروع في الفك الأعلى ، والتزم عارف الصمت وقد أدركه إحساس بأنهما يتداولانه بينهما بصورة عابثة ، قطّب وهو يعقب بنغمة تجمع بين الضيق والغضب ونفاد الصبر :

-لم أكن أعلم أنك أستاذه .

واستدرك ليضيف متظاهرا بالسخرية :

-الآن عرفت السر .

رفع عابد باشا الكأس إلى شفتيه دون أن يقربها ، "إن غضبه الواضح دليل على أنك عرفت المفتاح الصحيح ، لا بأس من المتابعة" ، نظر إلى الدكتور :

-فلنترك العموميات إلى الوقائع ، أعرف أنك كنت منذ فترة تدرس موضوع الشركة السياحية التى استوردت المركب ..

وتوقف متظاهرا بالتفكير ، سارع عارف :

-لايهم اسم المركب ولا اسم الشركة يا باشا ، نحن نتكلم بصفة عامة .

تابع عابد باشا بلطف وكأنه استجاب لطلب عارف :

-لا بأس ، إنها في النهاية نموذج لكيفية عمل الوزارة •

وخزت العبارة الدكتور عماد فقال بأناة :

-تعلمون دولة الباشا أننا بذلنا كل جـــهودنا ، ولكــن المشــكلات فـــي جوهرها قانونية •

ابتسم عابد باشا مشجعا وهو يتساءل بخبث :

-كيف ؟

من جديد حدق الدكتور عماد في رئيسه : "إنك تعرف كل شـــيئ فلــم تدفعنى لأكون أنا المتحدث ؟ وجد نفسه مضطرا فراح يشرح بإفاضة كيــف أنه يسمح للمركب أن تعمل منذ ثلاث سنوات بين القاهرة والأقصر برخصــة مؤقتة ، لكنه لا يستطيع أن يعطيها رخصة نهائية لأن ذلك يقتضى إفراجـــا جمركيا نهائيا ، وهذا يحتاج إلى تسوية أوضاعـــها جمركيـــا ، وصاحبتـــها ترفض دفع مليم واحد للجمارك بالرغم من تطبيق كل الإعفاءات الممكنة •

وصمت الرجال الثلاثة لحظات ظن خلالها الدكتور عماد أن كلامه كان مقنعا تماما ، هل كان يتوقع أن يرضى عارف حين أضاف :

-من ناحيتى أعد بتجديد الإفراج الجمركى المؤقـــت مـــا دمـــت فـــي موقعى •

تمتم عارف لنفسه : "هكذا إذن قررتم ألا تعطونـــا الإفـــراج النـــهائى" وتساءل بهدوء :

-ولنفرض أن الشركة أرادت أن تبيع المركب ، ما الموقف ؟

جال في ذهن عماد : "اكشفوا عن جشعكم ، تأتون بالرابش الـــذى تــم تكهينه في روتردام لتبيعوه في مصر وتستكثرون دفع ملاليم مـــن المبـــالغ الهائلة التى يتم نزحها سنويا تحت اسم الأرباح" •

هل أراد عابد باشا تلطيف الجو حين بادر إلى التدخل :

-هذا حقها طبعا •

وهل استجاب الدكتور عماد حين قال :

-مؤكد • لكن في هذه الحالة على المشترى دفع الرسوم الجمركية •

-فإن لم يدفع •

-يتم مصادرتها أو بيعها في الخارج •

قالها الدكتور عماد بهدوء ، وسكت لحظة قبل أن يضيف :

-ألم أقل إن المشكلة في جوهرها قانونية •

رفع عارف كأسه إلى شفتيه محاولا إخفاء غضب تفجر فيه ، فمن في الخارج يشترى مقبرة عائمة تم تكهينها من سنوات ، وهل تستطيع أصلا أن تغادر المياه الإقليمية • انسحب الدكتور عماد وقد ظن أنه قال ما عنده ، وعاد عارف من جديد يحدق في عابد باشا : "لو أننى كنت واحدا من الأنجال أو الأصهار أكنت تجرؤ على مجرد التفكير في موقف قذر كهذا الموقف الذى تضعنى فيه" ، تجاهل عابد باشا النظرات وأشار بإصبعه للمضيفة فأقبلت تعيد ملء الكؤوس ، ولكنه لم يرفع الكأس إلى فمه وقال هامسا كمن يعتذر :

-كما ترى ، هذه هى مقدرة رجل الاقتصاد •

هل كان عارف يعترض عليه حين قال :

-إنها النصوص التى تقيده ، النصوص القانونية كما يقول •

وكأنما أراد أن يستفزه حين أضاف :

-المشكلة في القانون •

أشاح عابد باشا بيده وهو يرد :

-لا مشكلة في القانون إلا إذا كان القانونى محدودة القدرة •

-لماذا ؟

-لأنه يلتزم دائما بظاهر النص •

-وإذا لم يكن محدود القدرة ؟

أشرق وجه عابد باشا وهو يقول بثقة من يلقى درسا لتلميذ صغير في مرحلة دراسته الجامعية الأولى :

-ليس لدى القانونى المتمكن مشكلة ، لأنه ينظر دائما إلى جانبين : ظاهر النص من ناحية ، والغاية التى استهدفها المشرع من ناحية أخرى ،

وفي الحالات التى يكون النص فيها مقيدا بوسعه التوسع في تفسيره لتحقيق الأهداف المتوخاة منه •

–حتى وإن خالف النص ؟

رد عابد باشا :

–دعنى أصحح العبارة ، حتى وإن خالف ظاهر النص •

وسكت برهة ريثما يبلل شفتيه من كأسه وأضاف :

–لذلك يحرص المشرع دائما في إصدار القوانين على أن يضمنها نصا يمكن به فتح باب الاستثناء •

هل تسرع عارف حين تساءل مستغربا :

–ما دام الأمر كذلك فلماذا إذن ؟

ثم صمت فجأة ، ابتسم عابد باشا بثقة من أيقن أنه بسبيله إلى أن يضعه بين أصابعه ، ورد بأناة :

–لأن الحالة التى معنا تجاوزت حتى التوسع في التفسير •

–لست أفهم •

–إنها تتطلب قانونيا أكثر من متمكن ، قانونيا عبقريا يصوغها في شكل تعديل قانونى يسعها وحدها دون غيرها من الحالات المماثلة •

–حقيقة لست أفهم •

قالها عارف بنبرة مزجت الدهشة والاعتراض والحيرة والغضب ، لكن عابد باشا استمر كأنه لم يسمع عبارته :

–سأستدعى لك المستشار القانونى للمجلس ليشرح لك الإجراءات اللازمة للتعديل •

والتفت إلى الخلف وهو ينادى :

–دكتور حافظ •

نهض من بين الجالسين رجل ربعة ، أقرب إلى القصر ، خطا بخفة فهد برغم امتلائه تسبقه رائحة عطر الأربيج الفواح ، كان يختال وهو وسط هذه الصفوة بأناقته المفرطة • البدلة الفرنسية من كريستيان ديور ، والقميص

الحريرى من باكورا بان ، ورباط العنق المشجر من لا فوازيـــه ، تنسجم خطوطها وألوانها معا بصورة تدعو إلى الدهشة ، تمتم عابد باشا لنفسه وهو يرقبه يتقدم تجاهه : "لشد ما تغيرت ، هل في وسع أحد أن يتصور أن هـــذا الأنيق اللامع هو نفسه الطالب البائس صاحب القميـــص البفتـة والجاكتـة المقلوبة الذى ظل يقتات من كتابة التقارير عن زملائـــه وأســاتذته طـوال دراسته الجامعية" .

-أفندم دولة الباشا .

قالها الدكتور حافظ بصوت شديد الخفوت وإن كان واضح النبرات وهو يشع بابتسامة آسرة منحنيا انحناءة بالغة الجاذبية ، نظر عابد باشا إلى عارف قائلا وهو يبتسم :

-أظنك تعرفه ، إنه الدكتور حافظ حافظ المستشار القانونى للمجلس .

والتفت إلى الدكتور مشيرا إلى المقعد المجاور له :

-تفضل يا دكتور حافظ .

جلس الدكتور على حافة المقعد مشـــدود الظـــهر ، متوفـز الحـواس والمشاعر ، كأنما لم يمض أكثر من ثلاثين عاما على ذلك اللقاء الذى كشـف فيه أن أستاذه في كلية الحقوق هو المسئول عن متابعة ما يكتب من تقـــارير عن اتجاهات الرأى العام ونشاط القوى المضادة .

تابع عابد باشا وهو يحدق في عينيه :

-لعلك تذكر أننا كنا نتحدث منذ أيام عن ضرورة تعديل بعض قوانيـــن الاستثمار .

-نعم دولة الرئيس .

ظل الباشا يحدق في عينيه وهو يضيف :

-أريدك أن تشرح لعارف بك الإجراءات اللازمة لهذا التعديل .

قالت عيناه : "ماذا تريد بالضبط" ولسانه يردد :

-بصفة عامة دولة الرئيس ؟

أجاب عابد باشا بهدوء كأنما يؤكد :

وفي الحالات التى يكون النص فيها مقيدا بوسعه التوسع في تفسيره لتحقيق الأهداف المتوخاة منه ٠

-حتى وإن خالف النص ؟

رد عابد باشا :

-دعنى أصحح العبارة ، حتى وإن خالف ظاهر النص ٠

وسكت برهة ريثما يبلل شفتيه من كأسه وأضاف :

-لذلك يحرص المشرع دائما في إصدار القوانين على أن يضمنها نصا يمكن به فتح باب الاستثناء ٠

هل تسرع عارف حين تساءل مستغربا :

-ما دام الأمر كذلك فلماذا إذن ؟

ثم صمت فجأة ، ابتسم عابد باشا بثقة من أيقن أنه بسبيله إلى أن يضعه بين أصابعه ، ورد بأناة :

-لأن الحالة التى معنا تجاوزت حتى التوسع في التفسير ٠

-لست أفهم ٠

-إنها تتطلب قانونيا أكثر من متمكن ، قانونيا عبقريا يصوغها في شكل تعديل قانونى يسعها وحدها دون غيرها من الحالات المماثلة ٠

-حقيقة لست أفهم ٠

قالها عارف بنبرة مزجت الدهشة والاعتراض والحيرة والغضب ، لكن عابد باشا استمر كأنه لم يسمع عبارته :

-سأستدعى لك المستشار القانونى للمجلس ليشرح لك الإجراءات اللازمة للتعديل ٠

والتفت إلى الخلف وهو ينادى :

-دكتور حافظ ٠

نهض من بين الجالسين رجل ربعة ، أقرب إلى القصر ، خطا بخفة فهد برغم امتلائه تسبقه رائحة عطر الأربيج الفواح ، كان يختال وهو وسط هذه الصفوة بأناقته المفرطة ٠ البدلة الفرنسية من كريستيان ديور ، والقميص

الحريرى من باكورا بان ، ورباط العنق المشجر من لا فوازيــه ، تنسـجم خطوطها وألوانها معا بصورة تدعو إلى الدهشة ، تمتم عابد باشا لنفسه وهو يرقبه يتقدم تجاهه : "لشد ما تغيرت ، هل في وسع أحد أن يتصور أن هـذا الأنيق اللامع هو نفسه الطالب البائس صاحب القميـص البفتـة والجاكتـة المقلوبة الذى ظل يقتات من كتابة التقارير عن زملائـه وأسـاتذته طـوال دراسته الجامعية" .

-أفندم دولة الباشا .

قالها الدكتور حافظ بصوت شديد الخفوت وإن كان واضح النبرات وهو يشع بابتسامة آسرة منحنيا انحناءة بالغة الجاذبية ، نظر عابد باشا إلى عارف قائلا وهو يبتسم :

-أظنك تعرفه ، إنه الدكتور حافظ حافظ المستشار القانونى للمجلس .

والتفت إلى الدكتور مشيرا إلى المقعد المجاور له :

-تفضل يا دكتور حافظ .

جلس الدكتور على حافة المقعد مشـدود الظـهر ، متوفـز الحـواس والمشاعر ، كأنما لم يمض أكثر من ثلاثين عاما على ذلك اللقاء الذى كشـف فيه أن أستاذه في كلية الحقوق هو المسئول عن متابعة ما يكتب من تقـارير عن اتجاهات الرأى العام ونشاط القوى المضادة .

تابع عابد باشا وهو يحدق في عينيه :

-لعلك تذكر أننا كنا نتحدث منذ أيام عن ضرورة تعديل بعض قوانيـن الاستثمار .

-نعم دولة الرئيس .

ظل الباشا يحدق في عينيه وهو يضيف :

-أريدك أن تشرح لعارف بك الإجراءات اللازمة لهذا التعديل .

قالت عيناه : "ماذا تريد بالضبط" ولسانه يردد :

-بصفة عامة دولة الرئيس ؟

أجاب عابد باشا بهدوء كأنما يؤكد :

-بصفة عامة يا دكتور .

حل الصمت لحظات ، كان يتحسس خلالها الطريق إلى المطلوب قبل أن يقول بتردد موجها خطابه إلى عارف :

-تعلمون معاليكم أن هناك طرقا متعددة يلجأ إليها لتعديل القوانين .

قاطعه عابد باشا مستدركا :

-سأساعدك في البداية يا دكتور .

والتفت إلى عارف ليقول :

-إن من الثابت أن استقرار النظام القانونى يقتضى ألا يتم تعديل قانون إلا بقانون ، وجهة التشريع الأساسية عندنا هى مجلس الشعب .

وسكت برهة التفت بعدها إلى الدكتور حافظ ليشير بيده مبتسما :

-تستطيع أن تتابع .

أضاءت الابتسامة ظلمات الطرق المتشابكة ، فرد عليها بابتسامة من تحقق من الهدف وعرف الطريق ، وبدأ يتكلم بثقة الأستاذ :

-تعلمون أن قصور القوانين مسألة واردة بالرغم من حرص المشروع ، لأنه قد يجدّ في التطبيق ما يكشف عن بعض الثغرات ، وفي هذه الحالة يجب القيام بدراسات دقيقة عن صور القصور في القانون وأساليب معالجتها ، وقد يكون من بين هذه الأساليب اقتراحات بتعديله ، لكن هذه الاقتراحات لابد أن تبنى على رؤية كاملة حتى تكون قادرة على تلافى كل صور القصور الواقعة والمتوقعة .

أدرك عارف الملل من المقدمة الطويلة التى بدت له خارج الموضوع فقاطعه:

-لا داعى لهذه المقدمات الطويلة يا دكتور .

تدارك الدكتور نفسه وقد أنذرته العبارة بنفاذ صبر فرد وهو يجاهد حتى لا يظهر الضيق :

-أحببت أن أشرح الدوافع التى ..

قاطعه عابد باشا :

-يفترض أن الدوافع إلى التعديل ملحة ، وأن التعديل متفق عليه ، ما هى أسرع الإجراءات التى يمكن اتباعها ·

عاد الدكتور حافظ إلى النظر إلى عابد باشا كأنما يستوضحه ، فسارع الباشا :

-يريد أن يعرف بوضوح مراحل إصدار التعديل القانونى ابتداء من اللجان في مجلس الوزراء وانتهاء بإصدار القانون في مجلس الشعب ·

تمتم الدكتور حافظ لنفسه : "هكذا اتضحت الصورة تماما ، إنك لا تريد له أن يعرف الطريق الآخر" وقال بتؤدة :

-تبدأ المراحل بصياغة المشروع في الإدارة القانونية قبل عرضه على مفوض الدولة ، ومنه يحال إلى اللجنة الوزارية المختصة ، ثم إلى مجلس الوزراء ، وقد يعاد مرة أخرى إلى مفوض الدولة أو إلى لجنة خاصة في مجلس الدولة لمراجعة ما أبدى من ملحوظات وصياغتها صياغة قانونية ، ليعود مرة أخرى إلى اللجنة الوزارية ، فالمجلس ، وفي النهاية يحال إلى مجلس الشعب ·

-وفي مجلس الشعب ؟

-في مجلس الشعب يحال إلى اللجان المختصة قبل عرضه على اللجنة القانونية ، ثم اللجنة العامة ، وبعد الموافقة عليه في هذه اللجان يحال إلى المجلس لمناقشته من حيث المبدأ ، ثم لمناقشته بندا بندا وفقرة فقرة قبل إقراره ·

عقب عارف وهو يزفر بغيظ :

-واضح أن المسألة تحتاج إلى وقت طويل جدا ·

رد الدكتور بحذر وهو ينظر إلى الباشا ·

-في الحقيقة الوقت رهن بالظروف ، فمن الممكن ألا يستغرق الأمر إلا أياما يتم فيها كل شيئ ، ومن الممكن أن يكون مستحيلا فلا يعرض المشروع في لجنة حتى يتعثر ليعود من حيث بدأ ، فإذا أجيز فيها تعثر في التى تليها ، وهكذا ، حتى في مجلس الشعب من الممكن ألا يأخذ عرضه إلاريثما

يتناول الإنسان فنجان قهوة ، ومن الممكن أن تستغرق مناقشته في اللجان ثم في المجلس دورة كاملة ليؤجل إلى دورة تالية ، وبين الدورتين يمكن أن يركن على الرف إلى أن يحل المجلس فتسقط كل مشروعات القوانين المقدمة إليه ٠

-هذا أسوأ ما سمعت ٠

قطب الدكتور حين سمع العبارة التى لم يدرك صاحبها وقعها ، همّ أن يعقب لكن الباشا سارع مبتسما :

-اطمئن يا عارف بك ٠ لن يستغرق التعديل المطلوب كل هذا الوقت ، فأنا أبذل كل جهدى لإنجازه ٠

تعجب الدكتور عماد وراوده خاطر : "لم إذن لا تدله على الطريق الآخر" ؟ ورفع عينيه إلى عابد باشا الذى أشار إليه بالانصراف وهو يقول :

-شكرا يا دكتور ٠

والتفت الباشا مرة أخرى إلى عارف وتابع :

-المسألة كما قلت لك تحتاج إلى بعض الوقت لكن النتيجة محققة ٠

وصمت ريثما يتبين وقع كلماته ولما لم يجد لها صدى أضاف :

-إن توفير بضعة ملايين يستحق إمهالى بعض الوقت لإتمام الإجراء القانونى المناسب ٠

سمعه عارف وقد استغرقته الحيرة ، لقد بدا له في لحظات أن الحل على أطراف أصابعه ، ولكن المناقشة أوضحت له أن المسألة أعقد مما يتصور ، وأنها تحتاج إلى جهود لم تكن في الحسبان ، غمغم لنفسه في غيظ : "كيف تيسرون لهم التهام المليارات إذا كانت الملايين بهذه الصعوبة ، هل هناك طرق أخرى أيها الضفدع العجوز" ٠

هل كان صمته مغريا لعابد باشا لأن يضيف وقد أيقن أن اللحظة مواتية :

-بالمناسبة ، خطر لى خاطر ، لم لا تفكر الشركة في استيراد باخرة أخرى حتى تستفيد من الإجراءات التى سيتم اتخاذها ٠

تابع عارف صمته فتابع الباشا :

-ما رأيك في الاقتراح ؟

تمتم عارف كمن يحدث نفسه :

-اقتراح جيد ، لولا .

لم يسمح الباشا بأن يكمل ومد يده ليمسك بيده ، وهو يقول :

-وعد منى .

نهض عارف دون أن يعقب ويده ما زالت في يده ، فأضاف الباشا مؤكدا :

-يجب أن تكون على يقين من أننى ما دمت في موقعى فسأظل في خدمة الرجال المخلصين وأنت بالتأكيد على رأسهم .

وابتسم الباشا في رضا وهو يرقبه يأخذ طريقه مغادرا الصالون .

"اذهب إلى حيث شئت ، وقابل من تريد فإنك تمضى الآن بنفس غير التى أقبلت بها ، لقد خطمك طمعك ، وسواء رضيت أم لم ترض فستصبح في جبهتى" .

ما كاد عارف يخرج حتى أسرع الدكتور شاكر إلى الانتقال إلى جوار الباشا ومال عليه ليقول بمودة :

-كانت مناقشة طويلة دولة الرئيس .

اكتفى الباشا بهزة رأس خفيفة فاستمر شاكر :

-أرجو ألا تكون مجهدة .

علت وجه الباشا ابتسامة المتألقة وهو يقول بمرح :

يا ما دقت على الرأس طبول .

عقب الدكتور شاكر بثقة :

-بالتأكيد ، بالتأكيد .

فلم يكن تخالجه ذرة شك في أن أى حوار مع الباشا لابد أن ينتهى لما يرضيه ، فإنه الوحيد من بين الحاضرين الذى يعرف قدراته الخارقة ، ألم يرافقه في رحلة كفاحهما المشترك منذ كانا يافعين تبح أصواتها في مدرسة

التوفيقية هتافا بالاتحاد والنظام والعمل قبل أن ينتقلا إلـــى مرحلـــة الوعـــى الثورى حيث توحدت تطلعاتهما مع إرادة الشعب في الاستجابة لهتاف القـــائد التاريخى بالحرية والاشتراكية والوحدة ، وعلا صراخهما فـــي كـــل مكـــان بضرورة التطبيق العربى للاشتراكية عملا على تحقيق وحدة القوى المعاديـــة للامبريالية ، إلى أن انتهيا أخيرا إلى مرحلة الإيمان المطلق ببطـــل الســـلام رائد الديمقراطية الحقيقية ، ديمقراطية الجرعات التى لا ديمقراطية قبلها ولا ديمقراطية بعدها •

مال الباشا على مدير مكتبه ورفيق رحلة كفاحه وهمس :

-نحن في حاجة إلى مؤشر •

تمتم الدكتور شاكر :

-ليس لدينا أى معلومات دولة الرئيس •

-والخارجية •

-تعلمون أنهم يتصلون بالقصر مباشرة •

هل كان عابد باشا يفكر بصوت عال حين تساءل :

-أليس بين الإعلاميين المرافقين من يمكن أن يفيد •

وهل كان الامتعاض الذى ظهر على وجه الدكتور شاكر في حاجة إلـــى أن يقول :

-لا أظن ، فهم كما تصفهم دائما يا دولة الرئيس مجموعة الطبالين •

أكان الباشا ما زال مستغرقا في تفكيره أم كان يصـــدر توجيـــها حيـــن عقب :

وما المانع ، الطبول أيضا لها أسرارها •

* *

(٢)

-من ؟

توقف اللواء خليل الديب عن متابعة ضابط الاتصال الذى يتولى جهاز الاتصال الشفرى بالقيادة العامة وتساءل بلهجة عادية لا تعكس ما أحس به من مشاعر متباينة اختلط فيها الدهشة والقلق والتعجب والغضب ، فلم يكن في مقدروه أن يقبل تداول اسم ما بين سيادته والدكتور ميكر دون أن يكون على الأقل على علم سابق به • أليس هذا هو الأساس الذى تم الاتفاق عليه منذ حل كل منهما في موقعه الرسمى تيسيرا لتحقيق التفاهم الكامل ، ولكن ها هو ذا الضابط العريق والديبلوماسى القدير الذى يشغل الوظيفة الرفيعة في الجامعة الأمريكية يخل بالاتفاق فيتجاوزه ، هل يعنى ذلك أنه لم يعد محور ثقة القيادة أو أنه فقد ثقة المخابرات المركزية فقررا استئناف اتصالاتهما المباشرة • همس مدحت مرة أخرى :

-نظيف مخلص معالى الباشا •

"اسم مجرد من كل دلالة ، لكن هل كان اسم رفعت عابد من قبل ذا دلالة ؟ ألم يكن مجرد اسم من ملايين الأسماء النكرات طفا فجأة فوق السطح لأسباب شاركت أنت في صنعها وإن ظل صاحبها حتى اللحظة يجهلها ،

حتى أنه حين استدعى لتكليفه بالتشكيل ودع أهله وفي يقينه أنه ذاهب إلى المعتقل ، هل جاء وقت يطفو فيه اسم جديد لا تشارك أنت في صنعه" .
أحس بغصة حتى أنه لم يستطع أن يبتلع ريقه لكن الأحداث عودته أن تظل المشاعر حبيسة العالم الداخلى لا تتسلل قط إلى السطح . التفت إلى مدحت وقال بهدوء وحزم :

-الزم موقعك .

-تمام معالى الباشا .

وراح من جديد يتابع الآلات وهى توالى اتصالاتها الشفرية بالأجهزة الأمنية المختلفة بالقاهرة : المخابرات العامة ، المخابرات العسكرية ، الأمن القومى ، أمن الدولة ، المباحث العامة ، قيادة المنطقة المركزية ، قيادة القوات الجوية ، قيادة القوات الخاصة ، كان الضباط يتابعون عملهم باهتمام غير محدود ، وقد أحس كل منهم أنه يؤدى مهمة على أعلى درجة من السرية والخطورة ، تسلل إليه خاطر فابتسم بمرارة : "هل في إمكان أى واحد منهم أن يتصور أن ما يفعله عبث ، فما فائدة الشفرة إذا كانت الاتصالات تتم عبر قمر عسكرى أمريكى ؛ إنهم يحصلون على صورة كاملة من جميع الاتصالات في نفس اللحظة التى تتم فيها ، بل أكثر من ذلك إنهم قادرون على التدخل في الاتصالات كما يريدون" اشتدت المرارة عمقا فانفرجت الشفتان وأخذ اللسان الجاف يمسحهما ولكنه قطعة خشب يابسة : "هل وصلوا إلى المرحلة التى لم يعودوا فيها في حاجة إلى الوقوف على اتصالاتكم لمعرفة معلوماتكم ووصلوا إلى المرحلة التى يصنعون فيها المعلومات ويتخذون القرارات ، هل هى النهاية التى كنت منذ اللحظة الأولى في خطواتك الصاعدة تتوقعها ، أليست مبكرة جدا عما كنت تقدر" .

ترك موقعه خلف الحاجز الشفاف الذى يفصله عن ضباط الاتصال وأخذ يتجول بينهم واحدا بعد الآخر قبل أن يعود مرة أخرى إلى موقعه ليلقى نظرة على الشاشة الصغيرة التى تنتقل إليه صورة الجالسين باسترخاء في الصالون الرئاسى :

"هل كنت قصير النظر حين تصديت لفكـرة إطـلاق قمـر عسـكرى للاتصالات مفضلا عليها البديل المقترح ، الاستعانة بقمر أمريكـى" • مـن جديد تفجرت في الأعماق ينابيع ثرة من الأحداث والذكريات ، أخرج علبـة سجائرة وأشعل سيجارة تناول منها نفسا عميقا ابتلعه وأتبعه بـآخر وعينـاه معلقتان تحدقان في لحظة واحدة فيما كان ويكون : "أبدا لم تكن قصير النظر وإنما كنت تدرك الحقائق كاملة وتعرف اتجاه الريح ، فأى سـرية تلـك إذا كانت الاتصالات تتم على أعلى المستويات ، أيها السـادة ، أى فـائدة فـي إطلاق قمر خاص وأنتم مضطرون إلى الاستعانة بخبراء مهما دفعتـم لـهم فسيكونون على استعداد لبيع معلوماتهم ، تقولون سنكون مكشوفين ، نعـم ، ولكننا مكشوفون على أى حال ، لكننا الآن على الأقل نعرف أنهم يعرفـون ، وهم يعرفون أننا نعرف أنهم يعرفون" أشعل سيجارة أخرى ومن جديد أخـذ يبتلع أنفاسها : "لقد كانوا حمقى ، ضحايا عهد الشعارات الجوفاء" •

"أيها السادة ، مهما كانت النتـائج فالنضـال الحقيقـى الآن لا يكـون بالمواجهة • والتحدى الحقيقى في قدرتنا على إثبات الذات في ظل ظـروف غير مواتية ، الهدف الممكن فيها التعاون لا التصـدى والمشـاركة وليـس التناطح • بالقطع ما كان لهم أن يدركوا ما أدركت من عهد مبكـر ، فلـم يمروا بتجربتك الهائلة حين كنت فتى يافعا تخرج حديثا من الحربية تملـؤه وهج الأحلام العظام في مواجهة التحالف الشيطانى بين الاستعمار والرجعيـة ليفاجأ بجثث الزملاء دون رءوس فوق جبال صعدة وحرض ، لأن الـرءوس يقطعها الإخوة العرب ليسلموها للإخوة العرب في مقابل الدنانير العثمانيـة وجنيهات الملك جورج والملكة فكتوريا" •

-تمام معالى الباشا •

أخرجه من استغراقه صوت الضابط الذى يجرى الاتصال بأمن الدولـة يمد إليه يده بالبرقية الشفرية التى تم حل رموزها ، تناول منه البرقيـة دون أن يتكلم مشيرا إليه بهزة رأس خفيفة ليعود إلى موقعه • ظلت البرقية فـي يده لحظات قبل أن ينظر إليها وهى على مبعدة من عينيه ، ولمـا راحـت

حروفها تتداخل وتتميع أخرج نظارته من الجيب الداخلى للجاكتة وأمسكها بيسراه ليضعها قريبا من عينيه دون أن تحتل مكانها الطبيعى على وجه وشرع يقرأ :

-تظاهر عمال مصنع النسيج في حلوان الساعة الثانية عشرة ظهرا يطالبون بالحوافز المتأخرة منذ ستة أشهر ، تنادى الهتافات بسقوط مجلس الإدارة ، لا ترفع المظاهرة شعارات سياسية ، لم يتصد قادة النقابة الفرعية ومنهم من يشارك في المظاهرة ، جار الاتصال بقادة النقابة العامة للتدخل ، الموقف تحت السيطرة تماما ، توجيهاتكم" •

كأنما مسته البرقية بعصا سحرية ، أخرجته من تأمله الأسيان إلى موقف يتفجر بالانفعال والدهشة : "هل ما زال في البلد من لديه القدرة على أن يتحرك" كاد الغيظ أن يحمله على أن يكتب على البرقية ردا مباشرا ، ولكنه تدارك أمره في اللحظة التى أمسك فيها بقلمة الأخضر وهو يقول لنفسه : "ليس هذا هو الوقت المناسب لكى تتخذ وحدك القرار ، عليه أن يتخذ قراره بنفسه" • ومضى تجاه الصالون الرئاسى ، لم يفاجئه وجود الدكتور ميكر وإنما فاجأة أنه يجلس وحده يدون بعض الملحوظات في مفكرة صغيرة ، توقف لحظة تمتم فيها معتذرا :

-آسف يا دكتور ، كنت أريد أن

كأنما أراد الدكتور أن يتخلص منه حتى يتم تسجيل ما يريد حين قاطعه مشيرا إلى حجرة النوم الملحقة :

-إنه يستريح •

ولكن اللواء لم يجد حرجا في أن يسير إلى الغرفة دون تردد ، وبعد دقائق خرج فتلقاه الدكتور بابتسامة وهو يقول مداعبا :

-هل أنت مشغول يا جنرال •

ترى هل كان الموقف خطيرا إلى الدرجة التى لا تحتمل المداعبة ، أم أن اللواء أحب أن يرد على التحية السابقة بتحية مثلها فقال وهو يمضى دون أن يتوقف :

-دقائق قليلة يا دكتور يمكنك بعدها أن تلحق بى إذا أردت •

في ثوان كان في موقعه يشير بالبرقية إلى ضابط الاتصال الذى أسرع إليه ، قال اللواء بلهجة صارمة وهو يسلمه الورقة :

-أرسلها فورا وتابع معهم لحظة بلحظة •

تأمل الضابط الورقة حتى يستطيع أن يقرأها بوضوح ، ثم وضع إصبعه على عبارة منها متسائلا :

-هذه تصفية عسكرية معالى الباشا •

أجاب اللواء :

-كلا ، تصفية مشطوب عليها ، الكلمة الصحيحة محاكمة •

بعد لحظة تساءل ثانية :

-وهذه تقييم كامل •

رد اللواء بحدة •

-يا بنى ألم تعرف خطه بعد ؟! هذه تعتيم كامل • اخلص وأرسل الرائد شوكت •

وفي لحظات كان أمامه الرائد شوكت الضابط المسئول عن الاتصال بقيادة القوات الخاصة فقال له اللواء بأناة وهو يضغط على الحروف :

-بلغ القيادة بإعلان حالة الطوارئ القصوى وانتظار التعليمات •

-تمام يا فندم •

وظل يتابع من موقعه خلف الحاجز الشفاف ضباط الاتصال وقد انهمكوا في أعمالهم وكأنما أصبحوا جزءا من آلاتهم • اطمأن على مسار العمل فأخذ يفكر :

"من الذى استطاع أن يحركهم ضد النظام ؟ الفقراء لا يتحركون أبدا من تلقاء أنفسهم مهما تعرضوا من عنف وعسف بل يظلون يتحملون صابرين ، قد يفضفضون أحيانا بعبارات سخط لا تتجاوز حلوقهم أو سخرية تهدهد آلامهم لكنها أبدا لا تحملهم على الحركة ، إنهم يحملون أنفسهم طواعية

وتلقائيا على تقبل الواقع مهما اشتدت مرارته والتكيف معه ، وكلما ازداد سوءا ازدادوا معه صبرا وله تحملا • فمن الذى استطاع أن يحركهم اليوم؟"
ترك موقعه وجال بين ضباطه جولة اطمأن خلالها على سير العمل بالدقة المعهودة عنه ثم عاد إلى موقعه وما زال التفكير يلح عليه :

"مستحيل أن يكونوا من السياسيين القدماء ، إنهم مجرد أشباح ليس لها وجود حقيقى ، أشباح تعيش في قصور من أوهام قاصرة عن إدراك الواقع ، وهم مؤمنون في أعماقهم بأنه لا سبيل إلى إعادة ما كان ، وشعاراتهم مجرد أقراص مهدئة أدمنوها لتساعدهم على الاستغراق في أوهام الأحلام إلى أن يواريهم التراب • ومستحيل أن يكونوا من السياسيين المحدثين ، أولئك الذين صنعهم النظام بإرادته ، فهم مجرد فقاقيع ليس لها جذور حتى ولا في الهواء فالنظام هو الذى يمدها بمقومات وجودها ، بإرادته وحدها تحيا وبإرادته وحدها تموت •

أهم أتباع الزعيم الراحل ؟ كيف ؟ لقد كان ذلك متصورا في مرحلة اندثرت ، حين كانت هنالك بقايا من المخدوعين بالشعارات الجوفاء ، الآن بعد أن تمت أكبر عملية لغسل مخ الشعب واستطاعت تحويل اتجاهاته مائة وثمانين درجة لم يعدلهم وجود • هل يعقل أن يكون هناك من لا يزال يؤمن بالاشتراكية أو بالوحدة ، محال ، حتى أولئك الذين كانوا سدنتها ومفكريها ارتدوا عنها وكفروا بها •

لم يبق إلا المتطرفون من أقصى اليمن وأقصى اليسار ، الإسلاميون والماركسيون ، لكن الإسلاميين عاجزون بطبيعهم عن تحريك الجماهير لأنهم ليست لديهم القدرة على التواصل ، لا يجيدون غير التمتمة والهمهمة والغمغمة والبسملة والحوقلة والترفع العاجز والتطلع المريض • ثم إنهم ممزقون ، يشغلهم التناحر بينهم أكثر مما يشغلهم كل ما حولهم ، وهذه نعمة حقيقية ، لأنهم لو تجاوزوا قصورهم في الاتصال بالجماهير وأحسنوا التعرف عليها لسهل عليهم قيادتها ، فهى جماهير تعودت على الولاء المطلق للدين حتى لو كانت تعبد عجل أبيس •

لكن الماركسيين بدورهم قد فقدوا الأمل بعد أن انهارت أحلامهم كلها ، إنهم الوحيدون الذين يملكون الخبرة على إثارة الجماهير وتحريكها وقيادتها ، وهى خبرة بنتها الثقافة والممارسة ، آلاف الكتب والأساطير والقصص والأشعار والمسرحيات من نضال سبارتاكوس إلى أم جوركى ، من عيون إلزا إلى آهات أمل ووجيعة سرور من معطف جوجول إلى قمر مهران وعروس الزغبى من أرض الشرقاوى إلى حرام إدريس ، من قضية الخولى إلى باب الست المفتوح ، آلاف الرجال والنساء الذين اكتسبوا من العمل السرى خبرة توارثتها الأجيال جيلا بعد جيل ، ترى .. هل ما زال لديهم أمل في عمل شيئ ؟ أو لحساب غيرهم يعملون ؟" .

أشار من موقعه إلى ضابط الاتصال بأمن الدولة وأمره :

-أرسل إليهم بمتابعة القيادات والشعارات والتبليغ فورا .

-تمام معالى الباشا .

-تمام معالى الباشا .

فوجئ بشكرى مدير المركز الإعلامى بالقصر يردد العبارة رافعا يده اليمنى بالتحية العسكرية وفي اليسرى الملف الخاص بالمعلومات الصحفية المقرر عرضها على سيادته ، همّ أن يلفت نظره بأن الوقت غير مناسب لولا انه تذكر أنه هو الذى حدد له هذا الموعد في بون لترتيب ما يتصل بضوابط نشر المعلومات التى يصل إليها الوفد الإعلامى المرافق ، ألقى نظرة على ساعته وأتبعها بأخرى على الرجال العاكفين على أجهزتهم .

كأنما أحس شكرى بأن ذلك مؤشر لتأجيل الإجتماع فبادر راجيا :

-اسمح لى معالى الباشا قبل كل شيئ في عرض تقرير مهم جدا .

تساءل اللواء بنغمة لا تخلو من ضيق :

-بخصوص ؟

أجاب شكرى بنغمة تجمع بين الإلحاح والتوسل :

-بعض التقارير التى توضح الجو السياسى في واشنطن في هذه الفترة .

-تتصل بالزيارة ؟

رد بهدوء من غير أن يظهر عليه ما جال في خاطره من استغراب للسؤال :

-قطعا .

وصمت لحظة قبل أن يضيف :

-بعضها يتصل بالزيارة بشكل مباشر ، وبعضها يتصل بها بشكل غير مباشر ، لكنها جميعا تكشف ما يهدفون إليه من نتائج خلال الزيارة .

قاطعه اللواء باستخفاف :

-إذا كنت تقصد موضوع دير شبيجل فهو لا يستحق .

قال شكرى بنغمة عادية لا تعكس ما بدأ يشعر به من توتر :

-موضوع دير شبيجل ليس إلا قمة جبل الثلج ، موضوعات أخرى كثيرة تدخل في هذا النطاق ، موضوع الديلى ميرور عن الاستبداد وموضوع التمبو والكوربير دى لاسيرا عن القمع ، وموضوع الإند بندنت عن الأموال الطائرة ، وموضوع اللوموند والفيجارو عن وسائل التعذيب ، وموضوع الاكسبريس عن حقوق الإنسان ، وموضوع التايم عن البدائل الممكنة للنظام ، وموضوع النيوزويك عن إعادة ترتيب الأوضاع في المنطقة .

من جديد قاطعه اللواء وقد أنذر صوته بالضجر :

-لا داعى للفلسفة ، كل هذا معلومات قديمة تتردد بين وقت وآخر ، إذا كانت لديك معلومات جديدة قلها باختصار .

صمت شكرى لحظات ريثما يبتلع ريقه ليسيطر على انفعاله قائلا لنفسه : "لا تدع الانفعال يكون سببا في مصادرة جهود كلفتك وقتا طويلا ووظفت لها كل الإمكانيات ، إنه أسلوبه المعتاد في العمل حتى لا يعترف بأنك أصبحت ضمن دائرة المؤثرين في صنع القرار ، اصبر ، سيأتى يوم يعترف فيه بلسانه" .

مد يده بالملف وهو يقول :

-كل شيئ مكتوب بوضوح معالى الباشا ، الموضوعـــات والتعليقـــات والتحليلات .

أمسك الملف بيسراه دون أن يفتحه ، لكن نظرته الخاطفة كانت كافيـــة ليتأكد من أنه ممتلئ بالأوراق ، فقال كأنما يلومه :

-كل هذا .

سارع شكرى كالمعتذر :

-لقد لخصت الموضوع كله في صفحة واحدة .

ومد يده ليفتح الملف وهو يشير إلى الصفحة الأخيرة ، لكن اللواء عقب بهدوء :

-لا بأس ، لكن ضعها في أول الملف وليس في آخره .

-تمام معالى الباشا .

قالها شكرى بعد أن أنجز ما طلب منه يستأذنه في العودة وقد اتضح لـه أن الوقت غير مناسب للكلام في ضوابط النشر ، اكتفى اللـــواء بـــهزة رأس خفيفة قائلا وهو ينظر إلى ساعته :

-يمكنك العودة بعد ساعتين ، أرجو أن يكون الوقت مناسبا .

كان الملف ما زال في يده وهو ينظر من خلال الحاجز الشـــفاف إلـــى ضباط الاتصال فلم يجد ما يدل على جديد ، فتح الملف وأخذ يقرأ .

"هل هذا ما يريدونه حقا ؟ هل هو بالفعل تسريب مقصود أم اســـتنتاج لمجموعة الأدعياء الذين لا يكفون عن التوهم والثرثرة ؟ هل هـــى خطـط حقيقية لإعادة ترتيب الأوضاع أو مجرد تفكير بصوت عـــال يحلـم بواقـع مختلف ؟ هل اللحن الواحد الذى تعزفه الصحف الأوربية والأمريكية نتـــاج نوتة مدونة تلتزم بإشارات عصا ما يسترو أو مجرد مصادفة ؟هـــل هنـــاك صلة خفية بين ما تقوله هذه الصحف وما يحـــدث فـــي حلـــوان ؟ كيــف ؟ اختلطت الأمور وتشابكت ولا يمكن التمييز بينها إلا بتحليل كامل تكون بيـــن يديك فيه كافة المعلومات ، لكن لا المكان ولا الوقت يسمح بذلك ، قديما كنت تمارس هوايتك في افتراض المواقف وتصور الحلـــول الممكنـــة والبدائـــل

المتاحة ، الآن أنت أمام موقف مفروض وليس في وسعك أن تحصل حتى على وقت كاف للتفكير ، وحتى شكرى لا تستطيع في هذا اللحظة أن تثق بتحليلاته ، إنه يجيد تنفيذ الأوامر ولكنك تعرف جوانب القصور فيه منذ كان تلميذا لك في دورة الحرب النفسية ، فهو أحادى النظرة محدود التفكير ، يمكن أن تكون هذه التحليلات قد مررت عليه دون أن يدرى كما يمكن أن يكونوا قد جندوه وهو لا يعلم " •

-تمام معالى الباشا •

رفع عينيه إلى ضابط المتابعة الذى يراقب الدائرة التليفزيونية المغلقة التى تنقل صورة ما يدور في الصالون الخاص مستفسرا ، فأضاف :

-الدكتور الأمريكى موجود في الصالون •

-منذ متى ؟ •

-من ربع ساعة •

تمتم اللواء لنفسه وهو يتبعه ليلقى نظرة : "إنه لا يضيع وقته" ، ووقف يحدق في الشاشة الصغيرة بإمعان • كان الدكتور ميكر يجلس مسترخيا فهو مشهور بمقدرته على تذوق النكتة المصرية ، حتى إنه قرر منهجا فيها بعد أن تسلم عمله مسئولا في الجامعة ، ركزت الكاميرا على وجهه فبدت الابتسامة حقيقية تدل على إحساس بالرضا ، طلب اللواء تركيز الكاميرا على الكأس التى يحملها فراحت صورتها تتضح شيئا فشيئا حتى ملأت الشاشة ، أمعن فيها النظر مفكرا : "إنه لم يقربها بعد ، إنه يعمل "أشار بإصبعه فعادت الكاميرا تتجول بين الجالسين ، ولما تبين له أن أحد المسئولين الكبار ليس موجودا اربد وجهه "لن تقف على معلومات دقيقة ، فالمصدر الآخر بعيد يمكن ألا يسمع بعض العبارات" •

التفت إلى الضباط الجالسين إلى أجهزة الاتصال وسأل :

-هل من جديد ؟

ولما هزوا رءوسهم وأصواتهم ترتفع بالنفى همس لنفسه وهو يخطو خارجا : "لم لا تشاركهم بنفسك ، على الأقل تستطيع أن تسمع بعض النكات" .

لم يكد الضابط يفتح له باب الصالون الخاص حتى ارتفعت أصوات الترحيب تحيى بحرارة . نهض الدكتور عابد والرجال من حوله قبل أن يخطو إلى الداخل خطوة واحدة ، وما كاد يقترب حتى التقط يده ليشد عليها بقوة وهو يشير ليجلس إلى جواره لكن الدكتور ميكر الذى كان يجلس في الجانب الآخر ابتسم وهو يقول :

-اسمح لى صاحب السعادة أن يكون لى هذه الشرف .

وأمسك بمعصم اللواء ليجلسه إلى يمينه .

بدا له فور جلوسه أن البهجة تملأ المكان ، لم تكن مجرد بسمات مرسومة بل كانت مشاعر متوهجة تتدفق سعادة ممتعة تتفجر بها اللفظة والنظرة والحركة والرجال يتابعون باستمتاع إلقاء بعض النكات ذات الطابع الإقليمى ، ثم يبلغ صخبهم أقصاه والنكات تنتقل لتصبح صورا جنسية صارخة غير عابئين بالمضيفة التى اكتسى وجهها هدوء من ألف حتى تعود مكتفية بتبادل نظرات تعقيب خاطفة مع زميلها المضيف ، كأنما أحس الدكتور عابد بنظرته الذكية أن سماع النكات لم يعد يمتع الدكتور ميكر فأراد أن يمنحه الفرصة لمزيد من المتعة ، قال وهو يرفع يده ليسكت الحاضرين :

-اسمحوا لى أيها السادة :

سكتوا فأضاف بنغمة موقعة تجمع بين البهجة والرجاء :

-والآن ، نريد أن نسمع نكتة من صاحب السعادة .

تسابقوا للتأييد لكن الدكتور ميكر قال ضاحكا كأنه يتمنع :

-صاحب السعادة ، أنتم تعرفون أنى لا أجيد الإلقاء .

رد الدكتور عابد مشجعا :

-لكننا نجيد الاستماع .

-إذن اغفروا لى أخطائى الصوتية .

هل نسى ضابط المخابرات العريق دوره الديبلوماسى وهو يلتفت إلـــى اللواء خليل مستأذنا :

-سيدى الجنرال ، اسمح لى •

قال اللواء بغبطة وعقله يستعد للتسجيل والتحليل :

-تفضل يا صاحب السعادة •

-اجتمع أمريكى وألمانى ويابانى ومصرى وأخذوا يتفـــاخرون ، قـــال الأمريكى : أمريكا أغنى بلد في العالم ، نحن نمنح معونات سنوية تقرب من عشرة مليار دولار وهى تعادل مجموع ميزانيات خمسين دولة على الأقل من أعضاء الأمم المتحدة ، قال الألمانى ألمانيا أغنى بلد ، لقد نهضنا بعد تدمـــير كامل في الحرب العالمية ، وأنفقنا على الولايات الشرقية ما يمكن أن يصرفه الأمريكان على معوناتهم في خمسين عاما ، قال اليابـــانى : لا أمريكـــا ولا ألمانيا ضربتا بالقنابل الذرية ومع ذلك صارت اليابان أقوى قوة اقتصاديـــة ، أليس الين أقوى عملة في العالم • قال المصرى : هذا كله صحيح لكن تظـــل مصر أغنى دولة في العالم ، ردوا جميعا : كيف ؟ قال لأن أى دولـــة فـــي العالم لا تحتمل النزح المستمر للثروة كما تحملت ، إنها تسرق من أيام مينـــا الأول حتى اليوم ومع ذلك ما زالت على قيد الحياة •

صمت الدكتور وابتسم ، هل توقع حقا أن يضحكوا للنكتة ، ألـــم يكـــن طبيعيا أن يقابلوها بما قابلوها به من ابتسام بارد ، لكن الباشا بذكائه اللمـــاح سارع ملطفا :

-نكتة أخرى يا صاحب السعادة ، أرجوك •

هل كان الدكتور ميكر مترددا بالفعل أو كان يتظاهر بالتردد وهو يقـــول كأنما يلوم نفسه :

-إلقائى غير جيد ايها السادة •

رد الدكتور عابد وهو يربت على فخذه بمودة :

-القاؤك زى العسل ، واحدة أخرى ، أرجوك •

-اجتمع أمريكى ومصرى وأخذا يتفاخران ، قال الأمريكى : لدينا حرية مطلقة ، يستطيع أى أمريكى أن يقف أمام البيت الأبيض ليتهم الرئيس بأنه لص أو أن زوجته عاهر ويهتف بسقوطه من غير أن يتعرض له أحد ، رد المصرى : وإيه يعنى ، يستطيع أى مصرى أن يقف أمام القصر الجمهورى ليفعل نفس الشيئ • تساءل الأمريكى مندهشا : يستطيع أن يهتف بسقوط الرئيس ، فرد المصرى بثقة : طبعا يستطيع أى مصرى أن يهتف بسقوط الرئيس الأمريكى •

وابتسم الدكتور ميكر وشاركوه على مضض الابتسام ، لكن الدكتور عابد سارع رافعا إصبعه كعادته التى لازمته منذ كان يقود شباب المنظمة :

-اسمح لى يا صاحب السعادة ، هذه نكتة قديمة •

سأل الدكتور ميكر مندهشا :

-لماذا يا صاحب السعادة •

رد الدكتور عابد بنغمة تجمع بين الجد والهزل :

-لأنه ليس هناك مصرى يستطيع الآن أن يهتف بسقوط أى رئيس أمريكى •

في غمرة الضحك الصاخب مال الدكتور ميكر على اللواء وهمس :

-هل في استطاعتى سيدى الجنرال أن أكلم واشنطن •

هز اللواء رأسه وهو يهمس :

-في أى وقت يا صاحب السعادة •

-من المطبخ ؟

-من المطبخ •

-اسمح لى إذن أن أصحبك •

-إنه لشرف لى يا صاحب السعادة •

نهض الرجلان في لحظة واحدة فنهض الدكتور عابد والرجال من حوله ، اكتفى اللواء بهز رأسه تحية وهو يتجه إلى باب الصالون قائلا :

-معذرة ، كنت أود أن أبقى فترة أطول لكنه العمل •

رد الدكتور عابد بلطف ٠

-كان الله في العون يا باشا ٠

والتقط في نفس اللحظة يد الدكتور ميكر ليهزها مرددا كلمات الشكر ، استسلمت يد الدكتور لقبضته لحظات قبل أن ينزعها قائلا :

-شكرا لكم ، لقد استمتعت حقا يا صاحب السعادة ٠

رد الدكتور عابد بامتنان :

-الشكر لكم يا سيدى فقد أسعدنا وجودكم بيننا ٠

تابع الدكتور ميكر وهو يتجه إلى باب الصالون :

-أرجو أن تستمتعوا بوجودكم في واشنطن ، إنها رائعة في هذه الأيام ٠

فعقب الدكتور عابد ببهجة :

-أنا ممن يعشقونها ، فهى مدينة رائعة دائما يا سيدى ٠

وألقى وهو يجلس على المحيطين به نظرة دافئة تشع بالرضا ٠

كان ضابط الاتصال بأمن الدولة متجها إلى اللواء الديب في الصالون الخاص حين قابله وهو يخرج منه ، فقدم إليه البرقية الجديدة التى تم حل رموزها ، لكن اللواء ما كاد يتسلمها حتى لحق به الدكتور ميكر فلم تتح له فرصة لينظر إليها ، وسارا معا إلى عرينه ليرفع السماعة طالبا من المهندس المسئول تمكين الدكتور من الاتصال بواشنطن ، وترك السماعة وتنحى جانبا يقرأ :

-ازداد عدد العمال المتظاهرين بعد أن توقف العمل في المصنع وفي بعض المصانع المجاورة ٠

رفض العمال الاستجابة لقادة النقابة العامة وطردوهم من المصنع ٠

إنهم يرددون هتافاتهم في إيقاع جماعى ضد من أسموهم : الذين نهبوا الملايين مطالبين بإعادة حقوقهم ٠

انتابه الغيظ حتى النخاع : "هكذا إذن ، الآن أسفرتم عن وجوهكم القذرة ، تضللونهم في البداية بدعوى تحقيق مطالبهم وحين تنجحون في تجميعهم توجهونهم إلى أهدافكم أنتم ، أبدا لن تفلتوا ولن يفلت كل من اشترك

في هذه المهزلة" • انطلق كالسهم إلى الصالون الرئاسى ، ولم يستغرق وجوده فيه وقتا طويلا عاد بعده إلى عرينه ليتجه مباشرة إلى ضابط الاتصال ملقيا إليه البرقية ، تأملها الضابط بإمعان ثم وضع إصبعه تحت كلمة بدت له حروفها غير متناسقة ، فقرأها اللواء بصوت خافت :

-اقتحام •

فلما عاد إلى وضع إصبعه تحت عبارة أخرى نظر إليه مؤنبا وهو يقرأ له :

-تصفية جسدية لجميع العناصر المتورطة •

ووقف إلى جواره وهو يترجم التوجيهات إلى رموزها الشفرية حتى يطمئن إلى أنه لا يخطئ في تنفيذ الأوامر الكريمة •

* *

(٣)

ما كاد شكرى يدخل الصالون الملحق المخصص لقمم الإعلاميين المرافقين حتى توقف الحاضرون عن الحديث وارتفعت إليه العيون مستطلعة ، تجاهلها والتفت إلى المضيفة ليقول بهدوء وهو يجلس :

-أريد شيئا خفيفا ، شمبانيا بوردو .

هل أصيبوا بخيبة أمل ؟ وما المانع ؟ لقد تعودوا على ذلك ، لا بأس بأن تحرقهم الرغبات قليلا ، وأن تكويهم الاحتمالات المتباينة فتحد من تطلعاتهم . فقد جرت العادة في مثل هذه الرحلات على أن يتم اختيار بعضهم ليكون له شرف تسلية سيادته في ساعة الطيران الطويلة المملة التى تضجره ، وهى لحظات يحلم كل منهم بها ، ويبذل كل جهده من أجلها ، لأنها تفتح لصاحبها آفاق الانطلاق في النسق الأعلى ، فبفضلها يستطيع من وقع عليه الاختيار أن يمارس باستعلاء دورا محوريا في التوجيه السياسى والاقتصادى بعد أن أتيح له من خلال النكتة والدعابة والضحكة والتعليق أن يستشف النبض ويستشعر الاتجاه ، ملايين الكلمات قيلت وكتبت باعتبارها خطط عمل لمستقبل الوطن والأمة والمنطقة والعالم من وحى نكات هذه الجلسات وطرائفها ، إنهم ينظرون إليه متعجلين ، لكن ماذا عساه يصنع وقد عاد هذه

المرة أيضا بخفى حنين ، وبقى اللواء الديب متمسكا بعادته التى لم تتخلف أبدا منذ حل في موقعه بالقصر ، أن يظل حاجزا حصينا يحول دون اتصاله المباشر ، بالرغم من أنه قد قام في هذه المرة بعمل رائع توقع معه أن يبادر بضمه إلى الصفوة المؤثرة صاحبة المشورة الدائمة ، هل يعقل أن يكون دون نديم الساقى ، ومدحت الشماشرجى ، ونعيم الحلاق ، ونظمى المدلك الخاص ، لكن يبدو أن العمل الجيد ليس هو السبيل ، "إن عملك الذى قدمته إليه لم يشأ حتى أن يتصفحه مكتفيا بالخلاصة القصيرة التى لا تعطى صورة كاملة للموقف بالرغم من أنها كانت نتاج جهود استثنائية شارك فيها عشرات ، فقد جمعت من جميع العواصم الكبرى كل المعلومات الصحفية ما نشر منها وما لم ينشر ، ودرست تقارير معاهد الاستراتيجية وخططها ، واتصلت ببعض مصادر المخابرات وأفدت من تحليلاتها ، واستعنت بعدد لا بأس به من أساتذة العلوم السياسية لدراسة جميع الاحتمالات والبدائل ، وها هوذا اللواء الديب يقرر كعادته ألا يسمح لك بتجاوز دورك الذى رسمه لك ، وأن يحصرك في النطاق الذى حدده لك منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه القصر : "مهمتك الإعلام أى التبشير بأى قرار وليس التأثير في صنع القرار ، فلا تحاول تجاوز حدودك مهما كانت الظروف" .

تمتم شكرى لنفسه مغيظا وهو يضغط على أسنانه :

"مستحيل أن يكون هذا هو دورك ، مهما كانت النتائج" لقد ظل طوال عمره الواعى يحلم بالانضمام إلى الصفوة المستمتعة بالسلطة ، حتى إنه لا يذكر لنفسه متعا أخرى طوال مراحل شبابه الباكر ، وحتى حين كان زعيم الفصل وقائد فريق الكرة في التوفيقية الثانوية إنما كان يسعى للسلطة المؤثرة ، فلما التحق بالحقوق تمثلت لديه السلطة في هيئة التدريس بها ، لقد كانوا يظهرون له كما لو أنهم القوة الحقيقية التى لا توجد قوة تضاهيها ، قوة لا تخضع لأحد ، ولا يؤثر فيها شيئ ، كلماتها تحكم مصائر الناس وتحدد لهم بصرامة قاطعة الصواب والخطأ ، ولما عجز عن الالتحاق بهيئة التدريس وعمل بالمحاماة بعد تخرجه ما لبث أن أدرك أن القانون ليس القوة

الحقيقية ، إنه قوة نظرية فحسب ، أما القوة الحقيقية من الناحية العملية فهى قوة الشرطة ، لأنها التى تستأثر بسلطان الأمر الواقع ، وبعد سنوات من ممارسته العمل الشرطى اكتشف من جديد أن الشرطة ليست القوة الحقيقية ، إنها مجرد سوستة لسيارة النظام ، ودورها محدود بقدرتها على خدمته حتى لا يصاب بأذى في المطبات والعواصف ، وبدأ مرة أخرى معاناة اكتشاف موقع القوة في المجتمع ، وما لبث أن أدرك أن القوة الحقيقية تكمن في الإعلام ، فهو القادر على إعادة تشكيل الإنسان من الداخل وفق رؤاه وطبقا لمقولاته ومعطياته ، إنه بإلحاحه المستمر يستطيع أن يدمر مبادئ ثابتة وقيما راسخة ليحل محلها قيما ومبادئ مناقضة ، بحيث تبدو القيم القديمة مجرد عادات يجب التخلص منها ، وهو بإلحاحه الدءوب بوسعه أن يحيل مجموعة من الأفكار النظرية القابلة للمناقشة إلى حقائق بدهية لا تقبل أى مناقشة .

"أبدا لم تخطئ حين انضممت إلى أسرة الإعلاميين بالرغم من أن كثيرين منهم لا يدركون الدور الذى يستطيعون القيام به ، لم يضع مدى الجهد الذى بذلته في رحلتك الشاقة لتنتقل من الصفوف الخلفية التى لا يحس بها أحد إلى الصفوف الأمامية التى لا يستطيع أن يهملها أحد ، المشكلة في جوهرها أن الإعلام في بلدنا تمسك برقبته السلطة ، ولذلك لم يكن مفر من أن تحاول الانتقال من دنيا المحكومين بالتوجيهات إلى عالم الذين يصدرون التوجيهات ، لكنك حتى اللحظة لم تنجح ، وها أنت ذا برغم خبرتك الطويلة تقف أمام صخرة اللواء الديب مكتوف اليدين ، أليست هذه مهزلة ، أن يكون عملك كله محصورا في نقل التوجيهات والأوامر ، يستطيع القيام بذلك أى محرر ناشئ ، أما أنت فلا يغرنك ما تجده من اهتمام ظاهرى مرده إلى اقترابك من دائرة صنع القرار ، وذكائك في الإيحاء بنفاذك إلى داخلها ، لكنك تدرك الحقيقة كاملة ، وهى أنك ما زلت حيث كنت لم تتقدم خطوة واحدة برغم كل ما بذلت من جهود واتخذت من وسائل ، يبدو أنك لن تستطيع ذلك عبر اللواء الديب ، وأنك لابد أن تطرق أبوابا أخر ، لكن أين هى هذه الأبواب ؟" .

أرقه السؤال وهو يحاول العثور على إجابة مناسبة .

-كان عليك أن تحضرها معك ، على الأقل ما كنت ستعانى من البعد إلى الدرجة التى تنسى فيها أساتذتك القدامى .

كيف كان مستغرقا إلى المدى الذى لم يحس فيه بالدكتور إلا وهو يخاطبه مداعبا ويجلس دون تكلف إلى جانبه ، ابتسم خجلا كأنما يعتذر وهو يمد يده إليه ويقول :

-وماذا أعمل إذا كانت عصية .

-وهل يعصى شيئ على عبقرى مثلك .

ابتسم بهجة للمجاملة الرقيقة ، فتابع الدكتور وهو يلوح بيده اليسرى مؤكدا كعادته التى ظلت معه منذ عهد شبابه الباكر :

-تعرف طبعا أننى لا أجاملك ، فهذا رأيى فيك منذ كنت طالبا عندنا في الكلية وعملت معى حين كنت أنا رائدا للجنة الثقافة .

تساءل شكرى بدهشة :

-أما زلت تذكر يا دكتور .

قال الدكتور بثقة :

-الشخصيات المهمة لا أنساها أبدا .

غزت العينين الحزينتين نظرة ارتياح ، وتألق في الوجه المقطب شعاع رضا ، وراح الرجلان يتحدثان عن ذكريات قديمة كانت باهتة ، هل تذكراها فعلا ؟ ألم يكن كثير منها طيف أحلام ونسيج أوهام ؟

-أتعرف ؟ حين سمعت أنك أصبحت صحفيا قلت لن أبادر بالحكم عليه قبل أن أعرف أى خط سيأخذ ، وكنت موقنا بأنك ستسير في الاتجاه الذى سرت فيه ، لأنه هو الاتجاه الصحيح الوحيد .

-هذا رأيك فعلا ؟

-ألا تتذكر ما كنت أقوله لكم ، على رجل القانون أن يكون واقعيا والإعزل نفسه عن إدراك الحقائق ، وفي بلد كبلدنا غير مجد أن تكتب معارضا .

هل أراد شكرى أن يتأكد فعلا أو رغب في أن يتسلى بالدخول في مناقشة تبعده عن إعادة التفكير في مشكلته ٠

-لماذا يا دكتور ؟

-لأنه لن يكون لما تكتب أثر ٠

-لماذا ؟

أجاب الدكتور بحسم :

-لأنه في بلد استقرت سلطته المركزية آلاف السنين يربى الفرد على الولاء المطلق للنظام ، فلا تجدى ملايين الكلمات في مواجهته من خارجه ، ولا يكون هناك سبيل إلا المحاولة من داخله ٠ ولذلك حين بدأت تكتب عن الإنجازات قلت الآن عرف طريقه ٠

هل أراد أن يشاكسه ، أو أن يرد على ما ظنه لأول وهله هجوما بهجوم مضاد :

-هل أفهم من هذا أنك معارض من الداخل ٠

وهل كان الدكتور في حاجة إلى أن يؤكد ما يعرفه عنه :

-رجل القانون لا يصلح أبدا أن يكون معارضا من الداخل ، إنه يمكن أن يكون معارضا من الخارج ، هذا إذا لم يكن واقعيا ، أما إذا دخل بنية النظام فإنه لا يكون إلا ملتزما ٠

كان منفعلا إلى الدرجة التى اضطر فيها شكرى أن يقاطعه للتخفيف عنه :

-أنا أحفظ آراءك هذه عن ظهر قلب ، وكنت لفترة طويلة أردد نفس الكلمات ٠

أعادت العبارة إليه الطمأنينة فزالت الحدة وهو يعقب :

-حين اختاروك للقيام بمهامك في القصر غمرتنى الفرحة كأننى شخصيا الذى حقق الاختراق ، وقلت لنفسى لقد أصبح لك أخيرا صديق في مركز السلطة ٠

أحب أن يرد على المجاملة بمجاملة مثلها فقال وهو يبتسم :

-أنت أيضا يا دكتور في موقع شديد الأهمية في أحد مراكز السلطة المهمة في البلد ٠

فقاطعه بصوت يجمع بين حرارة الصدق وأسف الحزن ورضا الاستسلام :

-اسمح لى أن أخالفك ، ليس في بلدنا إلا بؤرة واحدة تتركز فيها السلطة ، أما نحن جميعا في المواقع الأخرى فعمال مؤقتون ٠

نظر إليه شكرى في دهشة " عمال مؤقتون" !! ما الذى جعل العبارة نابية في أذنيه : الحقيقة أو التصريح ٠ هل كان يتأكد أو يعترض :

-ألسنا جميعا كذلك ؟!

تساءل الدكتور بصدق :

-لماذا ؟

رد شاكر بهدوء :

-على الأقل بحكم الدستور ٠

-اسمح لى مرة أخرى أن أختلف معك ، هذه قراءة شكلية للدستور ، تقف عند مقولة فارغة تقرر أن حقوق المواطنين متساوية ، وهى مجرد شعار لا أكثر ، أشبه بالطبقة السكرية المغلفة للدواء المر ٠ الحقيقة أن النظام عندنا نظام أبوى ، تقوم السلطة العليا فيه بدور الأب ، ويقوم فيه الشعب بدور الابن القاصر الذى يتولى الأب رعايته ، ولا يسمح له مطلقا بتقرير أموره بنفسه ، وجميع الهياكل التنظيمية التى قد تبدو مراكز سلطة هى مجرد أدوات يلجأ إليها الأب في رعاية ولده ، والذين يشغلون هذه المواقع مجرد عمال مؤقتين ، لأنهم ينتهى عملهم في اللحظة التى يرى الأب فيها ذلك ٠ وهذه هى القراءة الحقيقية للدستور غير المكتوب من عهد مينا إلى هذا العهد المبارك ، وهى القراءة الحقيقية للدستور المكتوب أيضا منذ بضع سنوات ٠

ابتسم شكرى وهو يرى أستاذه القديم منهمكا في تقرير مقولات مناقضة تماما لما كان يقرره منذ ثلاثين عاما ، "هل يكون السبب في ذلك أنه يتصور

أنك قد أصبحت على مقربة من الأب الراعى ؟ ماذا يقول إذن لو أتيح لـه أن يخاطب الأب الراعى نفسه" ، هل أراد أن ينبهه حين تساءل بخبث :

-هل هذه الأفكار خلاصة آرائك السياسية أو القانونية ؟

رد الدكتور بثقة لا تحتمل ذرة تردد :

-لاينفصلان ، إنها خلاصة تاريخى كله .

-وهل هى تفسر تاريخك السياسى ؟

ندم في اللحظة التى نطق فيها بالسؤال ، تصور أن الدكتور سيستاء مـن الإشارة إلى ماضيه السياسى المتقلب ، لكنه فوجئ بالابتسامة تغمر وجهـــه وهو يقول ببهجة حقيقية كأنما أتيحت له فرصة كان يتمناها :

-رائع ، سؤالك رائع ، لقد أدركت به العلاقات الداخلية الخفيـــة التـــى يغفلها السطحيون الذين يتهموننى بالتناقض ، وأحيانـــا بالانتهازيـــة ، غـــير واعين بالمنطلقات الأساسية التى تصدر عنها مواقفى كلها ، ألم أقل لك إنـــك عبقرى فعلا .

هذه المرة لم يجد شاكر حرجا في أن يسأل :

-لكن ما هى هذه المنطلقات ؟

هل أحس الدكتور بأن تلميذه العبقرى ليس بالقدر الذى تصـــوره مـــن الذكاء ، رمقه متأملا وهو يخفى دهشته قبل أن يقول :

-النظام والاستقرار وجهان لعملة واحدة ، ومهمة المخلصين مســـاعدة الأب على احتواء الابن وجعل العلاقة بينهما سلسلة وطبيعية مـــهما كـــانت الظروف .

-حتى لو تغير الأب ؟

-يظل الأب أبا حتى لو تغير وجهه واختلفت صورته وتبدل صوته .

-ألا ينضج الابن أبدا ؟

-مهما نضج فإنه يظل بالنسبة للأب قاصرا .

صمت الدكتور برهة قصيرة ثم أضاف مبتسما :

-إنه الدستور الدائم .

تساءل شكرى مندهشا :

-أى دستور ؟

أجاب الدكتور بثقة :

-دستور الحياة ، أبو الدساتير كلها •

رفع شكرى كأسه إلى شفتيه وهو يتأمله : "مقدرتك على الإقناع تثير الدهشة ، هل أنت في لحظة من لحظات الصدق النادرة مع النفس أو هى عادتك في إغراء الفريسة ؟ أتصدق حقا أننى أتممت الاختراق وأنه أصبح في مقدرتى التأثير في الأب الراعى ؟" •

فجأة ابتسم شكرى وهو يقول متصنعا الجد :

-وهل يمنعك هذا الدستور من أن تشاركنى ؟

فرد الدكتور بدهشة وصوته يجمع بين الاستنكار والفزع •

-معقول ؟ أنا أمتنع عن مشاركتك !

أشار شكرى إلى الكأس التى وضعتها المضيفة أمامه وقال مداعبا :

-لماذا إذن لم تمد يدك إليها ؟ هل قررت أن تقلع عن الشراب •

وقبل أن يفتح فمه ليجيب تابع كأنه يغريه :

-إنها خفيفة جدا ، مجرد شراب منعش •

عادت البهجة إلى وجه الدكتور فأمسك بالكأس وقال وهو يرفعها إلى فمه :

-وحتى لو كانت فودكا ، إن مشاركتك في أى شيئ شرف عظيم •

اتبع الدكتور الكأس بأخر مبديا استمتاعه بالطعم والرائحة وهو يفكر : هل يسأله صراحة عن موضوع دير شبيجل ؟ هل يتجاوزه ويسأله عن الاحتمالات المتوقعة بعد أن يعبروا الأطلنطى ؟ من المؤكد أن لديه بحكم موقعه معلومات لكن إلى أى حد يثق به ليصرح له • "لقد مهدت له تمهيدا كافيا جهيراً بأن يحمله على الثقة فيك ، لكن هل تتحكم فيه قاعدة السياسى التى تقرر أنه ليس كل ما يعلم يقال أو تسيطر عليه شهوة الصحفي في إيثار النشر؟" •

تمتم شكرى وهو يقرب الكأس من أنفه ثم يبلل شفتيه :

-متعة ، متعة حقيقية ٠

لكن إحساسه بالمتعة لم يمنعه من التفكير : "ليس معقولا أن يحضر إليه في هذا الوقت لمجرد التسلية ، فلا أظن أنه غير مبادئه التى تعرفها من قديم ٠ إنه لا يضيع دقيقة واحدة دون ثمن ، هو بالتأكيد يريد شيئا ، فماذا يريد بالضبط ؟ أهو مجرد إعلان الولاء المطلق للأب الراعى ؟ أم تشممت أنفه رائحة تغيير محتمل فأراد أن يفك الارتباط الطويل بينه وبين الدكتور عابد ؟" ٠

انحنى عليه كأنما يبوح له بسر :

-هذه البنت جيدة ٠

التفت إليه الدكتور محاولا إخفاء دهشته ، بينما تابع شاكر وهو يتفحص جسدها اللدن :

-عندها مؤهلات غير عادية ٠

-رمقها الدكتور بطرف عينه في نظرة خاطفة دون أن يتكلم واستمر شكرى :

-يعجبنى هذا النوع ، ما رأيك ؟

كان السؤال مباغتا ولم يكن قد نظر إليها إلا في لمحة لم تترك فيه انطباعا خاصا ، فاضطر أن ينظر من جديد متأملا بأناة ٠

كانت بالفعل نموذجا فتيا للجسد المتفجر حيوية ، غمغم الدكتور بصدق :

-عندك حق ٠

-تقدر عليها ؟

فتح فمه ليرد وفي نفس اللحظة بزغ التحذير : "تـأنّ" ، السؤال في ظاهره عن المضيفة لكنها قد تكون مجرد رمز ، لا تغامر بالإجابة" ٠

ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وخرج بالصمت عن لا ونعم ٠

نظر شكرى إليه مخفيا في أعماق عينه ابتسامة ساخرة وهو يقول :

-لم أسمع إجابة .

رد الدكتور بحذر :

-وماذا تحب أن تسمع ؟

-المســألة ليست ما أحب ، المسألة تدور حول حدود قدرتك .

-قدرتى رهن بالظروف .

-أى ظروف ؟ ظروفك الخاصة أو الظروف المحيطة ؟

-ظروفى الخاصة أنا متأكد منها ، المشكلة في الظروف الأخرى .

-نفترض أنها مواتية .

-الفرض لا يجدى في العلاقات التى من هذا النوع ، لابد من التأكد .

-هل يطمئنك أن أقول إنها فعلا تحت السيطرة .

ابتسم الدكتور وهو يقول بحذر بالغ :

-ويمكن أيضا أن تقول إننى بدورى تحت السيطرة .

-يا رجل يا نمس .

انفجر شكرى وهو يقولها في ضحك صاخب لفــت إليــهما الأنظــار ، واكتفى الدكتور بأن يغتصب ابتسامة بدت بلهاء ، هل أدرك أخيرا أنه يعبـث به في اللحظة التى كان الدكتور يستأذن فيها عائدا كان وجيــه بــك رئيـس التليفزيون الرسمى يقبل ليقف أمام شكرى كأنما يستأذن ، تشاغل عنه بإشعال سيجارته متعمدا أن يتركه واقفا لحظات قبل أن يشير إليــه بــالجلوس فــي مواجهته ، في إشارة واضحة إلى الحاضرين بالتزام التقاليد الرسمية وعــدم رفع الكلفة . أخذ شكرى نفسا عميقا من سيجارته قبل أن يلتفت إليه بتــؤدة قائلا :

-نعم ؟

-أحببت أن أقدم لسعادتك تقريرا عن عمل بعثة التليفزيون في ألمانيا .

-بإيجاز لو سمحت .

قالها شكرى وهو ينظر إلى ساعته لمجرد إعجاله ، هو يعلم سلفا مــا سيقوله عن الفرق الأربع للتليفزيون المنتشرة فــي العواصــم المحتمــل أن

يزورها سيادته ، بخلاف الفريق الأساسى الذى يحتل مع بعض الإعلاميين والخدم والكلاب جزءا كبيرا من طائرة المقدمة ، ويعلم المحاور الأساسية للموضوعات التى ستسجل ، وللبرامج التى ستقدم ، وللعناصر التى سيتم معها التسجيل ، وللنتائج التى سيتم تأكيدها إعلاميا للزيارة التاريخية • فكل ذلك سبق تحديده في القاهرة قبل أن تبدأ الرحلة بوقت طويل ، استمع إليه بملل متزايد وهو يعيد عليه ما يعرفه دون أن يضيف إليه جديدا ، لقد التزم أعضاء الفريق بما تم التخطيط له تماما من غير أى تغيير ، وأهملوا بصورة كاملة جميع المتغيرات التى واجهتهم مما لم يكن في الحسبان عند التخطيط في القاهرة •

-لا بأس على كل حال •

نطق بها شكرى في إشارة ضمنية إلى رغبته في إنهاء المقابلة ، لكن وجيه بك الذى كان يتوقع كلمة تقدير لتنفيذه التعليمات بدقة آثر أن يظل جالسا كأن لديه ما يريد أن يقوله ، صمتا لحظات فلما نظر شكرى إليه مستطلعا اضطر أن يقول مغالبا ما يشعر به من حرج :

-هناك موضوع أحب أن أعرضه على سعادتك •

تساءل شكرى وفي صوته نغمة ضجر :

-خاص بالرحلة ؟

رد وجيه بك كأنما يهمس وهو يميل تجاهه ليقترب منه أكثر :

-ليس خاصا بالرحلة ولكن يخص سرى بك •

"الطلوقة" كادت الكلمة أن تفلت من لسان شكرى لولا أنه تداركها ليقول :

-الحارس الخاص ؟

-نعم ، الحارس الخاص •

أطلق جرس لإنذار الداخلى إشارته فتنبهت الأجهزة الغارقة في محيط الضجر وانتقل شكرى في لحظة إلى التحفز الكامل للاستماع والتحليل والاستنباط متظاهرا في الوقت نفسه بعدم الاهتمام ، سأل بهدوء :

اختناق ، تمتم لنفسه : " بقدر استكبار الرجل تكون مذلته ، أهذا هـــو الـــذى يضرب كبار موظفيه بالشلوت ولا يصف النساء في اجتماعاته إلا بالمبـــاول المتحركة ؟!"

هل أراد أن يحثه على الإجابة حين أضاف وهو يبتسم :

-عليك أن تجيبنى عن هذا الاحتمال ، وفي ضوء إجابتك سأتصرف .

لكن الرجل بقى صامتا ، هل أراد شكرى أن يزيـــده اضطرابـــاً أو أن يطمئنه لما قال :

-يجب أن تتخذ قرارك بنفسك ، هذه مسئوليتك وحدك ، لا يستطيع أحـد أن يفرض عليك شيئا ، تأكد من ذلك .

ظل صامتا كأنه لا يسمع ، كان في حاجة إلى توجيـــه أو إشـــارة ، أو حتى لمحة ذات دلالة ، لكن شكرى قرر ألا يمنحه إياها ، هل لأنه بدوره لـم يكن قد استقر على موقف بعد ، أم لأنه أحب أن يعاقبه على اتصالات تمـــت من وراء ظهره ؟

اتسعت ابتسامة شكرى وهو يشير إليه بالإنصراف قائلا .

-عموما أمامك وقت تتخذ فيه قرارك ، لكن عليك أن تبلغنى إذا كنـــت تريدنى أن أتدخل في الموضوع .

قطع وجيه صمته ليقول بصوت متعلثم :

-لهذا لجأت إلى سعادتك .

وسكت لحظة ابتلع فيها ريقه قبل أن يضيف بصوت خافت وقد تحولـت نظرة الانكسار في عينيه إلى استجداء .

-أنا واحد من رجالك المخلصين .

هل شاء شكرى أن يسجل تحفظا إذا جد ما ليس في الحسبان أو رغـــب في أن يمنحه قدرا من الطمأنينة حين عقب :

-بل نحن جميعا رجال الرئيس .

"رجال الرئيس - نعم ، لكن شتان بينكما ، فسرى واحد مـــن الصفـــوة القليلة التى تتمتع بسلطان الاتصال المباشر الذى تحاول التسلل إليه ، بل ربما

كان أكثرها اقترابا ، ولو كان عنده وعى بإمكانيات موقعه لكان لـــه شـأن آخر ، لكنه بقصوره الذهنى يحصر عالمه في نطاق جد محدود ، ويستثمر موقعه الفوقى في التعامل مع من حوله بفظاظة • وعدم مبالاته بأحد تجعله قادرا على اكتساب الأعداء الصامتين في انتظار لحظة مواتية ، لكن هذه اللحظة لن تأتى وحدها ، أكذوبة ما يقال عن لحظة التحول التى يتغير إثرها مسار ، التحول لا يكون وليد لحظة أبدا ، بل هو امتداد طبعي لحياة كاملة ، كل لحظة تسلم بهدوء إلى ما بعدها ، وما بعدها تسلم إلى ما بعدها ، وتمضى الأمور بسلاسة إلى غايتها • التحول نمو لبذرة يجب سقيها ورعايتها بالأخبار والمعلومات والشائعات والأزمات والتفسيرات ، ولديك بذرة صغيرة لكنها صالحة لأن تكون أزمة لو أحسنت التصرف تجاهها ، فهل آن الأوان لتلعب دورا في الساحة الداخلية يفرض على المغرور المعتز بفحولته أن ينظر إليك بشكل مختلف عن أولئك الذين يمتطيهم وأن يضع في اعتباره أن زملاءه ما زالوا في رتبة النقيب مبعثرين في النقاط بين بحر شبين والرياحات ومجاهل الخطاطبة والدلنجات والنجوع ، وأحسنهم حظا من ينظم المرور في كفر أبو جمعة وعزبة أبو قتاتة • المشكلة الحقيقية في هذا المتكبر الذليل الذى لا مانع عنده من فعل أى شيئ في سبيل البقاء في منصبه ، لو كانت لديه القدرة على الصمود لسهّل صلف الفحل وعناده تحويل المشكلة إلى أزمة ، لكن من الواضح أنه سيخضع برغم كل ما قاله وسيذيع الإعلان رغم أنفه ، فعليك حينئذ ألا تجعل ذلك نهاية المشكلة بل بداية لأزمة حقيقية لا تنتهى حتى يدفعا معا الثمن ، ولا مانع إلى أن تأتى هذه اللحظة من أن يقتنع كل منهما بأنك تسانده •

-تحب سعادتك أن تقدم الطعام الآن ؟

"صوتها أيضا !! شيئ غير عادى !!" رفع عينيه إلى المضيفة التى وقفت تنتظر الإذن فالتقت بعينيها ، كانتا تضحكان فتظهر الغمازتان الجميلتان في خديها ، هل سمعت ما قاله للدكتور ؟ تظاهر بأنه لم يسمع عبارتها محاولا استعادة نبراتها ، كررت العبارة مصحوبة بتلك البحة الغنجة

الفواحة بالإثارة ، تأملها مليا دون أن يجيب ، لقد أحب أن يسمع من جديد صوتها فهو من الطراز الذى لا تستوقفه النظرة وحدها ، فالنظرة إطلالة من خارج الحدود ، ولكن الذى يستهويه هو الصوت ، فالصوت انبعاث من الأعماق واقتحام داخل الحدود ، في النظرة خصوصية حتى في قمة المشاركة ، ولذلك تغمض المرأة عينيها عند بدء الممارسة المستغرقة تشجيعا له على الاجتياح والاقتحام ، فإذا بدأ صوتها في العمل كان ذلك إيذانا بالانتقال إلى مرحلة المشاركة فالانصهار .

-هل هم جائعون ؟

صمتت لحظة قبل أن تقول وهى تبتسم .

-يمكن .

تم استدركت وما زالت الابتسامة على وجهها .

-لا أعرف .

تجاوز إجابتها ليسأل :

-هذه أول مرة أراك فيها على الطائرة .

اقتحمته عيناها وهى تقول :

ولكننى كنت أرى سعادتك دائما .

أشرقت الابتسامة في أعماقه وعاد يسألها :

-أين كان موقعك في الرحلات السابقة ؟

-في الصالون الخاص .

-في الصالون الخاص شخصيات مهمة دائما .

هل كانت مجرد مجاملة حين قالت وعيناها تواصلان رحلتهما :

-ليس أهم من هنا .

تساءل وعيناه تطوفان بوجهها .

-كيف ؟

-لأنهم يتغيرون من رحلة إلى أخرى ، أما هنا فلا يتغيرون إلا نادرا .

"ليس صوتها فقط ، ذكاؤها أيضا" .

حطت عيناه على شفتيها الممتلئين وهو يقول :

-لا أعرف اسمك ٠

هل أدركت أنها قامت جسورا كافية وهى تقول بدلال :

-منال راغب سعادة الباشا ٠

هل أراد حقا أن يتأكد أنها تعرف اسمه فسألها :

-هل تعرفين اسمى ؟

ردت دون تكلف :

-وهل يخفى القمر ٠

"لديها قدرة غير عادية على الفهم والاستجابة ، هل تسمح الظروف خلال الرحلة لاختبار قدراتك القديمة التى أوشكت أن تنساها أم ستظل الأمور معلقة حتى تعود إلى القاهرة" ٠

توقفت فجأة كأنما تتأمل شيئا لفت انتباهها ثم قالت :

-بعد إذن سعادتك لحظة ، هناك من يطلبنى ٠

اكتفى بإشارة من إصبعه فتركته وسارت حتى وقفت أمام الأستاذ صادق حسب الله رئيس المؤسسة الصحفية العريقة التى تصدر عددا كبيرا من المجلات والدوريات بالإضافة إلى صحفها اليومية والأسبوعية ، توقفت أمامه مصغية لحظات عادت بعدها إليه لتنحنى هامسة :

-صادق بك يستأذن سعادتك في دقائق ٠

هز رأسه موافقا وهو يشعل سيجارة جديدة ، وسرعان ما كان الأستاذ صادق أمامه ينحنى مبتسما وهو يقول برقة :

-شكرا لمعاليك ٠

رد على الابتسامة بمثلها وهو يشير إليه بالجلوس ٠

بادره فور جلوسه :

-أولا اسمح لى أن أجدد الشكر لمعاليكم على جهودكم في التجديد لى في رئاسة المؤسسة ٠

رد بصوت يجمع بين الصدق والكبرياء ٠

-لا داعى للشكر ، أنت تعرف أننى أحبك وأثق فيك •

أشرقت البهجة وصوت صادق يصدح بالشكر ، لكنها تجمـــدت حيــن قال :

-أستاذن معاليكم في عرض المانشتات التى ســتصدر بـــها الصحيفـــة غدا •

وحمل نفسه على الاستماع متظاهرا بالاهتمام وقد حـــل الملـــل محـــل البهجة ، فالمانشتات التى كتبت قبل أن تبدأ الرحلة نفس المانشتات التى كتبت في الرحلات السابقة ، والتصريحات نفس التصريحات ، حتى لكأن كاتبها ما زال موجودا في القاهرة • فلما أضاف صادق :

-أرجو أن يتسع وقت معاليكم لعرض المقال السياسى •

لم يملك إلا أن يبتسم ، فمن المؤكد أنه لم يكتبه ، إنه يعرف ذلك منـــذ كان محررا في المؤسسة حين فوجئ لما سمع – لأول مرة – لقبه الأثير عند المحررين الشبان : الأستاذ المتعدد الرءوس ، إشارة إلى المحررين المقربين الذين كان يحرص على اصطحابهم معه دائما ، لأن منهم مـــن يكتـــب لـــه مقالاته السياسية ، ومن يكتب له تحقيقاته الصحفية ، ومن يكتب له مشـــاركا في الموضوعات الاجتماعية ، هل شغلته الذكريات القديمة عن الاســـتماع أم كان ما يشغله قرارا وجد له التوقيت المناسب ، لم يكد ينتهى من القراءة حتى عقب شكرى بتؤدة :

-المقال يحتاج إلى تعديلات جوهرية •

رفع عينيه إليه متسائلا في قلق ، فتابع :

- لقد اهتم المقال بالجانب السياسى وأهمل محورين في غاية الأهمية •

أمسك صادق بالقلم وراح يسجل :

-تأكيد أهميـــة المشـــاركة الاقتصاديـــة وســـقوط نظريـــة الاســـتقلال الاقتصادى ، وتأكيد إدراكنا وإدراك العالم كله لمسئوليتنا إقليميـــا ودوليـــا ، وقدرتنا على القيام بالدور الذى تفرضه هذه المسئولية •

توقف القلم في يده ورفع إليه عينيه وهو يسأل متحرجا :

-اسمح لى معاليكم ، أى مسئولية ؟

رد ببطء ليمنحه فرصة مزدوجة ، للفهم والكتابة :

-مسئولية قيادة المنطقة لتتسق مع التوجهات الجديدة للنظـــام العـــالمى سياسيا واقتصاديا ٠

مرة ثانية توقف القلم ، هل كانت الفكرة عسيرة إلى هذه الدرجة ، قـــال بصوت متلعثم يجمع بين الخجل والرجاء :

-بعد إذن معاليكم ، أحب أن أفهم ٠

تمتم شكرى لنفسه : "ومنذ متى كنت تفهم ، لو أنك سجلت التوجيـهات وأعطيت التسجيلات لمصباح لكان أفضل" وراح يشرح له بنفاد صبر ، فأخذ يكتب بأناة ما يسمع حريصا على ألا تفوته كلمة ٠

فجأة توقف عن الكلام فتوقف عن الكتابة ، أشعل شكرى سيجارة جديـدة وهو يقول :

-على كل حال الوقت مبكر على نشر هــذا المقــال ، فــالمفروض أن المقالات التحليلية تكون بعد انتهاء الزيارة ٠

وكأنما أخرجت العبارة صادقا من أزمته ، لقد كان يخشى برغم دقته في الكتابة ألا يكون قادرا على نقل المضمون الحقيقى للأفكار التـــى ســمعها ، ابتسم بصدق معقبا وهو ينهض :

-قرار حكيم ، أستأذن معاليكم في لقاءات أخرى للمتابعة ٠

أشار إليه بالبقاء في مكانه وهو يسأل :

-هل مصباح معك ؟

خفض بصره إلى موطئ قدميه وهو يجيب :

-في طائرة المقدمة ٠

ابتسم شكرى ، لقد كان متأكدا من أنه لا يمكن أن يتركـــه بعيــدا فـــي القاهرة ، تساءل بهدوء :

-ما رأيك فيه ؟

وشى صوته بالحيرة وهو يقول :

-من أى ناحية ؟

أدرك شكرى ما جال بخاطره فأراد أن يطمئنه حين قال موضحا :

-من جهة قدرته على التعاون معك ٠

استغرقه الصمت ، هل حلت اللحظة التى نسيها في غمرة الفرحة بالتجديد بعد سن المعاش وكان عليه أن يفكر فيها ، فالتجديد لعام واحد ، والاستقرار على بديل مسألة ضرورية برغم أنها تضعه في موقف حرج ، لأن اثنين من الثلاثة الذين يتعاونون معه يتطلعان إلى مساندته ، فضلا عن الذين يتطلعون إلى أن يرثوه بحكم مناصبهم الرسمية في المؤسسة ٠

تأمل شكرى وجهه الذى اجتهد في أن يجعله محايدا ، لكن حدثه الصمت بالرسالة الخفية فتابع مفسرا :

-لا تذهب بعيدا ، إننى أقصد مدى تعاونه معك في بيان الخط السياسى للقيادة ٠

هز رأسه وهو يرد بحذر :

-إلى حد ما ٠

-بوضوح أكثر ، هل يخالف التوجيهات عمدا ٠

غمغم معتذرا ٠

-لا أظن ٠

تمتم شكرى لنفسه : "هذا ما يعجبنى فيك ، أنك نعرف حدود قدرتك ولا تتظاهر بما لا تستطيع" ٠

-إذن مرد الخطأ في التفسير أحيانا إلى سوء الفهم ، ليتك تحضره معك لمقابلتى بعد الوصول ٠

قال وقد اكتسى وجهة قتامة :

-أوامر معاليك :

أحب أن يخفف عنه فأمسك بيده ومال عليه مبتسما وهو يهمس :

-اطمئن تماما ، لقد كنت معك في الماضى وسأظل معك في المستقبل ، وحين يحين الوقت للتفكير في الموضوع الذى تفكر فيه ستكون لك كلمتك ٠

-شكرا لمعاليكم •

قالها وصمت لحظة قبل أن يضيف :

-وحتى لو تجاوزتمونى ، كل أملى في معاليكم أن أكون أول من يعلـــم بمن سيجلس مكانى •

-لك هذا ، أعدك بذلك •

تسللت الراحة وراح التجهم وابتدأت ابتسامة رقيقة تأخذ طريقـــها إلـــى الوجه العابس وهو يعقب :

-أكرر الشكر لمعاليكم •

رد بنغمة لا تخلو من كبرياء :

-لا داعى للشكر •

قال بصوت ملؤه الخضوع كأنما يستنكر :

-كيف وأنا عاجز عن الوفاء بما لكم علىّ من حقوق •

هل كانت مصادفة أو كانت تراقبه ، فلم يكد يلتفت إلى المضيفـــة فـــور قيام الأستاذ صادق لينتقل إلى مكانه حتى وجدها قبل أن يشـــير إليـــها بيـــن يديه ، أشرقت ابتسامته وهو يقول معبرا عن رضاه :

-أنت رائعة •

ردت ببحتها المميزة وعيناها في عينيه :

-تحت أمر سعادتك دائما •

داعبته الكلمات وهمّ أن يداعبها بمثلها ، لكنه تذكر ما كان يفكـــر فيـــه طوال الوقت • فسألها :

-هل تعرفين سرّى بك

لم يفته أنها برغم حرصها ارتسمت على شفتها السفلى حركة امتعـــاض لا إرادية ، تمتم لنفسه : "وراءك سر أيضا ، سيأتى دورك قطعا ، تســـتحقين بالفعل الاهتمام" فلما هزت رأسها نفيا قال بهدوء :

-أرجو أن تتأكدى أين هو •

ظلت واقفة لحظات كأنما لم تسمع ، تظاهر بأنه لم يلحظ ما ألمّ بها فتابع كما لو كان قد عدل عن رأيه :

-يمكنك أن تكلفى أحد زملائك بالبحث عنه لأننى أريد أن أراه ٠

وحتى لو لم يطلب منها تكليف غيرها ما كانت لتستطيع تنفيذ طلبه بنفسها ، فتجربتها الشاذة التى أغراها بها ما زالت حية ، وهل يمكن أن تنساها وهى مسجلة صوتا وصورة : " ستنامين معها - عارية ؟! - وما المشكلة ؟ - هذا شذوذ - لا تكونى متخلفة ، في أوربا وأمريكا يعتبرونه شيئا عاديا جدا بالتأكيد أنت تعرفين - لا أستطيع - بل ستستطيعين - كلا لن أفعل ذلك أبدا - لن ترفضى ، أنا متأكد - أبدا أبدا - مصممة ؟ - مهما كانت الظروف فلن أفعل ذلك ، تأكد - لا داعى للتأكيد ، وعليك قبل أن ترفضى أن تتفرجى على هذا الفيلم - أى فيلم ؟ - تعرفين ما فيه قطعا ؟ - أى فيلم ؟ - تسجيل كامل لما كان بيننا أمس - نعم ؟! - كامل ، كل حركة ، كل صوت كل - نعم !! معقول - خال من المونتاج ، هذا أجمل ما فيه - أنت مجنون ، نسيت أنك فيه - الذى فيه ظهر رجل ، يمكن أن يكون أى رجل ، لكنك أنت لا أحد غيرك ، وجهك ويداك وجسمك و ٠٠ كل شيئ كل شيئ باللقطات المكبرة ، لحظة بلحظة - أنت مجنون - إذا كنت مجنونا فكونى أنت عاقلة ونفذى ما أريد ٠٠ لا تقولى شيئا الآن ، ولكن لا تنسى شيئا أبدا معها - ما تطلبه شيئ مقرف - مهما كان ما ترينه مقرفا ، فالذى تعتبرينه مقرفا يراه غيرك قمة في الإثارة والمتعة " ٠

همست لها زميلتها فور عودتها :

-إنه موجود في قسم الضيافة ٠

تمتمت لنفسها : "بحكم المهنة ، يفتش عن فريسة جديدة" ومضت ببطء لتبلغ شكرى بموقعه ٠

* *

قبسة

من سفر الثورة

لمحة من ثقافة عصر الملك المملوك

١- من أذكار النخبة .

٢- من أدعية العامة .

٣- من معجم "بيان اللسان" .

نصوص بدون تعليق أو تدقيق أو تحقيق أو دراسة

١- من أذكار النخبة

افتتاحية :

أبانا الذى في الأرض
دامت طلعتك البهية علينا
استقر سلطانك المتحكم فينا
رسخت قوائم عزك المذل لكل عزيز
تلاحقت هوادى عبقريتك الماحية لكل عبقرية
تألقت أشعة حكمتك المناقضة لكل حكمة
أحاطت طقوس إرادتك الخالية من كل إرادة
برعاياك
في المنازل والشوارع والديار
آناء الليل وأطراف النهار
تغمرنا هواجس التفكير فيك
تصرعنا طقوس العبودية لك
وتنهمر على رءوسنا تجليات المقربين منك

تسبيحـــة :

أبانا الذى في الأرض

عيونك أوسع من كل العيون
بها تَرى ما لا يُرى
وبـها تبصر ما لا يُبْصَر
ترى خطو النمل في جوف الظلمة
وتبصر سير الزمن في أعماق العتمة
المستقبل بك ماض قد تبدد
والماضى عندك مضارع لا يتجدد
والأمر إليك وبك
فيك وعنك
ومنك
يتولد ويتأكد

أبانا الذى في الأرض

* * *

تسبيحـــة :

أبانا الذى في الأرض

أياديك مبسوطة علينا

أظافرك مغروسة في أحداقنا

أنيابك ممتدة في عظامنا

ظلالك تختال في أضلعنا

تزرع الخشية منك

تقصر التضرع عليك

تمد الرعب طوقا يحيط بك

تبنى الهوان سياجا يقصيك

تنشر الحصانة حصنا يحميك

تجعل العصمة رتاجا

مفتاحه بيدك

أبانا الذى في الأرض

* * *

تسبيحـــة :

أبانا الذى في الأرض

آذانك الكثر الطوال أكبر من كل الآذان
تقرأ ما قد يتردد
من همس
في أعماق النفس
ترى الفكرة شاهقة البنيان
ولما تتولد في رأس
تستشرف الخاطرة العابرة قبل أن تتخلّق
تسمع طيف أحلام الحالمين وهم أجنة في بطون الأمهات

أبانا الذى في الأرض

* * *

تسبيحـــة :

أبانا الذى في الأرض

أنت أنت ، لا أحد قبلك ، ولا وجود معك ، ولا شيئ بعدك
أنت الكل وأنت الواحد
أنت القائد وأنت القيادة
أنت المفكر وأنت الفكرة
أنت الحكيم وأنت الحكمة
أنت المتكلم وأنت الكلمة
أنت المريد وأنت الإرادة
أنت المقرر وأنت القرار
أنت الحامى وأنت الديار
للمقربين منك الجنان في كل مكان
من شرم إلى أسوان ، من السويس إلى توشكى ، إلى سيوة إلى حلوان ٠
وغاية الغاية في الأمور الحسان
أما غيرهم فلهم الهوان ، وعذاب النيران ، تسعّر عليهم في كل آن
أنت أنت

أبانا الذى في الأرض

* * *

تسبيحــة الصهللة الجماعية ، في المعسكرات الجامعية :

أبانا الذى في الأرض - لك وحدك تعنو الجباه

أبانا الذى في الأرض - لك وحدك تهفو القلوب

أبانا الذى في الأرض - بك وحدك نعيش الحياه

أبانا الذى في الأرض - بك وحدك تمضى الغيوب

أبانا الذى في الأرض

أبانا الذى في الأرض

أبانا الذى في الأرض

٢- من أدعية العامة

دعاء عم حسين

بياع البليلة في درب عجور في بركة الفيل

* *

الله يخرب بيته وينتقم منه ، يارب يشوف يوم أسود من قرن الخروب ، إلهى يشوف النار اللى كوانا بها ويتحرق قلبه زى ما حرق قلوبنا ، ربنا يذله ويهده ويرزقه باللى يخلص القديم والجديد منه

* *

آه لو ربنا يقبل الدعوة ويلمه والظلمة اللى زيه في ميدان التحرير ، وكل من له حق يأخذ منكم حقه ، ويتف عليكم تفة واحدة بس ، لا يارب ، بلاش حكاية التفة دى ، لأن لو كل مظلوم تف تفة واحدة حيحصل طوفان يغرق البلد واحنا مش ناقصين ٠

يارب يا كريم أنت عارف اللى عملوه فينا ، يعنى حتسيبهم كده ، يعنى مفيش رحمة ولا عدل في الدنيا ، طيب وآخرتها نعمل إيه ، ما هو لازم تعمل حاجة تفش غليلنا ، أقول لك يارب ، ارزقهم بزلزال يشق الأرض ويبلعهم لكن اعمل حسابك بلاش الغلابة أحسن يروحوا في الرجلين ٠ خليهم هم لوحدهم اللى يروحوا في ستين داهية ٠ يارب وحياة حبيبك المصطفى ما تخلى منهم ولا واحد ٠

من دعاء خالتى شفيقة
بياعة الفجل والجرجير
في رأس عطفة المملوك مبروك بسوق السلاح

* *

إلهى ونت جاهى ، وحياة حبيبك النبى ، خليك ع المفترى ، دا احنا غلابة ومش لا قيين اللضا ، إلهى توعده بمصيبة تحط على دماغه ستين مليون غليون نيلة ، تلغمطه من ساسه لراسه هو ، واللى زيه ، واولاده وأهل بيته فردا فردا ، انت يارب شايف وعارف دا ما بيسبش حد ، مش مخلى : يتامى واكل ، غلابة واكل ، فقير واكل ، غنى واكل ، مش عاتق ، يعنى مش كتير ترزقه باللى يقصف عمره ويخلص الخلق من شره ، قادر يا كريم ٠

* * *

٣- من معجم بيان اللسان

السَّلَطَة :

بفتح الثلاثة - السين واللام والطاء - وقد تزاد ألف بين اللام والطاء فيقال : السلاطة ، وهى شيئ مادى عبارة عن تشكيلة من خضروات ذات طعم مزّ هو مزيج من طعوم متداخلة ، وهى والسُّلطة - بضم السين وإسكان اللام - والتسلّط - بالتاء الزائدة في أوله وتضعيف اللام - من باب واحد ، ولكن هذين يختلفان لأنهما من الأمور المعنوية التى تجمع بين الجهل والغرور والكذب والتنفج والتربح ، وهى تتفاوت فيما بينها في الدرجة لكنها تطرد بحسب المكانة ، فكلما ازدادت المكانة أهمية ازداد الجهل عمقا والكذب حمقا والغرور شدة والتنفج ظهورا والتربح شمولا واستيعابا ، ويطلق على هؤلاء غالبا : الكبار ، وقد يوجد شيئ من ذلك وإن كان قدرا ضئيلا في بعض من لا أهمية له من صغار الموظفين والعاملين في الدواوين ، ولهؤلاء مصطلحات تعرفهم بها ، مثل قولهم : انت عارف أنت بتكلم مين ؟ وقولهم : أهو دا اللى ناقص ، تعال بأه اقعد مطرحى ، ما هى سايبة ٠ ويميز بين النوعين : الكبار والصغار - فضلا عما ذكرنا - أن الصغار يعرفون حقيقة أمرهم ، فيقرون بينهم وبين أنفسهم بصغر شأنهم وحقارة مراكزهم ، وقد يعترفون بذلك لخاصتهم ، أما الآخرون فلا يعرفون ولا يعترفون ٠

قال ابن الكاشف : لكنى أعرف من هؤلاء واحدا ، برغم أنه كان يعد من كبار الكبار فإنه سلك في مواقف عدة مسلك الصغار ، اعترف فيها على الملأ بضعة قدرته وصغار قدره وهوان شأنه وذلته ، وسكت عن مذلة كل من يلوذ به ٠ ومع ذلك ما زال حوا ريوه يعدونه من الكبار ، ويرفعون صوره الضخام الهائلة الحجم في كل دار ، ولا حول ولا قوة إلا بالواحد القهار ٠

الأعمال الأدبية للمؤلف

- الموت عشقا .
- العاشق ينتظر .
- أشجان العاشق
- سفر الغربة .
- الساعة الأخيرة .